

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIÉTÉ ÉGYPTIENNE D'ÉTUDES HISTORIQUES

المجلد،
التاريخية
المصرية

١٩٧٠

المجلد السابع عشر

الجمهورية العربية المتحدة
القاهرة

المحتويات

صفحة

كلمة تآبين الراحل العظيم الزعيم « جمال عبد الناصر »

بحوث :

- ١ - قصة عبور القديسة هيلانه على خشبة الصليب أسطورة أم واقع ؟
للدكتور اسحق عبيد ٥
- ٢ - صور من الحياة الاجتماعية في المجتمع العباسي في العراق
للدكتورة مليحة رحمة الله ٢٣
- ٣ - حركة التوفيق ١٢١٤ - ١٤٤٩ ودلالاتها السياسية
للدكتور عبد الكريم أحمد ٣٣
- ٤ - مؤرخ مغربي معاصر يصف أحداث أوروبا الغربية خلال سنوات
١٥٨٧-١٨٩٦
للدكتور عبد الكريم كريم ٥٧
- ٥ - أتباع سان سيمون ونشاطهم في مصر (١٨٣٣ - ١٨٣٦)
للدكتور محمود صالح منسي ٦٩
- ٦ - موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل الإحساء
للدكتور جمال زكريا قاسم ٩٣
- ٧ - تجارة الأسلحة في غرب آسيا (١٩١٠ - ١٩١٣)
فارس - أفغانستان - الخليج العربي
للدكتور جاد محمد طه ١٢٩

تقد السكتب :

- ١ - قراءات في السكتب الغربية
للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ١٩٥

أبناء ومؤتمرات :

١ - موسم جمال عبد الناصر الثقافي ٢٠٧

رسائل جامعية :

١ - استدراك ٢١١

٢ - درجة الماجستير ٢١٤

٣ - درجة الدكتوراه ٢٢٠

بحوث باللغات الأجنبية :

Page

British Attitudes towards The Mahdist Revolution.

By Dr. Abbas Ibrahim Muhammed Ali ... 3

البحوث

قصة عشور القديسة هيلانة

على خشبة الصليب

أسطورة أم واقع

بقلم الدكتور اسحق عبيد

مدرس العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة عين شمس

تقديم للنص :

هذا جزء من المخطوطة ١٦٤٩ (بدار الكتب المصرية) ، وهو من كتاب لا نعلم اسم صاحبه ولا حتى عنوانه ؛ لأن المخطوطة مبتورة الأول والآخر . والجزء المتبقى يبدأ برحلة القديسة هيلانة — والدة الامبراطور قنسطنطين العظيم (٣٢٤ - ٣٣٧) — إلى الأرض المقدسة بحثاً عن صليب الصلبوت ، وينتهي باعتلاء الإمبراطور يوستينانوس (٥٢٧ - ٥٦٥) العرش . فهو في الواقع سجل لتاريخ ملوك القسطنطينية .

ومؤلف هذا الكتاب — طى ما يبدو — ليس عربياً ، لأن لغته دارجة للغاية ولأنه يستخدم ألفاظاً يونانية كثيرة من قبيل « فوطاغون » ، « ثاولوغوس » ، « ابروطوريون » . . . الخ . كما أن أسماء القديسين الواردة بالنص مكتوبة في صيغها اليونانية ؛ ولذا فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن الكاتب يونانى ومن جماعة الإكليروس . وهو بالتأكيـد أرثوذكسى من أتباع مجمع خلقدونية (٤٥١ م) ؛ لأنه يتحدث عن الأرمن واليعاقبة و « الحبش » والنساطرة على أنهم هراطقة .

والجزء الذى نعالجه هنا خاص برحلة القديسة هيلانة إلى بيت المقدس بحثاً عن خشبة الصليب التى صلب عليها المسيح . وهذا يجرنا إلى الحديث عن القديسة هيلانة فى شيء من الموضوعية التاريخية ؛ لأن قصة اكتشافها للصليب قد أثار جدلاً كبيراً بين الدارسين ، ولم ينتهوا فيه إلى رأى قاطع .

والإمبراطورة هيلين ، أو هيلانة ، ولدت حوالى سنة ٢٢٥ م وتوفيت حوالى سنة ٣٣٠ ، ويمتثل بيوم عيدها فى الثامن عشر من أغسطس كل عام . وقد ظل

المؤرخون فترة طويلة يمتقدون أنها بريطانية الأصل ، ولكن ليس هناك من الدلائل ما يؤيد هذا الرأي. والنظرية السائدة الآن أنها ولدت في مدينة دريبانوم (هيلينوبولس) في آسيا الصغرى ، من أسرة رقيقة الحال. وقد تعرف عليها الامبراطور قنسطانطيوس فزوجها ، ثم أنجبت له قنسطنطين سنة ٢٧٤ ، على أنه في سنة ٢٩٢ طلق قنسطانطيوس هيلانة لأسباب سياسية .

ولا نعلم بالضبط متى اعتنقت هيلانة الديانة المسيحية ، ولكننا نعرف أنه بعد أن أعلن ولدها قنسطنطين وزميلة ليكنين قرار التسامح مع المسيحية - فيما عرف خطأ باسم « مرسوم ميلان » - في سنة ٣١٢ - راحت الإمبراطورة الأم هيلانة تولى كل اهتمامها لترقية شأن المسيحية في أرجاء الإمبراطورية الرومانية . ولما كنا نعلم أن قنسطنطين العظيم كان يكن لأمه كل التبجيل والتقدير ، فإنه يمكن القول إن نشاطها « المسيحي » كان يتم برضاء من جانب الإمبراطور الابن .

وفي أخريات سنى عمرها قامت القديسة هيلانة بزيارة طويلة لبيت المقدس ، حيث وزعت العطايا والهبات بسخاء زائد على الفقراء . كذلك ساهمت بذهبها ورأيها في إنشاء الكثير من الكنائس هناك .

ويرتبط اسم هيلانة بوجه خاص باكتشاف صليب الصلبوت الذى وجدته - حسب قول الروايات - مطموراً بجوار تل من تلال الجلجثة . ولكن المؤرخين المعاصرين لا يذكرون شيئاً ألبتة عن دور هيلانة في مسألة العثور على الصليب المقدس، وإن كان من المؤكد أنه قد عثر عليه في القرن الرابع . ويرجح أن الإمبراطورة القديسة كانت قد توفيت قبل اكتشاف خشبة الصليب . ورغم هذا فإنه ابتداء من نهاية القرن الرابع ارتبط اسم هيلانة بصليب الصلبوت .

أما التساؤل عما إذا كانت هذه الخشبة التى عثر عليها ، هى فى الحقيقة الصليب الحقيقى أم لا ؛ فهذا موضوع آخر لا أزعم لنفسى المقدرة على الحوض فيه ، فهو من الأمور المستعيلة فى الدراسة التاريخية اليوم .

هذا وقد زدونا الحواشى بمادة تاريخية لقائمة القديسين الذين ورد ذكرهم فى هذا النص حتى تكون الفائدة كاملة .

النص

« وللهين أتوا بخوف ووقفوا أمامها^(١) ، فابتدت وقالت لهم : أروني المسكان الذي فيه محبوب^(٢) صايب المسيح ، فنكروا وقالوا لا نعم أصلاً ولا سمعنا منذ قط عن هذا . فقالت لهم أيضاً قولوا لي الحق كيلا أميتكم ، فنكروا أيضاً . حينئذ قالت للأجناد : أشعلوا النيران وأحرقوهم . فلما سمعوا ذلك ارتعدوا ، وللهين أجابوا وقالوا للملكة : ياسيدتنا : إن أردتي أن تجدي الصليب وغيره مما توتر به^(٣) نخذي يهودا هذا واستفحصيه ، وهو يعرف جميع ما هو رأيك ومقاصدك ، لأنه نبي وابن رجل صديق ، يعرف الناموس في الغاية أفضل من الكل . حينئذ أمرت بتخليتهم^(٤) ومسكت يهودا فقط . وقالت له : الحياة والموت موجودان ، فاختار لك من الاثنين ما تريد . فأجاب وقال لها : ماذا تريد ياسيدتي أن أصنع ، فقالت له الملكة : إن أردت أن تمشي هاهنا وفي العالم السماوي ، قل لي أين هو محتفى صليب المسيح . فأجاب يهودا : ليس لنا علم إذ كنا بعد شباب ، وما وصلنا كذلك الآوان ، ولسنا نعرف ولا سمعنا من أجله شيء ، فاعملي الذي يترسميه^(٥) . فأمرت أن يضعوه في بير ناشف عميق ، فمكث هناك باستيثاق حزين سبعة أيام بغير خبز ولا ماء ، حتى صار كجابت^(٦) . فزعم صوتاً عظيم ، وقال : أخرجوني من هاهنا ، وأنا أريك مكان صليب المسيح . وهكذا أخرجوه وأتوا به أمام منبر الملكة . فمضوا معاً إلى المسكان الذي صلب فيه الرب . ولم يعرف جيداً أين الصليب محتفى . حينئذ وقع أمام الملكة مصلياً قايلاً : أيها الرب السيد إلهنا ، يامن خلقت الإنسان على صورتك ومثالك ، يامن تسود على السموات والأرض والملائكة والبشر ، يامن أرسلت ابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح الذي لأجل خلاصنا اقتبل الصلب ، وقام لثلاثة أيام^(٧) ، منك نطلب ونحملك تنضرع ، نحن عبيدك لكيما تظهر لنا السكندز الخفي الذي هو الصليب الكريم الصانع الحياة ، حتى إذا استوعبنا منه رائحة ذكية ، نتملى نعمة روحانية ، وأنا الخاطي أومن به وأحوذ غفران ومسامحه . ولما تم صلواته ، للهين ياله من عجب تنزل المسكان ،

(١) أمام الإمبراطورة هيلانة . (٢) محباً . (٣) تبغيه .

(٤) إطلاق سراحهم . (٥) فاعملي ما تبغين . (٦) حتى أشرف على الموت .

(٧) وقام بعد الدفن بثلاثة أيام .

وخرج دخان ورايحته بخور طيب عطره من المكان الذي كان فيه الصليب محتفياً .
فتمجبت الملكة وسائر الناس ، وحينئذ شكر يهودا الله وقال : بالحقيقة يامسبحى أنت
هو ابن الله الحى ، أنت هو مخلص العالم ، وأطلب منك أن تحصينى مع أول شهدائك
استفانوس^(١) لأنى أنا من جنسه وقبيلته . ثم أخذ الفاسات^(٢) مع الأراخنة
الكثيرين ، وحفروا عشرين قامة ، فوجدوا الثلاث صلبان : صليب المسيح و صليب
اللصان اللذان صلبا معه^(٣) . فلما نظرت الملكة ذلك فرحت كثيراً . وحينئذ قالت
ليهودا : من أين تعرف أيهما هو صليب المسيح ، وبعد هنيئة اجتازوا بيت لى
يدفتوه ، وأن يهودا للحين أتى به إلى أمام الملكة ووضع على المايت الصليب الأول
فلم تصير آية^(٤) ، ووضع الثانى فكان كذلك ، لأنهما كانا صليبان اللصان .
فلما وضعوا الصليب الثالث الذى هو صليب المسيح ، فللحين قام الميت واعتلن مجد
الله وقوة الصليب .

فلما رأت زمرة اليهود هذا العجب آمنوا بربنا يسوع المسيح . وأما المغبولة

(١) استفانوس : هو أول الشهداء ؛ استشهد فى أورشليم حوالى سنة ٣٥ م ،
ويحتفل بعيدة فى السادس والعشرين من ديسمبر . وكل ما يعرف عن أول الشهداء مسجل
فى الإصحاحين السادس والسابع من « أعمال الرسل » . وقد كان استفانوس « رجلاً يفيض
ليلاً وقوة » ، وهو بلا شك يهودى ولكنه كان يتكلم اليونانية ، لأنه كان على رأس
الشماسة السبع الذين اختارهم الرسل لرعاية شئون الأرامل الناطقات اليونانية فى أورشليم .
وكان استفانوس مبشراً ممتازاً « أنى بكثير من الأعاجيب والمعجزات » ، ولذا فإن الجمع
اليهودى أدانته وألصق به تهمة « التجديف » . وأمام هذا الحجم تحدث القديس فلغن حاخامات
اليهود لمقاومتهم « الروح القدس » ، مذكراً لإياهم أن أجدادهم أيضاً قد اضطهدوا الأنبياء
ونكلوا بهم ، تماماً مثلما فعل رؤساء كهنة اليهود حينئذ مع المسيح بأن قتلوه . وبعد هذا صاح
استفانوس وهو فى شبه حلم : « انظروا هو ذا ابن الإنسان يدخل أبواب النعم ليوقف عن
عين الله الأب » . وعندها اقتيد استفانوس إلى خارج مدينة أورشليم حيث رمته اليهود
بالحجارة ، وقد صرخ وهو يسقط شهيداً : « سيدى يسوع ، تقبل روح عبدك الأمين ...
يا لى اغفر لهم » . وكان يقف عند هذا المشهد شاوول الطرسوسى العدو للودود للمسيحين ،
الذين لقوا على يديه صنوفاً من التنكيل . وقد صار شاوول هذا فيما بعد أستاذ المسيحية الأول
فهو القديس بولس الرسول .

(٢) الفؤوس .

(٣) صلب هذان اللصان العاتيان مع المسيح : واحد عن يمينه وآخر عن يساره .

(٤) أى معجزة .

هيلانة فرحت كثيراً ، وابتهجت ومجدت الله الذى أهدها^(١) لهذه النعمة ، وتمجبت من أمانة يهودا ، كيف أظهر مثل هذا السعى بعد الجهد ، وأخذت الذى تاقب اليه وطلبتة : أعنى الصليب المكرم ، وعملت له صندوق ذهب بحجار ثمانية ولولو نفيس ، ووضعت فيه بوقار وخوف كثير فعلته . حينئذ استدعت يهودا وقالت له أن يبحث عن المسامير التى سمر بها المسيح . وطلب يهوداً مع بقية النصارى ، فلعج المكان الذى كانوا فيه ، وحفروا فوجدوهم يلمعون كالشمس فتناولتهم الملكة ، ووضعتهم مع الصليب المكرم .

وأما يهودا فبعد اعتناؤه^(٢) ، عملته الملكة رئيس كهنة لأورشليم . وبعد ذلك بنت كنائس عظيمة فابقة بما أنها مومنة وورعة وحسنة العبادة فى مكان قبر الرب ، ومكان الجلجلة^(٣) وبيت لحم ، وجبل الزيتون ، وطور نابور ، والأماكن الأخرى ، الذى تردد المسيح بها ، وعلم وتألم بالجسد ، وأيضاً هياكل كثيرة التى نكتبها باختصار :

فالأول قبر الرب الصانع الحياة ، الذى هو هيكل عظيم ومدور البناء ، وهو فى وسط أورشليم المدينة المقدسة ، وله قبتين وقناطر حسنة ملاصقات الهيكل المقدس . ومن بعد يستبين رسم صورة الثالوث المقدس . وأما القبة الواحدة التى هى فوق القبر المقدس فإنها مغطاة ، ومن هناك ينزل النور البهى نور القيامة المقدس فى يوم السبت العظيم . وأما القبة الأخرى فمن خارج ملبسة برصاص ، ومن داخل مربوطه بالأخشاب إلى حد زنار الحايط . ومن نازل مزوقة بيلور مذهب صور جميع الأنبياء والقديسين قسطنطين وأمه هيلانة . ومن تحت رخام أحمر فى الحايط منقوش ودار السكايتخومانان القبر المقدس ثمانية عواميد رخام منقوش ، وثمانية ركائز طوال : فالعواميد فى الرواست وتحت الصخر ستة عشر عامود غلاظ ، وركائز طوال ثمانية . وفى وسط القبة التى بصخر القيامة قبة لطيفة صخرية ، وفى

(١) ألهمها .

(٢) أى بعد قبوله المعمودية واعتناقه المسيحية .

(٣) الجلجثة : المكان الذى صلب فيه المسيح .

وسطحها قبر الرب المقدس . وفي دخولك من باب القبر المقدس هناك الحجر الذي دحرجه الملاك في فم القبر ، وهو مثل المائدة المقدسة ، والقبر المقدس ، فهو رخام لطيف ، وفوقه قناديل غير مطفأة ثمانية وثلاثين . وهناك مصور دفن المسيح وقيامته وصموده ، ودائره جميعه مرخم . ومن هناك بقليل كنعجو خطوتين الحجر الذي جلس الملاك فوقه وقال للنسوة : يسوع تظلمن ، قد قام ، ليس هو ها هنا . وفوق الحجر معلق أيضاً أربع قناديل غير مطفئة ، وفوق القبر المقدس قبة صغيرة مغطاة مرصعة برصاص ، يحملها إثني عشر عامود رخام ، مذهبات الروس ، مزوقات كلهم بنفسه . ومن هناك ينزل النور المقدس يوم السبت العظيم . ودائر القبر المقدس ، من ناحيته البرانية ، هناك كنائس الأراطقة (١) : الأرمن (٢) واليعاقبة (٣) والحبش (٤) والنساطرة (٥) ، والأرثوذكسيين لهم الكنيسة الكاثوليكية . وفيما بين القبتين قنطرة كبيرة مصورة بيلور : أيقونات الصعود والبشارة ، ومعلق هناك قنديل ساهر ، وتحت التبة في الصخر نصف الدنيا ، وهناك قناديل كثيرة . وهناك هيكل الكنيسة مصور ومكتوب دايره : معنا هو الله فاعلموا أيها الأمم وانهمزموا لأن الله معنا . ودائره إثني عشر عامود وأربعة قناديل ، وهناك كراسي البطارقة يزهرون . وهناك قناديل ثلاثين ، وخلف الهيكل المقدس هناك حبس المسيح ، ومنه خمسة عشر قدم ، مكان القيود التي وضعوها في رجلى المسيح ، مرخم . وفيه مائدة حيث يقعدسون ، وهناك أربعة قناديل غير مطفئة ، وأمام المكان الذي عملوا

(١) الهراطقة .

(٢) الأرمن : اختلف الأرمن مع كنيسة يزنطة منذ أيام بجم خلفدونية (٤٥١ م) ، وهم أميل إلى الاعتقاد بالطبيعة الواحدة للمسيح ، فهم في عداد المناقزة من وجهة النظر الخلقونية (الأرثوذكسية) .

(٣) اليعاقبة : هم مناقزة (أصحاب الطبيعة الواحدة للمسيح) سوريا . وقد اتخذوا اسمهم من زعيمهم يعقوب برادايوس من ارها الذي تمكن ، بعمونة الامبراطورة تيودورة ، من تقوية نفوذ فرقته في الشام .

(٤) الحبش : الأبحاش أيضاً يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح ، مثلهم في هذا مثل أقباط مصر ، الذين حرّموا من المشاركة في أعمال بجم خلقونية ثم أدينوا بالهرطقة .

(٥) النساطرة : هم أنباغ نسطوريوس الذي قال إن العذراء مريم أم المسيح في طبيعته البشرية لا الإلهية ، وقد أدينته تعاليمه في بجم افيديوس الأول سنة ٤٣١ م .

فيه مسامير الصليب ، وقدامه بقليل في كنيسة الإفراج ، في الأرضية ، رخامة مدورة ومثقوبة في وسطها ، فيضعون الناس آذانهم في الثقب فيسمعون صوت دوى وصدا كحس نقر النحاس ، وخلف الهيكل المقدس المكان الذى اقتسموا فيه الجند ثياب الرب وعن يسار القبر المقدس من ناحية الهيكل المقدس بتطلع (١) في خمسة عشر درجة ، وتدخل إلى مكان الجلجلة حيث نصب صليب المسيح واللصين . وفي هذا المكان قال اللص : اذكرنى يارب ، ومصور صلبت المسيح . وهناك فناديل ساهرة خمسة عشر . والجلجلة مبنية قبو مصلب ومصور يبور صور الأنبياء و ابراهيم واسحق ويعقوب وأرضية الصحن كله منقوش فسيفسه . ومن خلف الجلجلة بتنزل ثلاثين درجة إلى تحت هناك هيكل القديسة هيلانة بأربع عواميد رخام . والعامودين ينضحون ماء بارداً بالصيف . وهناك كرسي القديس يعقوب أخو الرب ومنه بتنزل اثني عشر درجة ، فهناك المغارة التي كان بها يجثني صليب المسيح ، وفيها مايدة يقدسوا عليها فوطاغون . وهناك أربع فناديل ، وأمام القبر المقدس الموضع الذى فيه كفننا يوسف ونيقوديس جسد المسيح ولفوه بسباني نقيه ، وهى ملبسة برخام أسود ساقى ، ومعلق هناك ثمانية فناديل لا تنطق . وهناك أربعة عواميد رخام وقبو مصلب ، فالقنطرة التي للكنيسة ثلاثين ، ولها ثلاثة أبواب فالواحد غربى الذى منه دخلت البارة مريم المصرية ومنعت من الدخول بواسطة ملاك . وفوق مصورة السيدة التي صارت كقبيلة لهذه البارة . وأما البابين الآخرين قبلات ، فيهم ستة عواميد رخام وثلاثة سماقى وعتبة فوقانية لطيفة ، وفي قربهم قبة صخرية مصورة بفسيفسة ، وهو المكان الذى جلس فيه الملك للحكومة . وأيضاً صحن القبر المقدس منقوش برخام ، وهناك أربعة عواميد الذى وضعوا المايت فرقهم ، الذى أقامه صليب المسيح . وهناك ثلاث كنائس : قيامة المسيح والأرمنين شاهد ، ويعقوب أخو الرب ، وحاملات الطيب . وهناك نظرت مريم المجدلية الرب يسوع المسيح من بعد القيامة وتوهمت أنه البستانى وقالت له : يارب أين وضع جسد يسوع . فأجابها الرب : مريم لا تقربينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى . ومن هناك وفوق قليل دار البطركية ، وفوقها بقليل دير الثلثة الهداية ، يسكنونه راهبات ؛ لأن من هناك

(١) يقصد « إذا ما طلعت » .

وقفت أم الإله وعابنت ابنها مصلوباً ، وانتحبت نادبة . ومن القبر المقدس كنحو غلوة في ذلك الجانب ، يوجد اثني عشرة ديراً و غربى القبر المقدس : الأول للسابق ، الثاني لمعظم جاورجيوس (١) الثالث للجيليل ديمتريوس (٢) ، الرابع للقديس نيقولاوس (٣)

(١) جاورجيوس : يظن أن القديس جاورجيوس (سان جورج) قد استشهد في أخريات القرن الثالث أو بداية الرابع . ويحتفل بيوم عيده في الثالث والعشرين من أبريل . ومار جرجس أو سان جورج هو قديس إنجلترا وولى شبان الكشافة وعلى اسمه تقوم كنائس لا تحصى في العالم ، ويهتم المشرق به وبعميده اهتماماً زائداً . على أنه ليست هنالك مادة تاريخية عن حياته ، وكان من نتيجة تخطيط الأساطير التي تدور حول هذا الشهيد أن خلص البعض من الدارسين إلى أن مار جرجس ما هو إلا شخصية أسطورية . هذا ولقد بدأ تبجيل القديس في صورة الجندي « العلوى » منذ وقت مبكر ، وكان مركز هذه الفكرة في ديوسبولس وهي مدينة اللد الآن . وربما كان أن سان جورج قد استشهد هناك في نهاية القرن الثالث أو بداية الرابع .

أما الأساطير التي تدور حوله فهي عديدة ، ولا يقبلها المؤرخون على إطلاقها . ولعل أشهر هذه الروايات ماورد في كتاب « الأسطورة الذهبية » ، الذي ظهر في العصور الوسطى المتأخرة ، حيث يبدو القديس « فارساً من كبادوكيا » ، ثم منقذاً لفتاة من مدينة سيلين في ليبيا من أياب التنين . الأمر الذي أدى إلى اعتناق الآلاف من أهالي هذا الإقليم للمسيحية . وبعد عديد من المعجزات التي تمت على يديه ، سقط سان جورج ضحية لاضطهاد دقلديانوس الذي أمر بقطع رأسه في نيقوميديا .

أما كيف أصبح سان جورج القديس الحامي لإنجلترا فهو أمر محير ، والمعروف أن اسمه كان متداولاً في إنجلترا وإيرلندة قبل الغزو النورماندى لإنجلترا (١٠٦٦) . ويرجح أن الصليبيين الإنجليز العائدين من الأرض المقدسة قد ساعدوا على ازدياد شعبية هذا القديس بين بني جلدتهم . وفي سنة ١٤١٥ أصبح يوم عيده احتفالاً على رأس سائر الاحتفالات في إنجلترا .

(٢) ديمتريوس : لا يعرف تاريخه بالضبط ، وإنما يحتفل بعيده في الثامن من أكتوبر . ويظن أنه كان من بين شمامسة سرميوم (متروفتشا في الصرب) . على أن مركز شهرته كان في سالونكا . والقصة التي تدور حوله نحوها أنه قبض عليه بسبب تبشيره بالمسيحية في سالونكا ، على عهد الإمبراطور ماكسميان ، ثم قتل . ثم اكتسبت قصته لسات أسطورية فقبل عنه لأنه كان بروقتصل (قنصلاً سابقاً) وأنه من مشاهير المحاربين من طراز سان جورج . ولقد ازدادت شعبيته تدريجاً وانتقلت من سالونكا إلى سائر أقطار المشرق .

(٣) نيقولاوس : عاش في القرن الرابع ، ويحتفل بعيده في السادس من ديسمبر . من =

الخامس للقديسة تقلا^(١) ، السادس للقديسة حنة^(٢) ، السابع للقديس ايثيموس^(٣)

المعروف أنه كانت توجد كنيسة في القسطنطينية باسم هذا الأسقف القديس في القرن السادس . وبداية من القرن التاسع — في المشرق — والحادي عشر في غرب أوروبا صار نيقولاوس أكثر القديسين شعبية ، فعدا القديس الحامي للبدان وولايات وبروشيات ومدن لا تحصى ولانعد ، كما اتخذه البحارة والصبية والتجار ولياً لهم يتبركون بذكر اسمه وترتيل الأناشيد له ، كما تسابق الفنانون في تصويره بالرسم والنحت . ورغم كل الأساطير التي تدور حول هذا القديس ، فإنه من الناحية التاريخية لا نكاد نعرف عنه سوى توليه منصب الأسقفية في مدينة ميرا في جنوب غربي آسيا الصغرى في القرن الرابع .

ولقد شاعت أسطوره في القرن التاسع . ولعل أهم ما ورد فيها أن القديس انتشل ثلاث فتيات من وحل الدعارة بأن ألقى إلى كل منهن من خلال نافذتها حقيبة مملأ بالذهب . ويحكى عنه أيضاً أنه أحيى من الموت ثلاثة صبوة كانوا قد اغتيلوا عدواناً . كما انه قد أنقذ — وفقاً للأسطورة ذاتها — بعض البحارة من موت محقق على مقربة من الشاطئ الآسيوي ومنصة ليقيا . على أن التاريخ لا يؤيد هذا ولا يعلم شيئاً عن قصة استشهاده في سبيل المسيحية قبيل اعتلاء قسطنطين العرش . كذلك قيل إنه كان من بين الحضور في مجتم نيقية المسكوني (٣٢٥م) ، ولكن هذا غير ثابت أيضاً .

والقديس نيقولاوس بوصفه ولياً للصبوة هو الأصل في قصة « بابا نويل » ومصدر الإلهام لشخصية « سانتا كلوز » . وفي سنة ١٠٨٧ سرق بعض التجار الإيطاليين رفات القديس من ميرا ونقلوها إلى مدينة باري في أپوليا ، ولا زالت باقية هناك . وهذا الرمز المميز للقديس نيقولاوس، عبارة عن ثلاث كرات .

(١) تقلا : وهي شهيدة عذراء من القرن الأول ، ويحتفل بعيدها في الثالث والعشرين من سبتمبر ، وتستمد أسطورتها من « أعمال القديس بولس الرسول » التي كتبت حوالي سنة ١٧٠ م . ومنها نعلم أن تقلا كانت من مواطني قونية ، وأنها اعتنقت المسيحية على يد القديس بولس . وبعدها تخلت عن خطيبها ووهبت بتوليها لله ، مما عرضها لاضطهاد شديد . ولكن محاولات قتلها بالنار وبالوحوش المفترسة قد فشلت . وبعدها اعتزلت القديسة إلى كهف في مريا ملك على مقربة من سلوقية ، حيث عاشت على هذا المنوال سنين طوالاً . وعندما بلغت التسعين من العمر تعرضت تقلا مرة أخرى للاضطهاد هذه المرة من جانب رجال الطب الذين كانوا يحسدونها على مقدرتها على الشفاء الروحي لسائر الأسقام . على أن صخرة كهفها قد أنقذتها من مكرهم ؛ إذ افتتحت الصخرة ليحتويها الكهف في عمقه شهيدة الإيمان والمعجزة .

(٢) القديسة حنة انظر حاشية رقم (١) ص ١٦ .

(٣) ايثيموس : ولد هذا القديس في ميليتين سنة ٣٧٧ وتوفي في فلسطين سنة ٤٧٣ . ويحتفل بيوم عيده في العشرين من يناير . ولقد هاجر هذا القديس من وطنه =

الثامن للقديسة كاترينا^(١)، التاسع لرئيس الطغعات، العاشر أيضاً للقديس باسيليوس^(٢)

في أرمينيا — وهو في الثلاثين من عمره — إلى فلسطين حيث توحد راهبا في كهف ما بين أورشليم وجريكو . ويقال إن الساميين كانوا يحترمون هذا الراهب المتوحد خاصة بعد أن من الله بالشفاء على ابن لأحد السادة المسلمين بعد صلوات ايشيموس من أجل شفائه . كذلك نعلم أن الامبراطورة يودوكيا أرملة الامبراطور ثيودوسيوس الثاني كانت تستشير هذا القديس في مشكلاتها الروحية .

(١) كاترينا : لا يعلم لها تاريخ ، ويحتفل بعيدها في الخامس والعشرين من نوفمبر . والأسطورة التي تدور حول هذه القديسة تمثلها من أصل عريق، على درجة وافرة من الثقافة ، وذات جمال خارق . هذه الفتاة السكندرية وقفت في وجه الامبراطور ماكسنطيوس محتجة ضد العبادات الوثنية . ولما أتوا إليها بتحصين من فلاسفة الوثنية لمحابتها انتصرت عليهم جميعاً بحسن منطقها وإيمانها . وكانت النتيجة أن أمر الامبراطور بإعدام هؤلاء الفلاسفة الخمسين . وقد افتتن ماكسنطيوس بكاترينا ورغب في الزواج منها لأن هي أنكرت مسيحيتها ، ولكنها رفضت مما جعله يتفنن في أساليب تعذيبها . وتقول الأسطورة أنها وهي حبيسة «زنازتها» كانت تقنات على الطعام الذي كانت تحمله إليها حمامة وادعة كل يوم ، كما أن المسيح قد ظهر لها في رؤية . وقد حاولت السلطات الوثنية تعذيبها على عجلة خشبية ذات أسنان حادة ، ولكن العجلة تزقت لرباً فقتلت شظاياها عديداً من المتفرجين ، في حين أن القديسة لم تس بسوء . وكان من نتائج هذه المعجزة أن اعتنق مائتان من جنود الامبراطور الديانة المسيحية ؛ فأمر الامبراطور بقطع رؤوسهم جميعاً على التو . وفي نهاية الأمر قطع رأس كاترينا ، وهي تصلى من أجل البشر . على أن شرايينها فاضت لبناً بدلاً من الدم . وقد حملت الملائكة جسدها الطاهر إلى جبل سيناء . كل هذا حسب روايات الأساطير .

على أننا لا نملك سجلات تعزز في قليل أو كثير شيئاً من هذا كله . وأغلب الظن أن تلك القصة من نسج خيال كاتب يوناني مبكر . هذا والرمز المصاحب لكاترينا هو «عجلتها» الأسطورية .

(٢) باسيليوس : ولد في قيصرية حوالى سنة ٣٣٠ ومات هناك في أول يناير ٣٧٩ ، ويحتفل بعيدة في ١٤ يونيو . ولد باسيليوس لعائلة مسيحية مرموقة الشان : فجدته ماكرينا ، ووالده باسيل الأكبر ووالدته إميليا ، وشقيقته الكبرى ماكرينا ، وشقيقاه الصغيران جريجورى من نيسا وبطرس من سباستيا — كل هؤلاء أعلام قديسون . وقد تلقى القديس تعليمه في مدارس قيصرية والقسطنطينية وأثينا ، حيث صادق القديس جريجورى من نازيا — تروس . وفي سنة ٣٥٧ قام برحلة زار خلالها البيوتات الديرانية في المشرق . ثم استقر بعدها راهباً في آنيزى على نهر إلبريس في بنطس . ويعتبر القديس باسيل هذا الأب الحقيقي للحركة الديرية في المشرق لأنه هو الذى وضم لجماعات الرهبان دساتيرهم وقوانينهم .

الحادى عشر يوحنا الثاولوجس^(١) ، الثانى عشر أيضاً للقديس جاورجيوس ، فهذه

== وفى سنة ٣٧٠ اختبر القديس أسقفاً قمصرية . وهناك وقف ضد الإمبراطور فالترز الأريوسى وأتباعه ؛ مناصرة للعقيدة الأرثوذكسية . ولما استدعاه حاكم الولاية للتحقيق معه صاح فى وجهه « لعلك حتى اليوم لم تصادف أسقفاً حقيقياً يواجهك فى شجاعة » ؛ وكانت تلك الشجاعة سمة مميزة للقديس باسيلوس ، جعلت الإمبراطور ذاته يخشى بأسه وشعبيته .

ولعل أشهر ما قام به القديس أنه وهب ضيعة من ضياع قيصرية للخدمة العامة ، فأسس فيها كنيسة ومستشفى وداراً لضيافة الغرباء وبيوتاً لإيواء المدمين والفقراء . وللقديس عديد من الرسائل والمواعظ الشهيرة ، التى تكشف عن شخصيته ووجهه للفقراء وكرهيته للموسرين . وتميز شخصيته أيضاً بعناد شديد . ومن بين ما خلفه رسالة لأبناء اخوته يحثهم فيها على دراسة الآداب والفلسفة الكلاسيكية (الوثنية) لتمهد لهم الفهم الواعى لقواعد المسيحية . هذا ويعد باسيلوس واحداً من أشهر أربعة لاهوتيين فى الكنيسة البيزنطية .

(١) يوحنا اللاهوتى : (الثاولوجى) وهو واحد من أشهر تلاميذ المسيح الأثني عشر . توفى فى أفيسوس (؟) حوالى سنة ١٠٠ م ، ويحتفل بعيدة فى السابع والعشرين من ديسمبر . كان يوحنا جليلاً ومن جماعة الصيادين ، وقد أشار المسيح عليه وأخيه القديس يعقوب الأكبر ، وهما يصلحان شباك الصيد ، أن يتركها ويتبعاه ففعل ذلك . وكان هذان الأخوان يتميزان بحدة الطبع فأطلق عليهما المسيح كنية « ابنى الرعد » . على أن المسيح قد اختارهما وبطرس الرسول لمشاهدة لحظة « التجلى » على الجبل ولصاحبه وقت الآلام فى الجثمانية . ولقد جرى العرف على أن يوحنا هذا هو « التلميذ المحب لقلب المسيح الذى اتكأ على صدر سيده ليلة العشاء الأخير » . كما وأن المسيح وكل لآليه — وهو على خشبة الصليب — رعاية السيدة مريم . وكان يوحنا أول من زار القبر الذى دُفن فيه المسيح بعد الصلب فى اليوم الثالث فوجده خالياً فاعترف على التوبة بقيامة المسيح . كذلك تعرف يوحنا على السيد المسيح بعد القيامة حين ظهر له عند بحيرة طبرية . وفى « أعمال الرسل » نجد يوحنا ملازماً لبطرس الرسول فى لإتيان المعجزات وشفاء المرضى ، فى تحد صارخ لرؤساء الكهنة اليهود . كذلك كان يوحنا رفيقاً لبطرس فى سجنه ، ومصاحباً له فى رحلتهما التبشيرية إلى السامرة . ويطلق القديس بواس على يوحنا هذا وبطرس ويعقوب « عمدة كنيسة أورشليم » .

هذا وقد نفي يوحنا — كما يعترف هو نفسه فى سفر الرؤيا إلى جزيرة بطمس « من أجل كلمة الله ومن أجل شهادة يسوع المسيح » . ويقال إنه قد أمضى آخر سنين حياته فى أفيسوس ولأنه توفى هناك . ويقول القديس جيروم أنه عندما بلغ يوحنا سن الشيخوخة وهنت قوته عن القيام بالتبشير كان يكتبنى بقوله للشعب « أحبوا بعضكم بعضاً — هذه هى وصاية السيد الرب ، فلئن اتبعتموها ففيها كل الكفاية » .

أما القصة التى تدور حول زيارة قام بها يوحنا إلى روما وحول إلقاءه فى الزيت المغلى ونجاته ==

الديورة الموجودة إلى اليوم في أورشليم ، وهى بيد الأرتودكسيين . لكن في زمان الروم كانت الديورة والكنائس ثلاثمائة خمسة وستين ، الذى أخذوا الأمم منها أكثرها . وشرقي القبر المقدس ، داخل أورشليم أربع غلوات ، هناك قدس القديسين والهيكل الذى فيه علم المسيح ، الذى فيه دبح زخريا أبو يوحنا السابق . وهناك سمعان ، قابل الإلهة ، اقتبل المسيح . وهناك الآن يوجد حجر معلق بقدره الله . وهذا الهيكل فهو عظيم ، مدور البنا بقبب مرصعات ، ومزخرفات داخله ، وخارجه بالفيسفسه ، وصخر داره كبيرة رحبة . وفي الناحية الشرقية منه هناك الأربعة أبواب التى بهم دخل المسيح بالسعف والأغصان ، وهم معلقات إلى اليوم . وبقربه دار بيلاطس والأبروطوريون ، ونازل منهم البركة الغنيمة ذات الخمسة أروقة . ومن القبر المقدس كنجو ثلاث غلوات قرب هنسك بيت يواكيم ، وحنة^(١) أجداد المسيح وبقربه بير الحماه الذى ألقوا اليهود أرميا النبي فيه ، وهو من القبر المقدس كنجو أربع غلوات . فهذه الديورة كلها موجودة داخل أورشليم المقدسة .

وخارج أورشليم كنجو أربعة غلوات ، قبلى القبر المقدس ، هناك بيت داوود ، وهو عظيماً كبيراً ، الذى فيه رتل المزامير ، وعلى مازعموا معلمين كنيستنا بأن هناك مزعم الاله أن يعمل للمداينة (٢) في مجية الثانى . وقرب منه وادى الليكا الذى منه مزعم أن يجرى نهر النار . ونازل منه بقليل دير القديس يعقوب أخو الرب ، وهو بيد

== من الموت ، فهى أسطورية تماماً . ولذا فإن الكنيسة الرومانية في سنة ١٩٦٠ قد أبطلت تماماً الاحتفال بذكرى هذه القصة الخرافية في السادس من مايو من كل عام . وقد جرى التقليد على نسب الإنجيل الرابع والرسائل الثلاث وسفر الرؤيا إلى يوحنا هذا .

ولكن بعض العلماء يشكون في هذه النسبة . هذا والرمز المصاحب للقديس يوحنا هو النسب .

(١) هل هى القديسة حنة والدة العذراء مريم ؟ إذا كان الأمر كذلك فنحن نعلم أنه يحتفل بعيدها في السادس والعشرين من يوليو . وهناك كتابات مبكرة مشكوك في صحتها تنسب عادة للقديس يعقوب الحواري ، وفيها نبوءة عن مولد السيدة العذراء ، شبيهة بما ورد في العهد القديم بقصة النبي صموئيل الذى من الله به على والدته حنة بعد أن كان الله قد أغلق رحمها فترة طويلة من الزمن .
(٢) أى الدينونة .

الأرمن . ومن هناك بيت يوحنا الثاولوغى ، وقريب منه الهيكل الذى بناه سليمان ، وهو صهيون المقدسة ، وقريب منه بيت والدة الإله ، هناك صار العشاء السرى والغسل وحلول الروح القدس على الرسل القديسين ، وفيه كان رقود والدة الإله ، والتثام الرسل بالسحاب ، وجزؤها إلى الجسمانية ، وهناك قبور الأنبياء داوود وسليمان وسمعان الشيخ والقديس استفانوس ، ومساجد أخرى كثيرة . ومن صهيون المقدسة كنعو ميل من القبر المقدس مكان وطاه هناك بير القديس يعقوب وعين سلوان ، وحقل الفخار لمدفنة الغرباء ، بدمهم من القبر المقدس كنعو ميل . ومن هناك بأربعة غلوات قبر يعقوب أخو الرب الذى أرموه من فوق جناح الهيكل . وشرقي القبر المقدس خارج أورشليم هناك الجسمانية : هيكل مسقوف وباب لطيف ، ولها ثمانية عواميد ، وبتنزل فى درج ثمانية وأربعين درجة نجد الهيكل أسفل . وفي وسط الهيكل قبة صخرية ، وفي داخلها قبر والدة الإله المقدس ، من رخام أبيض لطيف ، ومعلق هناك عشرة قناديل ، وهناك باب مغلق . ومن هناك ، على مازعموا مزعم أن يخرج نهر النار . وبقرب تلك المغارة التى كان بها المسيح مخفى مع الرسل ، وفي ليلة الآلام أتى يهودا بالجمع ومسكوا المسيح ، ومضوا به إلى رؤساء الكهنة . وهناك قطع بطرس أذن ملخص^(١) . ومن هناك بقليل المسكان الذى صلا فيه المسيح ، وبجانبه المسكان الذى جلس فيه ونظر إلى أورشليم وقال : يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها ، هوذا أترك لكم بيتكم خراباً ، ولا يترك حجر على حجر . ومن الجسمانية إلى القبر المقدس مقدار ميل واحد ، هناك جبل الزيتون حيث صعد المسيح إلى السموات . وفيه هيكل عظيم ، وداخله قبة على خمسة عشر عاموداً رخام ، وداخل القبة أقدام المسيح مطبوعات فى الصخر لما صعد ، ومعلق أربعة قناديل غير مطفأة ، ومن هناك بتنزل ثلاثين درجة هناك قبر القديسة بلاجيا^(٢) بقرب الحائط بمقدار نصف قدم إنسان . ومن أراد أن يعبر هناك يحتاج

(١) ملخص : كان ملخص واحداً من أتباع رئيس كهنة اليهود ، الذى جاء مع الحائنين يهوذا للقبض على المسيح . وعندها ثار بطرس الرسول وضرب التابع بسيفه فنقطع أذنه ولكن المسيح وبغ تلهينه بطرس على هذه القلة ، وأمسك بالأذن المصلومة ووضعها مكانها معافاة تماماً .

(٢) بلاجيا : هى بلاجيا النابتة ، ولا نعرف لها تاريخاً محدداً ، وإنما يحتفل بعيدها فى =

أن يعترف بخطاياهم وإلا يمك مسكاً غير منظور ولا يقدر أن يخرج . ومن هناك القلاية التي مسك فيها ، مشمول بها ثلاث قناديل غير مظفاة . ومن هناك نحو غلوتين قانا الجليل الذي عمل المسيح أول أعجوبه بعمرس قانا وحول الماء خمراً . وكان في الأول فيها كنيسة إلا أنها انهدمت ويقولون أن ملشيساداق^(١) في جبل الزيتون جلس . ومن أورشليم كنحو ميل شرقى جبل الزيتون هناك بيت عنيا وقبر العازر انصديق مرخم ، وقبره الحجر الذي جلس عليه المسيح في الطريق . وداخل القبر مغارة فيها قبر مرتا ومريم أخوان^(٢) العازر . ومن بيت عنيا كنحو ميلين من القبر المقدس هناك طريق ريمحا والأردن . وفي الطريق عين الرسل ، وبقربها دير القديس افثيموس في رأس الجبل . ومن أورشليم نحو خمسة عشر ميل في طاه هناك دير السيدة ، وهناك عين يشوع بن نون رئيس جنود قوات الرب . وفي ريمحا المياه المالحة التي حولها الإشع إلى حلاوة . وهناك الجبل الذي صام فيه المسيح أربعين يوماً . ومن أورشليم مقدار عشرين ميل من هناك بتزل لدير القديس يوحنا السابق ونهر الأردن الذي فيه اعتمد المسيح وعلى حافة الأردن عين يوحنا الروح القدس ، وجاز الأردن المغارة التي اختفى فيها إلياس ، وهناك اختطف بالمركة النارية . ومن الأردن إلى أورشليم أربعين ميل ، وجاز الأردن جبل على فيه صلى موسى لما أزمع أن يموت ، وهناك قبره . وفي البرية الجوانية هناك قبر القديسة مريم التي نسكت سبعة وأربعين سنة ، بعده من أورشليم عشرين يوماً ، ومن ناحية

== الثامن من أكتوبر وهذه القديسة كنية هي «مارجاريثو» ومعناها ذات الآلىء الفاتحة الجمال .

وقد عاشت بلاجيا حياة خلية ماجنة وهي في شبابها المبكر في مدينة انطاكية ، الأمر الذي لفت نظر نونس أسقف الرها ، فقال عنها في إحدى المناسبات : « إن في هذه الفتاة الماجنة درساً لنا نحن الأساقفة . فلو أننا أولينا اهتماماً بالرعية وبأرواحنا مثل هذا الاهتمام الذي توليه الفتاة بلاجيا لجمالها وطريقة رقصها لوصلنا حد الكمال » . ولقد تأثرت الفتاة بلاجيا بمواعظ هذا الأسقف ورغبت في التوبة الصادقة ، فخلعت عن ذاتها رداء الدنيا وقبلت المعمودية . وبعدها ذهبت إلى أورشليم وتكررت في زى الرجال واختارت لها كهفاً قصصاً على جبل الزيتون عاشت فيه حياة الزهد والتوبة ، متخذة اسم بلاجيوس .

(١) ملكيصادق .

(٢) أختي .

الأردن اليمين هناك صدموم والبحيرة الميتة وموضع لوط . ويقولون إن في ذلك المكان تحته الجحيم ، بعده من أورشليم ثلاثين ميل . وهناك تجد دير القديس جراسيموس الذى كان يخدمه الأسد . وفوق صوب ناحية أورشليم فى جبل هناك سيق مارسابا^(١) ، وقبره والدير واقف إلى اليوم مثل وادى . وأسفل منه الينبوع الذى أخرجه القديس بصلاته ، والكنيسة بقبب ومصورة باللازورد . وهناك قلاية القديس يوحنا الدمشقي^(٢) . وفى زمان القديس مارسابا كان فى الدير أربعة

(١) مار سابا ؛ ولد القديس ساباس بجوار قيصرية على مقربة من كبادوكيا فى سنة ٤٣٩ وتوفى فى مار سابا سنة ٥٣٢ . ويحتفل بعيدة فى الخامس من ديسمبر . كان مارسابا رئيساً ديراناً ذا نفوذ كبير فى تطوير الحياة الرهبانية فى المشرق . وقد تتلمذ على يد القديس إيوثيموس العظيم . وبعد قضاء بضع سنوات راهباً متوحداً فى بقاع مختلفة من فلسطين ، قام فى سنة ٤٧٨ بتأسيس بيت ديرانى فى البقعة ما بين أورشليم والبحر الميت . وقد نمت هذه الجماعة وازدهرت ، وفى عام ٤٩٣ صار القديس مشرفاً على سائر البيوتات الجماعية الديرانية فى فلسطين . ولقد شارك ساباس فى نشاط الكنيسة فأوفد مرتين من قبل بطريرك أورشليم فى مهمات كنسية إلى القسطنطينية . وقد قام كيرلس من سكيثوبولس بكتابة سيرة مارسابا . هذا ولا يزال دير مارسابا قائماً حتى الآن ، عامراً بالرهبان ، فهو بهذا من أقدم أديرة العالم .

(٢) يوحنا الدمشقي : لاهوتى مرموق وكاتب ترانيم كنسية ذائعة الصيت فى الشرق والغرب . ولد القديس فى دمشق سنة ٦٧٥ وتوفى على مقربة من أورشليم سنة ٧٤٩ . ويحتفل بيوم عيدة فى السابع والعشرين من مارس .

ويعتبر يوحنا هذا آخر الآباء الأجداد فى تاريخ الكنيسة الشرقية .

وقد شغل والده منصباً هاماً فى بلاط الخليفة عبد الملك بن مروان فى دمشق . ويقال إن والده استخدم راهباً يونانياً من كلابريا ، كان قد وقع أسيراً فى يد المسلمين ، لتعليم ابنه يوحنا . وقد خلف يوحنا ، أو منصور ، والده فى بلاط الخليفة الأموى لبضع سنين .

وعندما أقدم الإمبراطور ليو الثالث الألسورى على تحطيم الأيقونات فى الإمبراطورية البيزنطية ، تصدى له يوحنا الدمشقي ، تحت حماية الخليفة ، فهاجمه هجوماً عنيفاً . وقد اختار يوحنا الحياة الديرية وأصبح من أبناء مارسابا ، حيث عاش حتى وفاته . ولعل أشهر ما كتب القديس : « يذبوع المعرفة » التى تموى مقالة هامة عن « الإتيان الأرثوذكسى » . وقد كان لكتاباته أثر بالغ فى الغرب فى العصور الوسطى . كذلك له ثلاث مواعظ رائعة عن صعود جسد السيدة العذراء بعد موتها . ولا زالت ترانيمه تنشد فى قداسات الكنيسة اليونانية حتى اليوم .

عشر ألف راهب ، وهو من أورشليم مقدار اثني عشر ميل . وبتطلع لتوجه إلى أورشليم تجدد دير القديس ناودسيوس^(١) رئيس الديارة ، بعده من أورشليم ثمانية أميال . وفوقه دير القديس مار الياس^(٢) في طريق بيت لحم ، والهيكل بقبب . هناك أتى إليه الملاك وقال له : قم كل واشرب . لأن الطريق مسافتها منك بعيدة . وفي هذه الوادي جاب يوسف والدة الإله إلى الحفرة ليخلى سيلها ، وأتى الملاك وقال له : يا يوسف ابن داوود لا تخم أن تأخذ مريم امرأتك . ومن هناك بتمضى إلى بيت لحم ، وهو هيكل طويل فتجد في الطريق قبر راحيل ، بقبته صخرة ، وقرب من هناك بيت لحم وهو هيكل طويل مستوف بأخشاب ، ومن فوق برصاص ، ومصور بالفسيفسة ، وفيه واحد وأربعين عمود ، والأرضية جيمها رخام . وفي ناحية اليمين حوض المعمودية رخام أحمر ، وعن شمال الهيكل بتزل بأربعة عشر درجة تجدد مغارة التي ولد فيها المسيح ، المولد نحو المشرق ، والمذود نحو المغرب ، ومشعول فيهما عشرة فتاديل غير مظفاة ، والمغارة جيمها ملبسة برخام ،

(١) ناودسيوس رئيس الديارة : ولد في كبادوكيا حوالى سنة ٤٢٣ ، وتوفى على مقربة من بيت لحم سنة ٥٢٩ . ويحتفل بيوم عيدته في الحادى عشر من يناير . ترك هذا القديس عائلته وهو فى الثلاثين من عمره واستقر به الحال فى فلسطين ، حيث أسس جماعة رهبانية على مقربة من بيت لحم . وسرعان ما ازدهر شأن تلك الجماعة التى كانت تضم رهبانا من أجناس ولغات مختلفة . ولقد اشتهرت تلك المؤسسة الديرانية بنحمتها الجليلة لصالح المرضى والسنين وضعاف العقول . وقد كان ناودسيوس صديقاً مقرباً للقديس مارسابا ، الذى عينه رئيساً للديارة فى فلسطين . وكان القديس معارضاً شديداً للمنافزة (أصحاب الطبيعة الواحدة) ، الأمر الذى دفع الإمبراطور أناستاسيوس إلى خلعته من منصبه فى رئاسة الديارة ولكنه سرعان ما أعيد إلى وظيفته . وقد توفى القديس عن مائة وخمسين عاماً .

(٢) مار الياس : هذا الشهيد ورفاقه الأربعة الآخرون ولدوا جميعا فى مصر واستشهدوا سنة ٣٠٩ فى قيسارية . ويحتفل بيوم عيدهم فى السادس عشر من فبراير . وقد سجل المؤرخ الكنسى المرموق يوسبيوس أسقف قيسارية سيرة هؤلاء الشهداء المصريين : فهم خمسة من أبناء مصر دفعتهم المحبة ودوافع الشفقة إلى اصطحاب نفر من بنى جلدتهم إلى مجازر كيليكيا ، بعد أن حكمت السلطات الإمبراطورية عليهم بالأشغال الشاقة فيها ، وكان ذلك بسبب تسكهم ببادئ العقيدة المسيحية . وأثناء عودة هؤلاء الخمسة من كيليكيا استوقفتهم سلطات قيسارية عند بواباتها وسألتهم عن أسمائهم فذكروها كالآتى : الياس ، جريى ، اشعيا ، صموئيل ودنيال . ولما سألتهم السلطات عن موطنهم الأصلى ، ردوا قائلين «أورشليم» ، يقصدون «أورشليم السماوية لا الأرضية» بطبيعة الحال . وفى الحال أمر حاكم قيسارية بتعذيبهم ليحصل منهم على معلومات حقيقية ، ولكنهم آثروا الصمت ونالوا لأكليل الشهادة .

والأبواب هي من نحاس أصفر . ومن ناحية الهيكل اليبني يتطلع في خمسة عشر درجة ويتدخل إلى هيكل القديس جاورجيوس ، وخلف الهيكل نحو غلوتين مكان الرعاة . وفي الأول كان هناك كنيسة عظيمة ، ولسكنها خربت ، ومن بيت لحم إلى أورشليم ستة أميال . ومن جهة المغرب هناك مكان إبراهيم عند البلوطة السوداء ، حيث كان يضيف الغرباء ، ونظر الثالوث المقدس ، وداخل بيته قبره ، وهي من أورشليم ثلاثين ميل . ومن هناك ثلاثين ميل قلاية القديس خاريطن^(١) ، وبحيرة طبرية حيث كانوا الرسل يصطادون ، بعدها عن قلاية القديس ثلاثة أيام حيث قال لهم المسيح : تعالوا وراى لأجعلكم تصيدون الناس . وفي تلك الناحية الجبل الذى مضت إليه والدة الإله وسلمت على الشيع . وفوق منه الصخرة التى انشقت واقتبلت السابق مع أمه اليسع . وهناك كنيسة موضع الذى ولد السابق . وأنت جأى إلى أورشليم قبلها بميلين ، هناك كنيسة المصلبة وهو هيكل عظيم بقبة ومبنى دايره كمثل قلعه بباب حديد ، ومعلق أربعة قناديل . وفي مجيئك إلى أورشليم كنحو خمسة غلوات تجد دير القديس بايلا ، وهناك فوق الحجر الذى جلست عليه والدة الإله . فداير مدينة أورشليم خمسة أميال .

فهذه البنايات العجيبة كلها التى بينها باختصار عملتها القديسة العجوبة هيلانة ، لما كانت حاضرة فى أورشليم ، وخلفت وكلاء لمهارة البقية ، وأعطتهم ، المحبة لله ، ذهباً كثيراً ، وعملت ذلك تذكراً لها ولابنها قسطنطين الملك المشابه الرسل^(٢) .

(١) خاريطن : كل ما نعلمه عن هذا القديس أنه كان متوحداً فى الكهف فى بيرة تكوه جنوب شرقى بيت لحم ، وأن هذه البقعة بالذات قد كانت المكان المحبب لقلب القديس سرياقوس الذى توفى سنة ٥٥٧ .

(٢) اعتبر كتاب الكنيسة الباكرون قسطنطين العظيم مساوياً لحوارى المسيح أو تلاميذه ؛ فهو على هذا الرسول الثالث عشر .

obeikandi.com

صور من الحياة الاجتماعية في المجتمع العباسي في العراق

الدكتورة مليحة رحمة الله

الأستاذة المساعدة في كلية البنات — جامعة بغداد

هناك صور من الحياة كثيرة في المجتمع العراقي في عصر بني العباس ، منها ما استمدت من واقع البيئة ، ومنها ما كانت ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام ، ومنها ما اقتبست من الأمم الأجنبية وخاصة الفرس . وهذه الصور يمكن أن يطلق عليها اسم العادات والتقاليد التي سيطرت على عقول الناس ولا تزال مسيطرة حتى اليوم . هذا وتختلف هذه العادات والتقاليد باختلاف المناسبات ، فثمة عادات تظهر في مناسبات الأفراح والأعياد ، وهناك عادات أخرى تبرز في حالات الأتراح والأحزان ، ومنها ما لها علاقة بالحياة الاجتماعية بصفة عامة .

ففي مناسبات الأفراح كما هو الحال في الأعياد الدينية كعيد الأضحى جرت العادة أن يستقبل الحجاج عند عودتهم من مكة المكرمة ، وتقدم التهنأى لهم بسلامة الوصول وأداء فريضة الحجاج^(١) وقد يشترك الخليفة نفسه في هذا الاستقبال . حتى في سنة واحد وتسمين وثلاثائة أن استقبل القادر بأفه أهل خراسان القادمين من الحجج الذاهبين إلى المشرق^(٢) . وفي عيدى الفطر والأضحى تقام الولائم خاصة في قصور الأغنياء ، وعزفت أسمطة الخلفاء والوزراء بسمتها وبكثرة كميات وأنواع الطعام التي تقدم عليها .

ومن صور الحياة أيضاً الاحتفال بمختمة القرآن ، ويكون مقصوراً على الأحداث ، وتنظم بذلك المواكب ويظهرون فيها بأحسن الأزياء ويجوبون طرق المدينة ينشدون الأناشيد وقد لبسوا أخضر الثياب^(٣) . ثم تقام المآدب وتوزع الخلع على المقرين

(١) ابن الجوزى : تليس من ١٤٠ — ٣٨٢ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ج ٧ ص ٢١٥ .

(٣) الشيبى : ابن القوطى ج ٢ ص ١٠٦ .

والمؤدبين ، وتقام مآدب يدعى إليها بعض العلماء وتوقد فيها النيران^(١) . ويحضر أيضاً إلى هذه الاحتفالات الرجال والنساء على السواء ، من الأقارب وأصحاب المحلة^(٢) . وهذه العادات كانت شائعة عند العباسيين ، واهتم بها الخليفة المستنصر بصورة خاصة في القرن الخامس الهجرى^(٣) . وكذلك عادات الاحتفال بختان الأولاد واشتهر في التاريخ الاحتفال الذى أقيم في ختان المعز بن التوكل وكذلك ختان أولاد الخليفة المقتر إذ أنفقت أموال كثيرة في هذه المناسبة .

وهناك احتفالات تقام في الأعياد الفارسية مثل النوروز والمهرجان^(٤) ، ويشترك فيها الناس جميعاً في العراق إذ تبادل الهدايا بينهم ، كما تغير الأدوات والفرش وكثير من الملابس^(٥) .

ومن الطريف أن الخلفاء العباسيين أنفسهم كانوا يتوقعون أن ترسل إليهم الهدايا من حاشيتهم وموظفيهم في جميع أنحاء المملكة عندهم وأكثر من ذلك يظالبون بها فالتوكل جلس في يوم النوروز لاستقبال المهنئين واستلام الهدايا فدخل عليه الطبيب بختيشوع ابن جبرائيل وكان من القريين له فقال له التوكل ما ترى في هذا اليوم ؟ فقال مثل جرباشات الشحاذين إذ لبس قدر وأقبل على مامى . ثم أخرج من كفه درج أبوس مضرب بالذهب وفتحته عن حرير أخضر انكشف عن ملعة كبيرة من جوهر لمع منها شهاب ، ووضعها بين يديه فرأى للتوكل ما لا عهد له بمثله^(٦) . وقد تبلغ قيمة هدايا النوروز وللهرجان للخلفاء ولعائلاتهم مبلغاً كبيراً قد يتجاوز خمسة وثلاثين ألف دينار^(٧) . وهذه العادة اتبعت لدى جميع أفراد المجتمع وكما نعلم أبطاها الإسلام في بادىء الأمر حتى جاء معاوية وقبل الهدايا ، وفي العصر العباسى أرجعت الهدايا مع الاحتفال بالعيد رسمياً .

(١) ابن الجوزى : تليس ص ٣٨٢ .

(٢) ابن الجوزى : تليس ص ١١٠ .

(٣) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٧١ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشا ج ٢ ص ٤٢ .

(٥) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢٢٢ .

(٦) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ص ٢٠٧ .

(٧) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

هذا ، وقد يتهدون بالفضائل الشمرية أيضاً ، خاصة إلى من هم أعلى منهم منزلة .
وهكذا فعل إسحق الصابي وهو في سجنه ، إذ كتب إلى عضد الدولة قسيده أرسلها
إليه مع درهم خرداني وجزء من كتاب ، فكان مطلعها (١) :

تصبح بعز واعتلاء حدود وأبشر بخير واطراد سعد
وقال :

أتك الهدايا فيه بين موفر على قدر المهدي وبين زهيد
وقال :

فكان احتفالي في الهدية درهما يطير من الأنفاس يوم ركود
وجزءاً لطيفاً ذرعه ذرع محبدي وتقيده بالشكل مثل قيودي
وكتب إليه في يوم نيروز فقال (٢) :

تهن بهذا اليوم واحظ بخيره وكن أبدأ بالعود منه على وعد
أرى الناس يهدون الهدايا تقيسة إليك ولم يترك لي الدهر ما أهدى
سوى سكر يحلو لك العيش مثله وآس أخى عمر كعمرك تمتد
وبينهما من ضرب قومك درهم وأبيات شعر من ثنائى ومن حمدي
فإن كنت ترضى مابه ابسطت يدي وتقبله مني فهذا الذى عندي

أما حفلات التشريف—والتي اقتصرت على الخلفاء بصورة خاصة— فالعادة جرت
أن يخضع الخليفة على الأمير أو الوزير والقيس أو الوالى لإحدى المقاطعات أو غيرهم
خلعاً والقباباً. وقد عرفت عادة الألقاب أولاً منذ عهد الرسول (ص) إذ لقب (ص)
جماعة من أصحابه بالألقاب تتفق مع ما قاموا به من الأعمال وما يتصفون بها فللقب
أبي بكر (بالصديق) وعثمان (بذى النورين) وعلى (بأبي تراب) وجعفر (بالطيار)
وحزرة (أسد الله) وهكذا (٣). ولم تستعمل الألقاب في العصر الأموي حتى جاء العصر
العباسي ، فسمى كل خليفة باسم واعتبرت ألقاباً دينية فأبو العباس (بالسفايح) وهارون
بالرشيد وهكذا ، الباقر كالمهدي والمتوكل والمستعين والمأمون (٤) وغيرهم. حتى

(١) الثعالبى : نسيمة الدهر ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٢) الثعالبى : نسيمة الدهر ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٣) الصابى ، رسوم ص ١٢٨ .

(٤) القلقشندي ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٦ .

الوزراء والقواد أعطيت لهم ألقاب ؛ فلأما من أعطى الفضل بن سهل لقب «ذى الرئاستين» ولقب المعتمد صاعد بن مخلد بذى الوزارتين ، ولقب المقدر بن الحسن ابن الفرات بولى الدولة وهكذا بقية وزراء وأمراء الدولة (١) . هذا وقد وصلت الألقاب إلى ثلاثة وأربعة ألقاب فى العصر البويهى (٢) وبصورة عامة كانت الألقاب فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تعطى لأهل التقوى والدين والسكنها تغيرت فى العصر العباسى فأصبحت تعطى لرجال السياسة وفيها تعظيم وتفخيم (٣) .

ولم يكتف العصر العباسى بمنح الألقاب ، بل أعطيت معها خلع بلغت إلى السبعة مع الطوق والسوار (٤) وأعطيت للأمير بحكم لواء (٥) وجعل أمير الأمراء ، وكذلك لابن رائق (٦) وغيرهم من الأمراء والقواد . وكانت العادة أيضاً أن يحطب على المنابر للخلفاء ويذكر اسمهم فقط ، ولكن فى القرن الرابع شارك الأمراء الخلفاء فى ذكر اسمهم مع اسم الخليفة (٧) . وكانت العادة أن تضرب الطبول والدادب للصلوات بحضرة الخليفة (٨) فقط ثم أخذت تضرب للأمراء أيضاً . قيل أول من ضربت له الدادب هو عضد الدولة (٩) ثم استمرت طيلة فترة حكم بنى بويه (١٠) .

أما عادات الأحزان فهى كثيرة ولا تزال متبعة حتى اليوم فى المجتمع وتبدأ عند تشييع المتوفى ؛ إذ يخرج الأهل والأصدقاء والمعارف ويسرون خلف الجنازة (١١) ، فالمرأة تخرج وتبكي وتشرشرها وتلطم وتشد الأشعار ، وهكذا فعات عند مقتل

-
- (١) الصابى ، رسوم ص ١٣١ .
 - (٢) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٦٤ .
 - (٣) القلقشندى ، صبح الأعشا ج ٥ ص ٤٩١ .
 - (٤) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٦٤ .
 - (٥) الصولى ، الأوراق ص ١٩١ .
 - (٦) الصولى ، الأوراق ص ٢٠٩ .
 - (٧) الدمشقى ، البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٩٢ .
 - (٨) هلال بن الصابى رسوم دار الخلافة ص ١٣١ .
 - (٩) الدمشقى ، البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٩٩ .
 - (١٠) ابن الجوزى ، المنتظم ج ٧ ص ٣٤٠ .
 - (١١) ابن الجوزى ذم الهوى ٤٧٨ .

الخليفة المسترشد^(١) وقد تخرج نائمة خاصة خلف الجنازة^(٢) وربما يخرج رجال من أصحاب الذكر يسرون خلف الجنازة وهم يقومون بالتهاليل وترتيل الألحان^(٣).

أما بالنسبة للنصارى فيشيمون موتاهم بالنواح وضرب الطبول والنفخ بالزور^(٤) ويسير الرهبان في المقدمة ثم حاملو الصلبان والشموع ثم بقية الناس من أهل وأصدقاء ومعارف .

وفي حالة الدفن اعتاد البعض من أهل بغداد أن يدفن موتاه خارج أسوارها والبعض الآخر يدفن موتاه في النجف الأشرف ، وهؤلاء أصحاب اللذهب الشيعي وتقل الأموات إلى هذا المقر حتى من الأماكن البعيدة ، ولا زالت هذه العادة متبعة ليومنا هذا . وذكر أن عضد الدولة الأمير البويهى نقل جثمانه إلى النجف الأشرف في القرن الرابع الهجرى^(٥) وكذلك استمرت عادة قراءة القرآن على القبور لدى جميع طبقات المجتمع . حكى أن امرأة فقيرة دفعت إلى رجل رغيماً وطلبت منه أن يقرأ عند قبر ابنها ، فقرأ « يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا ... » قالت له هكذا يقرأ عند القبور؟ فقال لها ، أيش أردت أن أقرأ « متكئين على فرش بطائنها من استبرق » في ذلك بدرهم^(٦) .

وعلى ذكر طريقة دفن الموتى نشير إلى عادة دفن النقود أيضاً تحت الأرض خوفاً من ضياعها : فالأمر الذي يحكم كان يحفظ أمواله في الصحراء^(٧) . وهكذا كان يفعل التجار . حكى أن تاجراً قدم من خرسان متأهباً للذهاب للحج ، وبق من ماله ألف دينار لا يحتاج إليها ، فقال إن حملتها خاطرت بها وإن أودعتها خفت مغبة المودع ، فمضى إلى الصحراء ودفنها تحت الشجرة ، وعندما عاد لم يجدها فوصل الخبر إلى عضد الدولة فاستطاع بمهارته وعمق تفكيره أن يهتدى إلى السارق^(٨) .

- (١) ابن الجوزى ، المنتظم ج ١٠ ص ٤٦ .
- (٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج ٣ ص ٣١ .
- (٣) ابن القوطي ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة ص ٢٣٧ .
- (٤) ابن الجوزى ، المنتظم ج ٧ ص ٢٦٢ .
- (٥) ابن الجوزى ، المنتظم ج ٨ ص ٣١٧ .
- (٦) ابن الجوزى ، الطراف ص ٩٨ .
- (٧) الدمشقي ، البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٠١ .
- (٨) ابن الجوزى ، الأذكياء ص ٥٢ .

أما اللآتم التي تقام على الأموات ، فكانت على نوعين ، منها الخاصة بالرجال والأخرى بالنساء ، يقرأ فيهما القرآن . ويختار لمجالس النساء قراء عميان أو قارئات^(١) يلبس فيها الثياب ذات اللون الأسود وهي تمثل شعار الحزن .

وعلى ذكر ثياب العزاء فإن المؤرخين وغيرهم من الكتاب لم يمدونا بـ معلومات وافية عن لونها ووصفها . على أننا نستطيع أن نقول أنه كان يغلب عليها اللون الأسود وذلك على ضوء ما ذكره بعض المؤرخين عن وفاة الخليفة المستنصر المباسي سنة ٦٤٠ هـ وارتداء رجال الدولة الثياب السوداء في يوم وفاة هذا الخليفة^(٢) .

ومن بين التعاليم الدينية التي تمثل صور من المجتمع العراقي زيارة قبور الأئمة والشهداء من أهل البيت ، وكذلك قبر الإمام أبي حنيفة ومشهد الصحابي سلمان الفارسي . وقد زار بعض الخلفاء قبور أهل البيت ، وكانت تنفق أموال كثيرة على قبور الشخصيات التي تتمتع بصفة دينية . فالخليفة المستنصر عند زيارته لقبر الإمام موسى بن جعفر أعطى ثلاثة آلاف دينار لنقيب الطالبين لصرفها على المعنيين في مشهد الأئمة^(٣) .

وفي حالة وفاة شخصية كبيرة كالخليفة أو الأمير فالحزن يعم بغداد كلها إذ تغلق الأسواق وتعلق الأقمشة السوداء على جدرانها وتقام اللآتم في كل مكان . وحدث مثل ذلك في القرن الخامس الهجري عند وفاة الخليفة القائم بأمر الله فأظهرت علائم الحزن لمدة ثلاثة أيام^(٤) على المستوى الرسمي والشعبي ، وكذلك عند وفاة الأمير البويهى عضد الدولة .

هذا وقد يظهر أصحاب المذهب الشيعي الحزن الشديد في ذكرى استشهاد الإمام الحسين يوم عاشوراء^(٥) ولا تزال عادة إظهار الحزن مستمرة في المراق حتى الوقت الحاضر .

(١) النبطي ، ص ٦٨ .

(٢) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٨ ص ٢٩٥ .

(٣) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ١٠٤ .

(٤) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٨ ص ١٦٥ .

(٥) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٧ ص ١٥ .

وهالك صور أخرى تمثل نواحي الحياة في المجتمع ، نذكر منها شيئاً فيما يخص الطعام واللباس وبعض الأمور الأخرى ؛ فمن العادات المتبعة عند الطعام ولا تزال — خاصة عند طبقة المتدينين — هي غسل الأيدي قبل الطعام وبعده ويكون في وعاء واحد^(١) يسمى بالطشت^(٢) ويبدأ رب البيت بالغسيل^(٣) ويذكر متر أن العادة جرت أن يبدأ الغسل من جهة اليسار حتى ينتهي بصاحب البيت^(٤) ، بينما يغسل يديه بعد الضيوف عند الانتهاء من الطعام^(٥) ويستعمل عادة الاثنان في الغسيل^(٦) ويذكر كشاجم أن عامة الناس تعودوا على إجلال رؤسائهم وخلفائهم لعدم غسل أيديهم بحضورهم وأجازوا ذلك مع نظرائهم ليكون بذلك (٧) أليق يحكى أن القائد الافشين أكل عند الخليفة المعتصم يوماً وبعد الانتهاء من الطعام غسل يديه بحيث يراه المعتصم فأزعجه بهذا التصرف^(٨) . هذا وبعد الغسيل تنظف الأسنان . حكي أن المأمون كان يصرف ساعتين كل يوم يستمع فيهما للشعراء أثناء تنظيف أسنانه ، كما يستعمل السواك لتنظيف الأسنان^(٩) .

هذا ، وقد اهتم الكتاب بأداب الطعام ، فكتب الغزالي خمسة قواعد لأداب الطعام^(١٠) وكذلك كشاجم^(١١) كتب في هذا الموضوع إضافة إلى عدد كبير من الكتاب والمؤرخين من اهتم بذلك ، فالخطيب البغدادي ذكر أنه بعد الانتهاء من الطعام على صاحب الدعوة أن يبخر المدعوين^(١٢) وعلى المدعوين أنه يشكروا صاحب

-
- (١) كشاجم ، أدب القديم ص ٢٧ .
 - (٢) الهمذاني ، مقامات ص ١٣٥ .
 - (٣) الغزالي ، إحياء ج ٢ ص ١٦ .
 - (٤) كشاجم ، أدب القديم ص ٢٧ .
 - (٥) الغزالي ، إحياء ج ٢ ص ٧ — الأزدي حكاية بن القاسم ص ٤١ .
 - (٦) الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٣٢ .
 - (٧) كشاجم ، أدب القديم ص ٢٧ .
 - (٨) دم متر ، الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٣٢ .
 - (٩) الأزدي ، حكاية ص ٤١ — الغزالي ، مطالع البدور ج ٢/٦٨ .
 - (١٠) الغزالي ، إحياء العلوم ج ٢ ص ١٦ — ١٨ .
 - (١١) كشاجم ، أدب القديم ص ٢٧ .
 - (١٢) الخطيب ، التطفيل ص ٨٦ .

الدعوة عند مغادرتهم للبيت^(١). هذا وهناك عادات كثيرة جداً في الأصول وقواعد الطعام لا مجال لذكرها هنا خاصة بموائد الخلفاء ورجالات الدولة .
أما عادات اللباس فهي كثيرة أيضاً فشكل طبقة زى خاص بها . فالخلفاء اتخذوا السواد^(٢) ولا يمكن تغييره لأنه أصبح شعاراً لدولتهم وكذلك الوزراء وغيرهم من الداخلين لدار الخلافة عليهم أن يتخذوا الألفية السوداء لباساً لهم^(٣) وحتى محضرون مجالسهم لبست الأثواب المصبغة الزاهية الاحمرار والاصفرار والاخضرار يصقلونها حتى تلمع^(٤). وفي المواكب تتخذ أثواب خاصة بها أيضاً^(٥) وجرت العادة أن يلبس القضاة والفقهاء البظنة والطيلسان الأسود والدرعة السوداء والقلائس المستديرة حتى أبدلت بعد ذلك بالعمائم السود المصقولة^(٦) .

ومن التقاليد والعادات العائلية في ذلك الوقت والتي استمرت حتى يومنا هذا لدى بعض الناس هي أن لا يخرج المرأة كاشفة الوجه أو حاسرة الرأس في الطرقات — فعليها أن تغطي وجهها^(٧) وأن تتخذ التحفظ والاحترام والحشمة والابتعاد عن الرجال القرباء عند حضورها مجالس الوعظ^(٨) وفي الذهاب للعمام أو الأسواق^(٩) . وكان للزواج عادات وتقاليد سيطرت على المجتمع ومع أنها قد تسبب مشاكل ومصاعب للأسرة ، لكن ليس من السهل تغييرها أو إزالتها من عقول الناس . فمن هذه التقاليد التي أصبحت عادات بعض الزمن ، « الخطبة » التي اتبعت فيها طريقتان : إحداهما تم بالتمام بين الرجل والمرأة مباشرة^(١٠) وهذا نادر الحدوث ،

-
- (١) الغزالي ، إحياء ج ٢ ص ٥ .
 - (٢) الصابي ، الوزراء ص ٢٦١ .
 - (٣) الصابي ، رسوم ص ٩١ .
 - (٤) الموشى ، الوشاء ص ١٨٣ التمدن ج ٥ ص ٨٣ .
 - (٥) جلالة الصابي ، رسوم ص ٩٠ .
 - (٦) الاصبهاني ، ج ٥ ص ٣٩٠ .
 - (٧) انظر مقالة عن الملابس لصاحبة المقال نشرت في المجلد الثالث عشر سنة ١٩٦٧ من المجلة التاريخية المصرية) .
 - (٧) الغزالي ، إحياء العلوم ج ٢ ص ٢٣٠ .
 - (٨) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٧٦ .
 - (٩) الماوردي الأحكام السلطانية ص ١٢٣ أو ٢٢٢ .
 - (١٠) ابن الجوزي ، ذم الهوى ص ٣٦٦ — ٣٦٨ .

حتى خلال القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة حيث انتشرت الجوارى وانحطت منزلة المرأة .

أما الطريقة الثانية وهي المتبعة لدى جميع طبقات المجتمع فهي جعل الخطبة عن طريق الوساطة ، وذلك بأن يهدى إلى سيدة من الأقارب أو من صديقات الأسرة بالذهاب إلى أهل الفتاة لطلب يدها^(١) . وكان من مستلزمات الزواج الصداق ، وقد جرت العادة بأن يكون نقداً ، وكان مقداره يختلف حسب طبقات المجتمع ؛ فالأثرياء يقدمون صداقاً كبيراً ، يتناسب مع ما يملكون من ثروة^(٢) . وكانت طبقة العامة تحرص أيضاً على تقديم الصداق بقدر ما تستطيع^(٣) . وهذا دليل على أن هذه العادة كانت مسيطرة على عوائل المجتمع .

ومن العادات التي كانت تراعى في الزفاف أن تزف المرأة إلى بيت الرجل^(٤) حيث يقام احتفال ووليمة ينفق عليها الزوج حسب إمكانياته^(٥) . وقد يشترك مع المدعويين أشخاص يحضرون بدون دعوة ، يعرفون بالطفيليين ، والظاهر أنها عادة متبعة في المجتمع ، ويسمى الواحد منهم بطفيلي العروس ، ولا يجسر أحد من المدعويين أن يطلب منه الخروج . ويحكي أن طفيلياً أوصى ابنه إذا دخلت عرساً فلا تلتفت لتلفت المريب وتخبر المجالس ، فإن كان العرس كثير الزحام فلا تنظر في عيون أهل المرأة ولا في عيون أهل الرجل ليظن هؤلاء أنك من أهل هؤلاء . فإن كان البواب غليظاً صلفاً فابدأ به ومره وإنه من غير أن تعف به وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال^(٦) .

وجرت العادة عند الأمراء والطبقات الثرية أن ينثر على الحضور النقود الذهبية والفضية والحلويات في حفلات الزفاف وقد عرف ذلك بالشار . وتجلت هذه المظاهر

(١) ابن الجوزي ، الأذكياء ص ٤٢٨ .

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٤٩ .

(٣) ابن الجوزي ، الأذكياء ص ٧٧ .

(٤) الثعالبي ، ثمار القلوب ص ٣١٩ -- ٣٢١ .

(٥) ابن الجوزي ، الأذكياء ص ١٨٢ .

(٦) ابن الجوزي ، الأذكياء ص ١٨٣ .

في حفلى زواج زبيدة بهارون الرشيد وبوران بلأمون^(١) . وظلت عادة النشار متبعة طيلة العهد العباسي^(٢) فشوهدت في حفلى ختان للعز بن التوكل^(٣) ، وأولاد المقتدر ، حتى قيل إن النفقات بلغت في يوم ختان أولاد هذا الخليفة ستمائة ألف دينار ، حيث وزعت دراهم وكسوة^(٤) . وقد اتبع سائر الناس عادة النشار وصاروا فضلا عن ذلك يقدمون الهدايا إلى العروس في صباح يوم زواجها . وتسمى بالصبحية . قيل سئل أحد بعد أن زفت له امرأة قبيحة بماذا تصبحها قال بالطلاق^(٥) .

وكان أغلب هذه العادات متبعاً لدى كثيرين من أفراد المجتمع العراقي ، ولم يختلف عنهم بصورة واضحة سوى طائفة الصابئة ، ففي الزواج كانوا كالمسلمين يتبعون نظام الخطبة عن طريق أحد الوسطاء من الأقارب أو المعارف ، ثم يقوم علماء الدين بعقد الفرائض ، ويقدم الصداق حسب ثروة الزوج . وتنقل للعروس إلى مكان خاص قرب النهر تجرى فيه مراسم الزواج بإشراف علماء الدين وعلى رأسهم الفقيه . وقد جرت العادة عند الصابئة أن يحتفل بتعميد العروسين عند زواجهما فيرتديان ملابس خاصة ويجلسان على حافة النهر ، ثم تعطس رأسيهما ثلاث مرات ، ويرش الماء على جسديهما ويتناول كل منهما ثلاث جرعات من الماء ثم يرتديان ملابس أخرى ويعودان إلى دراهم ، وهناك تجرى طقوس دينية يتولاها أحد علماء الصابئة ، يتناول بعدها العروسان نوعاً خاصاً من الطعام يتكون من الجوز والتمر والزيت والكشمش والملح والبصل ، وبعد الانتهاء من هذه المراسم يصبح الزواج مقبولاً^(٦) .

- (١) الشاشتي ، الديارات ص ١٠٠ و١٠١ .
- (٢) محمد رضا الشبيبي ، مؤرخ العراق ابن الفوطى ج ٢ ص ٩٧ .
- (٣) الشاشتي ، الديارات ص ١٠٠ .
- (٤) ابن الجوزي ، المنتظم ج ٧ ص ١٢٧ .
- (٥) ابن الجوزي ، أخبار الظراف ص ٨٩ .
- (٦) عبد الرازق الحسني ، الصابئون ص ١٠٢ — ١٠٤ .

حركة التوفيق ١٤١٤ - ١٤٤٩ ودلالاتها السياسية

Conciliar Movement 1414-1449

تكاد تكون الحركة التاريخية التي قامت داخل الكنيسة الكاثوليكية في مطلع القرن الخامس عشر ، والتي يطلق عليها المؤرخون اسم حركة التوفيق ، مثالا نموذجياً للعلاقة الوثيقة بين علمى التاريخ والسياسة ؛ فهي من ناحية حدث تاريخى هام لا يستطيع إغفاله الباحث التاريخى فى تلك المرحلة الحرجة من تاريخ البشرية ، فترة نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث . ومن ناحية أخرى لا يستطيع الباحث فى علم السياسة أن يغفل أهميتها عندما يتعرض لجوهر هذا العلم - وهو السلطة - سلطة الحاكم وسلطة أجهزة الحكم - وحدودها ومصدرها ، أو عندما يتناول مفهوم الدستورية ومؤسساتها وتطورها . إذ أننا عندما نذكر أن الكنيسة الكاثوليكية كانت طوال عشرة قرون تقريباً تستوعب المجتمع المسيحى الأوروبى كله وأن سلطة البابوات - الدينية والسياسية - كانت سلطة عليا لا تملوها ولا تساويها سلطة أخرى فى أوروبا ، ندرك على الفور أن تلك الحركة التى استهدفت الحد من هذه السلطة ومناقشة مصدرها لا بد أن تكون ذات أثر بالغ فى تطور الفكر السياسى .

وقد قامت عدة حركات تستهدف تغيير الطابع المطلق لسلطة البابا ، وفشلت جميعها . ولكنها رغم فشلها تعتبر من علامات الطريق الرئيسية فى تطور مفهوم السلطة . وكانت حركة التوفيق أولى هذه الحركات ، وأهمها وأبعدها أثراً . ونحن نعلم أن الأفكار السياسية التى سيطرت على الجنس البشرى ، وانقسم حولها الجنس البشرى ، ابتداء من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ، مثل فكرة السيادة ونظرية الحق الإلهى المقدس للملوك ، ومفهوم حقوق الإنسان ومبدأ الدستور الذى يقيد الحاكم لصالح الشعب ، كلها وجدت بذورها فى العصور الوسطى كما يقول الأستاذ ميتلاند^(١) .

(١) فى مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب العالم الألمانى أوتوجيرك ، النظريات السياسية فى

ولا ريب في أن التغييرات الضخمة التي حدثت في أوروبا في أواخر العصور الوسطى مست الفكرة السياسية بأوضح صورة في التنظيم الككنسى ، وأن الجهود التي بذلت في حركة التوفيق للحد من سلطة البابا بواسطة مجلس يمثل المجتمع المسيحي أثارته ، كما يقول عالم سياسة آخر (١) « مبادئ عامة استخدمت فيما بعد في تفويض سلطة الملوك ، واستبدالها بسلطة البرلمانات النيابية » وفي أن مرسوم مجلس كونستانس (الذي تبدو فيه الأهمية القصوى لحركة التوفيق) يمثل ذروة جهود العصور الوسطى في التخلص من التزوج الرومانى للسلطة التي يمارسها فرد واحد (Caeserism) وخلق هيئة نيابية تقوم على أساس شعبي ، ويمد استباقاً واضحاً للصراع الذي قام فيما بعد داخل الدولة الإقليمية بين الحكم المطلق والحكم الدستورى .

وليس هناك ما يدعو إلى التعجب في هذا الترابط الوثيق بين سلطة البابا بوصفه رأس الكنيسة المسيحية ، وهى أولاً وقبل كل شىء مؤسسة دينية ، ومفهوم السلطة السياسية الحديث . إذ لم يكن لفظ « الكنيسة » في العصور الوسطى يعنى في الواقع مجرد الجهاز الككنسى وما يتصل به من أمور روحية ودينية ، بل كانت الكنيسة شيئاً أكبر وأشمل من ذلك بكثير . فمنذ أن بدأت الإمبراطورية الرومانية في الانهيار بدأت المسيحية تقوى ، وفي نهاية القرن الرابع الميلادى أصبحت الدين الرسمى الوحيد للإمبراطورية . وعندما تحطمت الإمبراطورية الغربية نهائياً في القرن التالى لم يعد هناك سوى الكنيسة ، برئاسة أسقف روما ، من يقوم بدور السلطتين معاً - الدينية والديوية - مستقلاً عن كل سلطة سياسية (٢) . وصارت الكنيسة مع الوقت مصدر السلطة الوحيد في أوروبا كلها ، كما أصبحت المسيحية هى الرابطة الوحيدة التي تجمع بين تلك الشذرات الصغيرة التي انقسمت إليها القارة الأوروبية

(١) لورانس وانلاس « Gettell's History of Political Thought » (ط ٢ -

لندن ١٩٥٩) ص ١٣٩ .

(٢) فيما يتصل بوضع أسقف روما قبل نشوء مؤسسة البابوية ، انظر مثلاً ، كرستوفر

دوسن ، « تكوين أوروبا » - ترجمة د. مصطفى زيادة ود. سعيد عبد الفتاح عاشور

(١٩٦٧) ص ٢٣٥ .

بعد انهيار الإمبراطورية . وقد تأكد هذا الوضع للكنيسة ورأسها عندما توج البابا أحد كبار رؤساء قبائل الفرنك ملكاً على فرنسا في القرن الثامن . وتأكد مرة أخرى عندما سعى شرمان للحصول على اعتراف الكنيسة به خليفة للإمبراطور الروماني . واعتبر ذلك في الحالتين منعاً للسلطة الزمنية من الكنيسة إلى الحاكم الزمى بمقتضى نظرية « السيفين » - سيف السلطة الدينية وسيف السلطة الزمنية - اللذين يتلقاهما خليفة بطرس الرسول من الله ليستبقى أحدهما ، وهو سيف السلطة الدينية ، ويمنح الآخر للحاكم الزمى . وقد ظلت الكنيسة طوال قرون القوضى التي أعقبت انهيار روما هي المستودع الوحيد للقيم القديمة فيما يتصل بالسلطة العامة والنظام في المجتمع الأوروبي ، وحافظت بذلك على هذه القيم في مواجهة عوامل التحلل الإقطاعي .

وكان الجهاز الكنسي نفسه في أول الأمر منظماً على أساس محلي وديموقراطي إلى حد كبير، بحكم نشأتها كمنهج ينتشر سراً في مواجهة ضروب الاضطهاد والتحرير من جانب الدولة - الإمبراطورية . وعندما صارت المسيحية الدين الرسمي للدولة أصبح الإمبراطور، بحكم مفهوم الحكم السيادة المطلق Imperium السائد في القانون الروماني ، هو السلطة العليا في الشؤون الدينية ، وتبع تنظيم الكنيسة التنظيم المركزي للدولة الرومانية (١) . وفي أوائل القرن الخامس الميلادي وضع سانت أوجستين في مؤلفه « مدينة الله » City of God مفهومه عن المجتمع المسيحي ، الذي ظل يعتبر المفهوم السائد في الفكر الأوروبي طوال العصور الوسطى ؛ فالمجتمع المسيحي واحد مصيره أن يضم العالم كله : هو « مملكة المسيح » Christendom التي « يحكمها الله نفسه ، شعب واحد متصل الأطراف يتجسد دينياً ودينيوياً في الكنيسة الكلية الشمول Universal Church . ومن ثم فإنه - لكي يحقق أهدافه - يتطلب حكومة واحدة وقانوناً واحداً » (٢) .

(١) وانلاس ، المرجع السابق ص ٥ - ٩٩٤ .

(٢) أوتوجيركه « Political Theories of the Middle Ages » الترجمة الإنجليزية - فردريك ميتلاند (نيويورك ١٩٥٨) ص ١٠ .

هذا هو مفهوم « الكنييسة - الدولة » التي حلت محل « المدينة - الدولة » و « الدولة - الإمبراطورية » في الفكر السياسي في العصور الوسطى : مفهوم « جمهورية المسيح » Respublica Christiana ، التي ظلت تجسد وحدة أوروبا المسيحية دينياً وسياسياً حتى نهاية العصور الوسطى تقريباً .

ولم تكن الكنييسة - بهذا المعنى - دولة بين عدة دول ، بل كانت « الدولة » الوحيدة ، وكانت التنظيمات المدنية - التي اتخذت فيما بعد صورة « الملك » - هي مجرد أجهزة الشرطة في الكنييسة كما يقول ما تنجلي^(١) اقد ألفت على عاتق الكنييسة في العصور الوسطى مهمة ضخمة ، هي المحافظة على كيان المجتمع الأوروبي من الإنهيار الكامل والتحول إلى مجموعات متقاتلة من القبائل البربرية التي انحدرت على أوروبا من أواصل آسيا^(٢) . وبحكم ضخامة هذه المهمة ، وكذلك بالجهود المتمدة من جانب زعماء الدين المسيحي ، صارت الكنييسة أكبر المؤسسات السياسية في العصور الوسطى . ولم يكن هدف الكنييسة في هذه الحقبة المظلمة من تاريخ أوروبا أن تكون مجرد شعبة دينية ، بل أن تؤلف حضارة كاملة على أنقاض الحضارة الرومانية المنهارة وفي مواجهة الجحافل الزاحفة من القبائل البربرية الوثنية . إنها كانت ، كما يقول الأستاذ توني في مؤلفه المعتمدة « تضم الحياة بكل جوانبها ، وكانت سلطتها نهائية »^(٣) .

ومن الناحية التطبيقية كانت الكنييسة الكاثوليكية أول مؤسسة شاملة في أوروبا

(١) جاريت ما تنجلي في مقدمة كتاب ج . ن . فيجيس Political Thought « from Gerson to Grotius » (لندن ١٩٦٠) .

ويقول جيرك ، المرجع السابق ص ١٣ « لم يكن النظام الزمني في نهاية المطاف سوى إحدى مؤسسات الكنييسة » .

(٢) يقول دوسن ، المرجع السابق ص ١١٤ ، إنه « عندما حل الإنهيار بالحكومة الإمبراطورية في الغرب غدا الأسقف الزعيم الطبيعي للسكان الرومان ؛ فهو الذي رتب وسائل الدفاع عن مدينته ، وهو الذي فاوض . زعماء البرابرة » .

(٣) « الدين ونشأة الرأسمالية » (Religion and the Rise of Capitalism) (لندن ١٩٥٨) ص ٢٨ .

يكون لها جهاز منظم متدرج السلطات ومحكم ذات اختصاص على درجات وقوانين مكتوبة (١)، وكان لها أول أسلوب منظم في فرض الضرائب وتحصيلها . وكانت أول مؤسسة دولية ، بعد انهيار الإمبراطورية ، لها وزارة خارجية وسلك دبلوماسي . وكان لها أول جيش يحارب ، لا تحت شعار شخصي لأحد لوردات الإقطاع ، ولكن تحت شعار هيئة دائمة لا شخصية . وبالاختصار كانت للكنيسة في العصور الوسطى كل السمات تقريباً التي تميزت بها فيما بعد الدول عندما نشأت . بل أكثر من ذلك ، لقد صار الانتساب « لملكة المسيح » نوعاً من الجنسية : نوعاً من المواطنة شرطها الأساسي هو التعميد ويقابله من الناحية الأخرى قرار الحرمان excommunication الذي يفقد المرء صفة المواطن . فالمجتمع الأوروبي كان ، نظرياً وعملياً ، هو Respublica Christiana . وكان من الطبيعي أن تكون الكنيسة أول منظمة تواجهها المشاكل الدستورية الكبرى التي واجهتها الدولة الإقليمية بعد ذلك ؛ إذ أن هذا المجتمع الواحد كان يقوم فيه ، بحكم تكوينه وظروف قيامه ، مؤسستان لكل منهما وظيفتها ، وكلاهما تستمد سلطتها من الإرادة الإلهية ؛ إحداها لتحقيق المصير الدنيوي للإنسان ، والأخرى لإعداده للمصير الآخروي : الكنيسة والإمبراطورية الرومانية المقدسة . وكان البابوات يدعون دائماً أنهم على قمة هذا المجتمع ، ومن ثم فإن المؤسستين تدينان لهما بالتبعية . ولم يواجه هذا الادعاء تحدياً في صدر العصور الوسطى ، ولكن الأباطرة بدأوا منذ القرن العاشر يعارضون دعوى البابوات ، ويعرف دارسو التاريخ الوسيط الأهمية الكبرى التي يحتها النزاع بين البابوات والأباطرة .

ولكن يجدر بنا أن نشير هنا إلى حقيقة أساسية لا يمكن فهم الأوضاع في أوروبا بدونها ، هي أن الخلاف بين هاتين المؤسستين كان بمثابة اختلاف حول حدود الاختصاص والأسبقية . بينهما باعتبارهما جهازين في منظمة كبرى واحدة — كما نرى اليوم في أجهزة الحكومة المختلفة — ولا يشبه في شيء الخلاف بين دولتين

(١) لم تشمل الإمبراطورية الرومانية في أي وقت من الأوقات سوى الجزء الجنوبي والغربي من أوروبا ، إذ كانت جيوشها تقف في زحفها دائماً عند حدود الأنهار الكبرى في وسط القارة .

أو منظمتين كل منهما مستقلة عن الأخرى وتمتع « بسيادة » في مواجهتها .
فالمجتمع الأوروبي كان يقوم على مفهوم « الوحدة » المسيحية الأساسية الذى يتضمنه
مفهوم « مدينة الله » ولا يسمح بقيام مؤسستين مستقلتين داخله .

ولما كان مصدر السلطة هو الله فإن رجال الدين ، باعتبارهم مفسرى إرادته ،
كانت لهم اليد العليا فى المجتمع المسيحى واستطاعوا أن يفرضوا عليه مفهوم سيادة
Sovereignty الجهاز الكنسى الذى يمثل السلطة الروحية . وما ساعدهم على
ذلك أن فقهاء القانون الرومانى الذين كانوا يكرسون جهودهم الفقهية لخدمة
الإمبراطورية لم يجدوا أمامهم بعد انهيارها سوى الكنيسة يستنفدون طاقتهم فى
خدمتها ، فعملوا مع رجال الدين على بلورة هذا المفهوم السىادى الجديد . وفى بداية
الحقبة الثانية من العصور الوسطى صار البابوات ، وبخاصة منذ عهد جريجورى
السابع ١٠٧٣ م ، يعتبرون أنفسهم الرأس السىادى للمجتمع المسيحى ويتمتعون
بسلطة سيادية شاملة مطلقاً Plenitudo Potestatis . فيصدر البابا أنسونت
الثالث مثلاً مرسوماً بابوياً فى مطلع القرن الثالث عشر يحدد به صفة السلطة التى
يارسها البابا - سلطة فريدة أعلى من أية سلطة أخرى وتختلف عنها فى النوع .
ويقول ساباين أن هذه السلطة مما لا يمكن تصوره إلا على أساس مفهوم السيادة
Sovereignty الذى تبلور فيما يتصل بالدولة بعد ذلك بمدة قرون على يد جان بودان (١).
فهى لا تشبه فى شئ نوع السلطة التعاقدية المعروفة فى العصور الوسطى بين الامبراطور
وأمراء الإقطاع مثلاً ، أو بين الأمراء وأتباعهم من الفرسان ، أو حتى بينهم
وبين رعاياهم .

ونستطيع أن نتصور المفهوم الذى تنطوى عليه هذه السلطة من وصف أحد
مفكرى العصور الوسطى ممن شاركوا فى الصراع الفكرى الذى ثار بسبب النزاع
بين البابا بونيفاس الثامن وفيليب الرابع ملك فرنسا فى أواخر القرن الثالث عشر .
يقول انجيدبوس كولونا عن السلطة البابوية إنها « قوة مستقلة تحرك ذاتها » (ونحن
نجد هذا الوصف ذاته عند كثيرين من الكتّاب المتأخرين فيما يتصل بمفهوم السيادة

(١) ج . ساباين « History of Political Theory » (نيويورك ١٩٦١)

الحديث بعد ذلك بقرون) ، ثم يقارن هذه السلطة بسلطة الإمبراطور في القانون الروماني الذي كان يعتبر إرادة الحاكم هي مصدر حججته القانون وشريعته (١) . ولم يكن مثل هذا التصور قد عزى إلى أى من الحكام والأمرء الزميين الفيودالين في ذلك الوقت ، واصلنا سرعان ما سرناه مكملاً للسلطة الملكية المطلقة التي خلقتها الظروف الأوروبية مع « الدولة الإقليمية » ذات السيادة المطلقة .

ولعل ما يثير التساؤل هنا هو كيف تسرب إلى فكر العصور الوسطى هذا المفهوم — بعد أن اندثر قروناً بأهيار الإمبراطورية — وقد اكتسب سمات جديدة تماماً يعتبرها بعض علماء السياسة اليوم المعيار المميز للدولة الحديثة . ولماذا ارتبط بالكنيسة ورأسها ، دون أية مؤسسة أخرى من المؤسسات الأوروبية في العصور الوسطى كالإمبراطورية الرومانية المقدسة .

لقد كان التاريخ الأول للكنيسة يتضمن وجود ما يسمى « بالمجلس العام » General Council الذى يتألف من كبار رجال الدين وعدد من « المؤمنين » من غير رجال الدين Laity . ورغم أن طابع هذه المجالس كان استشارياً بالنسبة للسلطة البابوية إلا أنها كانت تضفي على التنظيم الكنسى نوعاً من الطابع الديموقراطى باعتبار أنها تمثل صوت المجتمع المسيحى كله فى ما يسوده من آراء . وقد ورثت الكنيسة هذا الطابع عن مفهوم الحكم عند الإغريق فى الغالب — إذ أن الدين المسيحى فى ذاته لا يتضمن مثل هذا المفهوم ، كما أن نشأته الأولى كانت فى الشرق حيث كان يسود مفهوم واحد للحكم هو الحكم الملكى المطلق المستند إلى السلطة الدينية . إلا أن العصور الوسطى ورثت مفهومين آخرين عن الحكم : أحدهما كان التركيز الأساسى فيه على القانون والنظام والوحدة ، وهو المفهوم الرومانى الذى أدى إلى بلورة فكرة السلطة المركزية Imperium والحكم الفردى المطلق المتجسد فى القيصر Caeserism . والآخر كان يتمثل فى مؤسسات الحكم لدى القبائل الجرمانية الغازية ودور مجلس رؤساء العشائر Diet فيه . إلا أن هذا المفهوم الأخير لم يكن له أثر مباشر فى الفكر السياسى الأوروبى ككل إلا فى

(١) أوردها سابابن ، المرجع السابق ص ٢٧٩ .

وأواخر العصور الوسطى ، وهو أثر ستراف بوضوح عندما نتحدث عن الموقعين Conciliarists ، وبالتالي لم يكن له أثر في الأفكار التي قام عليها التنظيم الكنسي في المراحل الأولى التي اتسم فيه هذا التنظيم بطابع ديمقراطي من نوع ما .

وعندما نتبع التطور التاريخي للمؤسسات الأوروبية في العصور الوسطى نجد الاتجاهات المركزية قد بدأت تظهر بصورة واضحة في الكنيسة ابتداء من القرن التاسع الميلادي : وتتجسد هذه الاتجاهات بوضوح في حركتين قامتتا داخل الكنيسة حوالي ذلك الوقت : الأولى هي الحركة التي لعبت فيها تلك الوثائق التاريخية ، التي عرفت باسم «مراسيم إيزيدور المزورة» Pseudo Isidorian Decretals ، دوراً كبيراً في منتصف القرن التاسع . والثانية حركة أدبرة كلوني الإصلاحية في أوائل القرن العاشر . وكان هدف الحركتين على السواء هو تحرير الأساقفة في مختلف أنحاء أوروبا من سلطة كبار الأساقفة Archbishops وربطهم بالتبعية المباشرة للبابا في روما . إذ أن كبار الأساقفة كانوا قد تحولوا ، بامتلاكهم مساحات واسعة من الأرض ، إلى أمراء إقطاعيين يرتبطون بالحكام الزمانيين بروابط ومصالح عديدة ويدينون لهم بالولاء الفيودالي بحيث صارت الساطة الفعلية على شئون الكنيسة في كل إقليم للحاكم الزماني . وعمت الشكوى داخل الأجهزة الكنسية ضد هذه الأوضاع وبخاصة بعد أن تحول كثير من كبار الأساقفة إلى مجرد أدوات في يد الملوك ، بل وقد بدأ هؤلاء الملوك في ادعاء حق تعيين كبار الأساقفة في أقاليمهم .

وكان من نتائج هاتين الحركتين تركيز الشؤون الكنسية في يد البابوات وتأکید المسئولية المباشرة من جانب الأساقفة أمامهم وإبعاد تأثير الحكام الزمانيين على أجهزة الكنيسة .

وفي أوائل القرن الحادي عشر تركزت كل السلطة — في المجتمع المسيحي ، نظرياً وعملياً — في يد البابا الذي صار يعتبر فوق كل الملوك والحكام في أوروبا . فترى الصراع بين الإمبراطور هنري الرابع والبابا جريجوري السابع ينتهي بخضوع الإمبراطور تماماً للبابا في كانوسا (١٠٧٧) — ومنذ ذلك الوقت صار مصطلح «الذهاب إلى كانوسا» تمييزاً سائداً للدلالة على الخضوع الكامل للكنيسة . وزي

الإمبراطور فردريك بارباوسا يحنى رأسه أمام البابا اسكندر الثالث . ولم يمد في أوروبا المسيحية في ذلك الوقت سوى مصدر واحد للسلطة السيادية الشاملة — في الدين كما في السياسة — هو البابا . فبأمر من البابا أنوسنت الثالث اتخذ ملك فرنسا زوجة ، وقبل ملك إنجلترا أسقفاً لا يريده ، وتنازل أحد المطالبين بعرش هنغاريا لخصمه ، واعترف ملوك إنجلترا وأراجون والبرتغال بالبابا أميراً أعلى Feudal Overlord في ممالكهم^(١) .

وسارت الأمور في «مملكة المسيح» على هذا النسق أكثر من قرنين ، ولكننا لا نلبث أن نرى الصورة تختلف في أوائل القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ؛ فترى ملكي إنجلترا وفرنسا يفرض كل منهما إرادته على البابا داخل مملكته . بل إننا لا نلبث أن نرى البابا أسيراً لملك فرنسا في أفينيون (الأسر البابلوني) .

ولم يحدث ذلك دون مقدمات ، ونستطيع أن نبين من التاريخ الأوروبي العام في هذه الفترة سببين أساسيين لهذا التحول : أحدهما ظهور نظام اقتصادي جديد لا تلأمه الأوضاع القائمة ، والآخر ثورة فكرية عامة تناوأت جميع المفاهيم والقيم والمعايير التقليدية بالنقد والفحص والتأمل .

ففي القرون الأربعة الأخيرة من العصور الوسطى نما النشاط الاقتصادي — التجاري أساساً — نمواً كبيراً وظهرت أساليب جديدة في التعامل كان روادها كبار التجار الذين ازدهرت على أيديهم المدن الإيطالية ومدن بحر البلطيق . ومن ناحية أخرى كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة — جهاز الشرطة الرئيسي في أوروبا المسيحية — قد أصابها الوهن ، وصارت أوروبا مسرحاً لمئات الصدمات المسلحة بين أمراء الإقطاع وفرسانه . وهي الصدمات التي عرفت باسم حرب البارونات . بالإضافة إلى ذلك الصراع الكبير الذي استمر قرابة مائة عام بين إنجلترا وفرنسا ، مما أدى إلى انتشار الفوضى وانتهيار مفهوم السلطة إلى حد كبير ؛ وقد أحاق الخراب والدمار بمساحات شاسعة في أوروبا وانتشر الوباء الذي عرف باسم « الموت الأسود » وأطاح بنسبة ضخمة من السكان .

(١) ول ديورانت « The Reformation » VI « The Story of Civilization »

وقد الناس ثقتهم في المعايير التقليدية التي عاشوا في ظلها آمنين قروناً ، وضعف إيمانهم بالكنيسة كوسيلة للخلاص ، وبدأت أوروبا تشهد نوعاً من الثورات لم تعرفه طوال خضوعها لسيطرة الكنيسة ظهر فيها نوع من التمرد الطبقي يذكرنا بثورات الرقيق في روما ، مثل تمرد الرعاة Pastouraux في فرنسا عام ١٣٥١ وتمرّد الفقراء Poor Men في إنجلترا في ١٣٨٠ وتمرّد الفلاحين من أنباع هاس في ألمانيا حوالي ذلك الوقت . ونحن لا نستطيع أن نعزو هذه التمردات إلى أفكار واكليف في إنجلترا وهاس في بوهيميا فقط كما يذهب بعض الدارسين .

لقد بدا واضحاً أن الاستقرار الفيودالي قد تحطم وأن النظام الاجتماعي في أوروبا أخذ ينهار من أساسه .

إذ رغم أن الكنيسة لجأت إلى إثارة الحروب الصليبية لإفراغ الطاقات القتالية لدى البارونات وملوك الإقطاع ، فإنها لم تعد قادرة على توفير السلام والنظام اللذين كان يتطلبهما نمو النشاط الاقتصادي ، وأساليب التعامل الجديد ، ولم يعد في الإمكان كما يقول جتل ، استمرار الأفكار الفيودالية الخاصة بالدولة المسيحية العالمية بأى حال (١) .

إن فردريك إنجلز ، في « حرب الفلاحين في ألمانيا » ، يرى أن حركة واكليف في إنجلترا وهاس في بوهيميا تمثلان في الواقع تمرّد تجار المدن الجديدة ضد الكنيسة وما تمثله من أوضاع فيودالية (١) . وقد لا يكون تجار المدن هم وحدهم حقيقة قواد هذه التمردات والدافع المباشر لها ، رغم أهم دعموها واشتركوا في توجيهها في كثير من الحالات ، ولكن الأمر الذي يفرضه علينا أى تفسير سليم لوقائع التاريخ وتطوره هو أن النظام الذي يمثله هؤلاء التجار ما كان يمكن أن يتفق ويزدهر - أو حتى أن يعيش - في ظل الأوضاع القديمة .

كان التطور الاقتصادي أحد عاملين رئيسيين فيما طرأ على النظام الاجتماعي

(١) المرجع السابق ص ١٣ .

(٢) فردريك إنجلز ، « حرب الفلاحين في ألمانيا » Peasant War in Germany

(موسكو ١٩٥٦) ص ٥٦ ، ٥٧ .

الأوروبي من تحول ، وهناك عامل آخر - هو إلى حد ما نتيجة لنفس الأسباب التي أدت للتطور الاقتصادي من ناحية وللتطور الاجتماعى ذاته من ناحية أخرى- ولسكنه يمثل من جانبه سبباً يكاد يكون مستقلاً ويعتبر وجوده حاسماً فى هذا التحول، وأعنى به الثورة الفكرية التي شهدتها أوروبا فى أعقاب الاتصال بالعرب والانفتاح على العالم الخارجى .

إن الجامعات التي قامت فى أوروبا فى القرن الثانى عشر ، وكانت أهم المراكز الفكرية لهذه الثورة ، ما كانت لتقوم فى ظل اقتصاد الندرة والاكتفاء الذاتى المحلى الذى ساد أوروبا فى قرون الإقطاع الأولى ؛ إذ ما كان هذا النوع من الاقتصاد ليستطيع توفير الموارد المالية - على الأقل خارج الكنيسة - للاتفاق على مجموعات كبيرة من العلماء والباحثين المتفرغين الذين يكرسون وقتهم للدرس . كما أن الانفتاح على العالم الخارجى ما كان ليم لولا العلاقات التجارية عبر البحار التي كان دافعها الأساسى هو الربح .

وقد شهد القرن الثانى عشر تدفق سيل ضخم من المعارف الجديدة على أوروبا مصدره الأول هم العرب الذين اتصل بهم الأوروبيون فى أسبانيا وصقلية (١) . وكان من بين ما نقله الأوروبيون عن العرب ترجمتهم لأرسطو وتعليقاتهم عليه ودراساتهم له . وأحدث الفكر الجديد فى أوربا دورياً وصار أرسطو هو « الفيلسوف » الذى لا يكاد يضاويه أى مصدر آخر فى مختلف فروع المعرفة لدى المتقنين الأوروبيين ، بل إن الكنيسة نفسها حاولت أن توفق بين معطياتها وأفكار « الفيلسوف » بعد أن فشلت فى الحد من انتشارها .

إن هذه الظاهرة وحدها تدل على مدى الصدع الذى أصاب سلطة الكنيسة ، بل وسيطرة الدين نفسه ، على أوروبا المسيحية ، وتعتبر إيداناً بتعرض « مملكة المسيح » للرياح العاصفة المقبلة .

إذ أدت المعارف الجديدة إلى انتشار نوع جديد من الدراسات لا يعتمد على

(١) يعتبر بعض المؤرخين أن الاتصال الحضارى بالمسلمين فى هذه الفترة كان له تأثير حاسم فى غرب أوروبا ، وكان من أهم العناصر فى تطور الحضارة الأوروبية كلها فى العصور الوسطى وبخاصة فيما يتصل بدخول « التقاليد العلمية العربية وقيام الحركة الفكرة الجديدة » فى الغرب الأوروبى (انظر مثلاً دوسن ، المرجع السابق ص ٣٧٠) .

الأصول اللاهوتية وحدها كمصدر وعلى الإيمان كعيار أخير للمعرفة . وتمخضت هذه الدراسات عن أفكار جديدة في التنظيم الاجتماعي وعاد إلى الوجود الأوروبي مرة أخرى علم السياسة على يد توماس الأكويني الذي حاول أن يوفق بين العقل والإيمان كمصدرين للمعرفة وظهرت في كتاباته آثار التفكير التاريخي المنظم الذي بدأت نواته عند أرسطو . ولم يعد الكون مجرد خلق ، بل هو أيضاً نحو . وقد جعل الأكويني أساس تفكيره السياسي كتابات « الفيلسوف » وأقام السلطة السياسية على المفهوم الأرسطاليسي الخاص بالطبيعة الاجتماعية للإنسان .

ولمفهوم الأكويني عن السلطة أهمية خاصة في هذا التطور ، إذ بدونه لم يكن في حيز الإيمان قيام أية حركة لتغيير الطابع الخاص للسلطة البابوية دون أن تتعرض هذه الحركة للانهاك بالإلحاد .

يقول الأستاذ إرنست باركر عن تصور الأكويني للسلطة إنه فرق بين أفكار ثلاث تتعلق بها -- فكرة مبدأ السلطة principium ، وفكرة صورتها modus ، وفكرة ممارستها exercitium . وعلى أساس هذه التفرقة ذهب الأكويني إلى أن مبدأ السلطة ، وهو جوهرها ونسبها من عند الله ، وأن صورتها ، أو شكلها الدستوري ، يحددها الناس . أما ممارستها ، أو حيازتها فعلا ، فهي لمن يمنحها له الناس . وينطوي ذلك ضمناً على أن الناس إذ يمنحون السلطة يستطيعون استرجاعها أو التحكم فيها في حدود كون جوهرها مصدره إلهي (١) .

وبرغم أن هناك جانباً آخر لفكر الأكويني يترتب على تفسيره للسلطة نفسها إلى سلطة مستمدة من الناس وأخرى مستمدة من سلطة أعلى مثل سلطة البابا المستمدة من الإرادة الإلهية مباشرة ، وأن من حق الناس في الحالة الأولى أن يخضعوا للحاكم الطاغية ، وليس أمامهم في الحالة الثانية سوى الالتجاء إلى تلك السلطة العليا ، فإن هذه الاتجاهات في تصور السلطة وتفسيرها من جانب أحد كبار رجال الكنيسة كانت كافية لأن يبدأ بعض المفكرين ، وبخاصة في الجامعات الجديدة ، في تناول

(١) إرنست باركر : مقدمة العقد الاجتماعي «Social Contract» (لندن ١٩٥٨) .

مثل هذه المسائل دون إخضاعها للمعايير القديعة القائمة على التسليم المطلق واستبعاد المنطق العقلي بشأنها اعتماداً على الحجج اللاهوتية وحدها ، ولذلك نجد رجال الفكر الجديد لا يتورعون عن مهاجمة مفهوم الـ *Plenitudo Potestatis* وهم في مأمن من تهمة الإلحاد

وقد ضمت الجامعات الأوروبية الأولى مجموعة من المفكرين ، مثل جون وايكليف أستاذ جامعة ا كسفورد وجون هاس عميد جامعة براغ ومارسيليو بادوا عميد جامعة باريس ووليام أوكام الأستاذ بها ، تولوا قيادة الفكر الأوروبي الجديد . وسرعان ما سئرى على رأس حركة التوفيق ، وهي ذروة هذا التحول الفكرى ، مفكرين من أبناء هذه الجامعات وعمدائها وأساتذتها .

فما هو مضمون هذا الفكر الجديد الذى زلزل القواعد التى قامت عليها تلك السلطة الفريدة *Plenitudo Potestatis* التى يتمتع بها رأس الكنيسة الكاثوليكية .

لقد كرس مارسيليو بادوا كتابه الأول لمبادئ « الدولة » وحقها فى حياة خاصة بها مستقلة . ورغم أن الدولة التى يتحدث عنها مارسيليو ليست هى الدولة القومية التى نعرفها اليوم ، ولا حق الدولة الإقليمية التى كانت على وشك الظهور فى أعقاب هذه الفترة ، فإنه قرأياً أن الشعوب التى تتكلم لغة واحدة ينبغي أن تكون دولا منفصلة ، وأن الحروب بين الدول إجراء عليه الطبيعة لمصلحتها ، وأن السلام المطلوب هو السلام داخل هذه المجموعات اللغوية . وهاجم مارسيليو السلطة السيادية للبابا داخل الجهاز الكنسى وطالب بإحالة كل سلطات البابا الدينية ، والزمنية فيما يخص الجهاز نفسه ، إلى « المجلس العام » للكنيسة الذى يتألف من كبار رجال الدين وغيرهم ، حتى النساء ، ممن يمثلون خلاصة الرأى المسيحى المستنير ويختارون من جميع أنحاء أوروبا المسيحية ، وبذلك « يمثلون » المجتمع المسيحى وينوبون عن مجموع المؤمنين فى القيام بهذه المهام .

واعتبر وليام أوكام أيضاً السلطة المطلقة التى يتمتع بها البابا طغياناً *Tyranny* وبدعة وإلحاداً ، ودعا مثل مارسيليو إلى جهاز « نيابى » يمثل المؤمنين لأحد من سلطة البابا .

إن هذه الأفكار تعتبر غريبة ، بل وثورية ، في ذلك في الوقت ولكنها انتشرت بسرعة في المجتمع الأوروبي ، وصارت السلطة المطلقة للبابوات موضع نقاش على نطاق واسع بين الدوائر المثقفة في أوروبا . إن ساباين يصف هذه الحركة (١) بأنها أول حركة كبرى للتربية السياسية الشعبية شهدتها التاريخ ، وهو محق في ذلك في حدود مفهوم « الشعبية » في ذلك العصر — وربما أيضاً باستثناء الحركة التي أنارتها « الأكاديميات » في أئينا عند الإغريق .

وقد اشتملت هذه الحركة بصفة خاصة بعد أن حدث الانشقاق الكبير Great Schism في الكنيسة الغربية وصار رآب هذا الصدع في وحدة المسيحية الهم الشاغل لكثير من المفكرين الأوروبيين وهدفاً يتطلع إليه جمهرة المسيحيين في أوروبا مما أدى إلى انتشار المناقشة في أوضاع الكنيسة كلها بين الناس لمعرفة أسباب ما أصابها .

وما ساعد على انتشار الأفكار الجديدة الخاصة بنظام الحكم داخل الكنيسة المقارنات التي عقدت بين سلطة البابا وسلطة رأس المؤسسة الكبرى الأخرى في أوروبا وهي الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فقد كانت سلطة الإمبراطور تقوم على ذلك التقليد الروماني في الحكم الذي تتضمنه مؤسسات الحكم لدى القبائل الجرمانية ، وكان « مجلس المنتخبين » Electors مجرد تطوير لمجلس رؤساء العشائر وكبار رجال القبائل . وفي الأنظمة التي قام عليها حكم الملوك الأقل شأنًا كانت توجد مجالس شبيهة مثل البرلمان الإنجليزي والدايت في ألمانيا ومجلس الطبقات العامة في فرنسا . وكانت هذه المجالس تعتبر من الناحية النظرية على الأقل « نائبة » عن الشعب في مجموعته وممثلة له ، وفيها يتجسد مفهوم الدستورية الفيودالي الذي يجعل الإمبراطور أو الملك خاضعاً للقانون الذي يخضع له الجميع .

وعندما تغلغلت هذه الثورة الفكرية إلى أعماق المجتمع الإقطاعي ، ظهرت تلك الحركات التمردية التي أشرنا إليها ، ووجهت بعضها الهجوم إلى الفوارق الطبقية السائدة ودعت إلى المساواة الكاملة بين الناس وإلغاء « السلطة » بجميع أنواعها كما

حدث بين المتطرفين من أتباع هاس في بوهيميا واللورد Lollards في إنجلترا .
وبرغم أن هذه الحركات انهارت في بحار من الدماء تحت وطأة ضربات
أدوات النظام القائم ، فإن الإصلاح كان قد صار ضرورة لامندوحة عنها ، ومن ثم
ظهرت حركات من نوع آخر تعتبر إلى حد كبير بمثابة حل وسط بين تلك القضية التي
تجعل لفرد واحد في المجتمع المسيحي ، هو رأس الكنيسة ، سلطة نهائية مطلقة
لا حدود لها ، وتقيضتها التي تدعو إلى التخلص من كل سلطة . وأهم هذه الحركات
هي حركة التوفيق .

* * *

إن أحداث حركة التوفيق Conciliar Movement نفسها ، من مجلس
كونستانس في ١٤١٤ إلى نهاية مجلس بازال في ١٢٤٩ ، معروفة ونستطيع أن
نوجزها فيما يلي :

في أول القرن الرابع عشر حدث نزاع بين البابا بونيفاس الثامن وفيليب الرابع
ملك فرنسا حول حق الأخير - الذي كان في حاجة ماسة إلى المال بسبب الحرب -
في فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة في فرنسا . وحرّم بونيفاس الثامن فرض
ضرائب على ما تملكه الكنيسة أو رجالها من جانب الحكام الزمانيين وأصدر
المرسوم المشهور Unam Sanctum الذي يعتبر أكثر الوثائق البابوية تطرفاً في
تأكيد السلطة المطلقة للبابا . ورد ملك فرنسا على ذلك بإرسال جنوده إلى روما
لإرهاب البابا ، الذي سرعان ما توفي . وعند انتخاب البابا التالي استطاع ملك
فرنسا بنفوذ الكرادلة الفرنسيين انتخاب أحد الكرادلة المواليين له للكرسي
البابوية ثم أفتعه بنقل المقر البابوي إلى أفينيون على حدود فرنسا ، وبذلك بدأت
فترة « الأسر البابوي » ١٣٠٤ - ١٢١٨ التي كانت البابوات فيها أدوات في يد
ملوك فرنسا تقريباً .

وكان هذا الوضع يحز في نفوس قادة الرأي المسيحي ، وقامت حركة تدعو إلى
عودة البابا إلى روما . وعندما توفي البابا جريجوري الثاني عشر إنتخب مجمع

الكرادلة في روما البابا أوربان السادس الذي قرر إعادة البلاط البابوي إلى روما . ولكن الكرادلة الفرنسيين رفضوا الاعتراف بالبابا الجديد وانتخبوا بابا آخر هو كليمنت السادس أقام في أفينيون ، وبذلك بدأ الانشقاق الكبير للكنيسة الغربية الذي استمر أربعين عاماً ١٣٧٨ — ١٤١٨ . وأثار هذا الانشقاق — الذي زاد الطين بلة — المخلصين من زعماء المجتمع المسيحي الغربي ، وعقد « مجلس عام » في بيزا لوضع حد له . وطالب هذا المجلس البابويين القاعين بالتنازل وانتخب بابا ثالثاً . ولعكن البابويين الأوليين لم يذعنوا لقرار المجلس ، وصار هناك ثلاثة بابوات . وهنا نشأت بين بعض رواد الفكر الأوروبي في ذلك الوقت وبعض كبار رجال الدين الذين روعهم هذا الوضع ، فكرة ضرورة إيجاد سلطة تستمد اختصاصها من المجتمع المسيحي ككل لتفصل في الأمر وتحدد صاحب السلطة النهائية في هذا المجتمع . وكانت هذه فكرة جريئة ، بل وثورية ، في ضوء الأوضاع والأفكار السائدة . ولكن رواد هذه الحركة كانوا موضع احترام في أوروبا المسيحية إذ كانوا يضمون نخبة من كبار رجال الدين والعلماء والمفكرين ، مثل جون جيرسون عميد جامعة باريس والسكردينال تقولا الكوزي وفرانيسكو زابارلا وهنري لانخشتاين وكوزاد جلنهاوزن وبيتر داي ، وكلها أسماء معروفة جيداً لدى المشتغلين بالعالم السياسية والتاريخية .

وبدأت « حركة التوفيق » بالدعوة إلى عقد مجلس كبير على نطاق أوروبا كلها لمناقشة المشاكل التي تشيع الفلق والاضطراب في المجتمع المسيحي ، على أساس تطبيق نوع من المؤسسات البرلمانية — مثل تلك التي كانت توجد في صورة مختلفة في أوروبا انبثاقاً من المجالس الفيودالية التي تحدثنها عنها — داخل الجهاز الكنسي للحد من سلطة البابا المطلقة وإصلاح حالة الكنيسة .

وكانت أهداف الحركة ثلاثة :

- ١ — وضع حد للانشقاق في الكنيسة الكاثوليكية .
- ٢ — النظر في أمر الحركات الإلحادية التي ظهرت في أنحاء مختلفة من أوروبا ، وبخاصة حركة هاس وأتباعه في يوهيميا .
- ٣ — إصلاح الكنيسة نفسها في « الرأس والأعضاء » .

وتعمضت هذه الحركة عن عقد مجلس عام في كونستانس عام ١٤١٢ — بداية حركة التوفيق — ونجح هذا المجلس في تحقيق الهدفين الأولين ، إذ وضع حداً للانشقاق بجمع البابوات الثلاثة وتعيين بابا جديد في روما هو البابا مارتن الخامس ، كما أصدر حكمه في حركة أتباع هاس باعتبارها إلحاداً ، وبذلك أمكن إخمادها وإعدام زعمائها ، برغم أن قيام هذه الحركة وأمثالها في أنحاء أوروبا هو الذى وفر للمؤمنين الجو العام الذى أتاح لهم ما أحرزوه من نجاح .

أما فيما يتصل بإصلاح الكنيسة ، فإن المجلس أصدر مرسومين ، أحدهما المعروف باسم مرسوم Frequens — يقرر ضرورة انعقاد المجلس العام بصفة دورية كل عشر سنوات ، وبذلك سلب حقاً كان معترفاً به للبابا وحده في دعوة المجلس ومحدد ما ينظر فيه من قضايا ، كما أضفى المجلس بذلك ضمناً على نفسه صفة مختلفة عن صفته الأولى كمجرد مجلس استشارى للبابا .

ويقرر المرسوم الثانى - Sacrosanta — أن سلطة المجلس بوصفه ممثلاً للمجتمع المسيحى أعلى من سلطة البابا . ويقول الأستاذ فيجيس في مؤلفه العمدة المعروف إن هذا المرسوم يعتبر « أعظم وثيقة رسمية ثورية في تاريخ العالم .. لقد أصدر مجلس كونستانس مرسوماً يقرر فيه أنه يمثل سلطة أعلى من البابا وبذلك كان يحاول قلب حكم ملكى مطلق استمر أكثر من ألف عام إلى حكم دستورى » (١) .

وقد رفض البابا طبعاً الخضوع لهذا التمرد ، ومرت فترة زاخرة بالصراع بين المجلس وزعماء حركة التوفيق من ناحية ، والبابا وأنصاره من ناحية أخرى . وعندما توفي البابا مارتن الخامس جاء بعده البابا يوجينيس الرابع الذى قرر حل المجلس نهائياً عند ما تبين أن زعماءه لا يزالوا مصرين على موقفهم من أن سلطة المجلس تعلو سلطة البابا ، ولكن الضغوط المختلفة أجبرت البابا على العودة إلى الاعتراف بشرعية المجلس الذى عقد اجتماعه الثانى فى بازل ابتداء من ١٤٣١ كما كان مقرراً . وعندما احتدم النزاع بين المجلس والبابا قرر المجلس إيقاف البابا ثم عزله وانتخب باباً جديداً ، ولكن رأى العام المسيحى لم يؤيد المجلس فى هذه الخطوة خشية حدوث

(١) فيجيس ، للرجع السابق ص ٤١ .

انشقاق جديد في الكنيسة . وكانت هذه هي بداية انهيار حركة التوفيق . وفي ١٤٤٩ اضطر من بقي من أعضاء المجلس ، وكانوا قد انتقلوا إلى لوزان ، إلى إعلان خضوعهم للبابا في روما وانتهت حركتهم — فيما يتصل بالحد من سلطة البابا — بالفشل الكامل . وفي العام التالي ١٤٥٠ احتفلت الكنيسة الكاثوليكية رسمياً بانتصار البابوية نهائياً على حركة التوفيق .

وقد ساعد البابا يوجينس الرابع على هذا الانتصار الحاسم أنه في هذه الأثناء كان قد دعا إلى عقد مجلس آخر ، في فراانم في فلورنسا ، عام ١٤٣٩ للنظر في أمر توحيد الكنيستين الشرقية والغربية بهدف تكميل الجهود ضد المسلمين (الآتراك) الذين كانوا على وشك الانقضاض على القسطنطينية بعد أن استولوا على معظم ما حولها ، وبذلك عمل على اجتذاب الزاى العام للمسيحي في هذا الاتجاه وتحويله عن دعوة الموقفين .

* * *

كانت حركة التوفيق أول مناقشة كبرى تقوم بها مجموعة من العلماء ورواد الفكر الأوروبي حول أفضل النظم الاجتماعية والسياسية للمجتمع الأوروبي ؛ إذ منذ اختفاء الثقافة الإغريقية وسيادة الكنيسة المسيحية لم يحدث أن نوقشت مثل هذه الموضوعات اللهم إلا في حدود الدراسات اللاهوتية . وقد ظهرت في هذه المناقشة أفكار وآراء أثرت في الفكر السياسى قرونًا ، وحفلت باتجاهات ما زالت حتى يومنا هذا موضع تأمل كثيرين من المفكرين (١) .

ففيها عاد إلى الحياة — كما يبدو في كتابات فرانسكو زابارلا — مفهوم قديم قبيض له أن يلعب دوراً ضخماً في الفكر السياسى الحديث ، وهو أن كل شعب People أو جماعة بشرية Community تملك قدرة متأصلة في ذاتها وحقاً ثابتاً في وضع قوانينها وتمييز حكامها ، وأن هذه القدرة وحدها هي مصدر مشروعية الحكم الذى تخضع له هذه الجماعة .

(١) يقول بنجامان نلسون Benjamin Nelson في معرض تقديمه لكتاب فيجيس المشار إليه : « أنه ليست هناك فترة في تاريخ أوروبا تبدو لنا الآن أكثر امتلاءً بالمعنى — بالنسبة للصراعات السياسية في عصرنا — من المائتي سنة التى بدأت بمجلس كونستانس » .

وعند مفكر آخر من الموقفين، هو نقولا الكورى، نجد مفهوماً آخر تردت أصدائه في كتابات المفكرين منذ ذلك الوقت هو أن كل الناس بالطبيعة أحرار وأية سلطة تفيد حرية الخاضعين لها، وأنهم عن القيام بعمل، أو تدفعهم إلى القيام بعمل عن طريق الخوف والعقاب لا بد أن تأتي من رضا هؤلاء الخاضعين وقبولهم لها « سواء كانت هذه السلطة كامنة في القانون المكتوب أم في القانون الحى المتجسد في المحاكم » .

إننا لا نملك إلا أن نرى على الفور الشبه الواضح بين هذه الأفكار والأفكار التي أحدثت دويماً في القرنين السابع عشر والثامن عشر وبلغت ذروتها بالثورات التي هزت العالم الحديث في هذين القرنين في إنجلترا وأمريكا وفرنسا . ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن هناك فرقاً أساسياً بين المفكرين؛ فالرضا الذي تحدث عنه مفكرو القرن السابع عشر والثامن عشر كان رضا الأفراد من الناس، أما في القرن الخامس عشر فكان الرضا بهذا المعنى مستحيلاً . لأن الفرد، الذي لا سيد له سوى ضميره، لم يكن قد تبلور ك مفهوم سائد إلا بعد انهيار أفكار العلاقات الفيودالية والدينية وبعد أن تأكد -- كنتيجة لحركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر -- مفهوم الفرد ذي العلاقة المباشرة بالله والذي يختصه الله بكيان خاص به مجرد كونه إنساناً . إن مفهوم الرضا عند الموقفين كان يعنى رضا الجماعة كما يتمثل في « زعمائها الطبيعيين » ، إنه الرضا الذي يتضمنه التقليد الفيودالي في الحكم . كما كانت تمارسه القبائل الجرمانية في صورة مجلس العشيرة Diet

ومن مبدأ الرضا كأساس للحكم -- الذى أكدته الكوزى -- نستطيع أن نتبين لماذا ذهب الموقفون إلى أن السلطة السيادية معقدها هو « مجتمع المؤمنين » ، أو « شعب الكنيسة » كله كما يقول خيركه ، وأن ممارسة السلطة « وظيفة » ، يقوم بها البابا والمجلس معاً لحساب هذا المجتمع ، وبذلك أصبح منصب البابا نفسه ، مثله مثل المجلس ، ذا طابع نيابي أو مجرد توكيل . كما أن مرسوم كونستانس يعنى على مجمع السكردالة -- وهو هيئة دائماً من هيئات الكنيسة -- وضماً يكاد يقابل وضع مجلس الشيوخ في كثير من الدساتير الحديثة . وهكذا تصبح لدينا

صورة للحكم في الكنيسة تضم البابا ، في وضع الملك المقيد دستورياً أو رئيس الجمهورية المنتخب بواسطة مجلس نيابي ، وبرلمان مكون من مجلس أعلى — هو مجلس الكرادلة — ومجلس أدنى هو المجلس العام . إن هذه الصورة تطبيق واضح لمفهوم « الدستور المختلط » الذي نراه عند جمهرة المفكرين السياسيين في عصر الاستنارة والذي يعتبر المبدأ السائد في كثير من بلاد العالم الآن .

ولاريب في أن الموقعين استوحوا الكثير من هذه الأفكار من مفهوم أرسطو ، الذي كانت كتاباته قد انتشرت على نطاق واسع في ذلك الوقت ، عن أفضل نظم الحكم ، وبخاصة أن نظرية الموقعين فيما يتصل بالرضا كشرط للخضوع للسلطة ، كانت انطلاقة من المفهوم الأرسطالديسي عن المجتمع المكثفي بذاته Self Sufficient . ولا شك أيضاً أن الموقعين تأثروا بنظرية اللائكية المقيدة الفيودالية في مواجهة الحكم على أساس الحق الإلهي المطلق التي صاغها أنصار البابوية ، والتي استخدمها فيما بعد الملوك لمصلحتهم ، وإلا ما استطاعوا أن ينصوا صراحة في مرسوم كونستانس على أن للمجلس ، بصفته ممثلاً للشعب المسيحي ، أن يعزل البابا إذا اغتصب قدراً من السلطة أكثر مما تحدده مقتضيات وظيفته لمصلحة الشعب ، بل ولما جرؤوا على إصدار قرار بعزل البابا يوجينس الرابع عندما رفض دعواهم .

لقد صارت كل هذه المبادئ التي أثارها حركة التوفيق من القضايا المسلم بها في كل حكم دستوري في العصر الحديث . ولا شك أن تأثيرها كان كبيراً في التطورات التالية في التاريخ الأوروبي . بيد أن هناك جانباً آخراً لحركة التوفيق لا يقل أهمية في نظرنا عن هذه الأفكار في تحديد مسيرة هذه التطورات .

من المعروف أن أوروبا في ذلك الوقت لم تكن قد استقرت بعد على مفهوم خاص بتعدد الجنسيات ، فهي لم تعرف مثل هذا المفهوم عملياً إلا بعد أن قامت الدولة الإقليمية territorial State وعندما دفع الانقسام الديني الناجم عن حركة الإصلاح الناس إلى البحث عن رابطة أخرى غير الدين توفر التماسك الضروري للمجتمعات الجديدة ، التي كان لا بد أن تنشأ بتأثير عدة عوامل وظروف اقتصادية واجتماعية في أوروبا .

ولكن الدافع الذي حدا بفكرى حركة التوفيق بأن يكون « النمثيل » في

المجلس العام ومجلس الكرادلة على أساس « الأمم » - أياً كان معنى هذا المصطلح في ذلك الوقت - لا بد أنه كان يجسد صدق المشاعر التي بدأت لتسرب إلى المفاهيم في آخر القرون الوسطى وساعدت في القضاء على وحدة « مملكة المسيح » ومعها النظام الإقطاعي بأكمله وأقامت على أنقاضه الدولة الإقليمية ثم - بعد ذلك - الدولة القومية الحديثة .

وقد تبلورت حول هذا القرار بصورة نهائية «المكنائس الوطنية» - وهو مفهوم جديد تماماً في القرن الخامس عشر ما كان ليخطر على بال إنسان مجرد التفكير فيه في القرن السابق . أن الأستاذ فيجيس يرد خلاصة رأي علماء السياسة الحديثين عندما يقول « إن جيرسون وأسانذة جامعة باريس اتخذوا موقفاً وطنياً متطرفاً في حركة التوفيق » ، وهو بذلك ، يعبر عن ظاهرة كانت جديدة تماماً في أوائل القرن الخامس عشر ؛ فعندما نستعرض التاريخ الأوروبي كله في هذه الفترة وقبلها لانجد حركة أخرى تعطينا عوذاً أوضح من ذلك لبداية نشأة النواة الأولى للمشاعر الوطنية في بداية تحولها إلى تلك الظاهرة التي تعتبر اليوم أخطر عامل في السياسة المعاصرة ، وهي ظاهرة القومية الحديثة .

مما تقدم نستطيع أن نبين أن معظم الأفكار السياسية التي صنعت العصر الحديث توجد بذورها بصورة أو أخرى في كتابات الموقفين وقراراتهم . وبما لا ريب فيه أن حركتهم لو كانت نجحت في فرض النظام الدستوري داخل الجهاز الكنسي - وهو أمر كان مستحيلاً لعدة أسباب - لتركت أثراً مباشراً وفعالاً في كل التطورات التالية ، بل لعلها كانت قد حالت دون قيام ثورة الإصلاح الديني في القرن التالي وغيرت بذلك مجرى التاريخ الحديث . ولكن لماذا فشلت حركة التوفيق ؟

إن المصير الذي انتهت إليه هذه الحركة كان هو نفس المصير الذي أصاب البرلمانات الفيودالية بعد ذلك في المحافظة على نفسها ضد موجة الحكم الملكي المطلق التي أثمرت بدورها موجة ثورات القرن السابع عشر والثامن عشر . والغالب أن الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي أدت إلى الظاهرتين واحدة . ولكن هناك أيضاً أسباباً واضحة أسهمت في فشل حركة التوفيق بالذات .

ف « مملكة المسيح » التي كانت تمثل مجال السلطة الشاملة للكنيسة الكاثوليكية

لم تمد وحدة متماسكة تسمح بوضع نظام نيابي لتمثيل أوروبا كلها — كما حدث داخل الدول الإقليمية التي أتاحت لها قوة التماسك الوطني النامي أساساً تقوم عليه مؤسساتها النيابية فحولتها بذلك إلى دول قومية . فأوروبا كانت في القرنين الأخيرين من العصور الوسطى في بداية الانقسام إلى دول تستهدف كل منها الاستقلال عن كل سلطة خارجية ، ولم يكن من اليسير جمعها على المشاركة في خلق نظام حكم لمؤسسة موحدة تدعى الاختصاص السكلى الشامل فوق هذه الدول .

كما أن حركة التوفيق لم تكن متمتعة بالتأييد الشعبي الكافي — باستثناء بعض الجيوب هنا وهناك — للقضاء على السلطة المطلقة للبابا . فالرأى العام المسيحي أيد للموقنين فيما يتصل بوضع حد للانقسام وتمدد البابوات الذى كان يؤرق المسيحيين في أوروبا ويفقد الثقة في أعظم وأهم مؤسساتهم في ذلك الوقت . ولكن عندما حاول الموقنون إصلاح الكنيسة بالحد من سلطة البابا وكادت محاولتهم تؤدى إلى انقسام جديد انصرف عنهم الرأى العام المسيحي . فضلا عن أن الموقنين ، وهم مجموعة من المفكرين الأ كاديميين أساساً ، لم يدخلوا في اعتبارهم أن حركتهم حركة شعبية في جوهرها ، إذ تعمل على فرض مصلحة « الشعب » المسيحي وإرادته بجعله مصدر السلطات ، وليس لديها ما تواجه به المصالح القائمة التي يهتمها الإبقاء على الأوضاع السائدة سوى التأييد الشعبي ، ومن ثم فإنهم لم يبذلوا جهداً لاجتذاب الرأى العام الأوروبي في تأييد حركتهم ، بل إنهم بموقفهم المتشدد ضد حركة أتباع هاس ، والحركات المائلة ، وانهاهمم إياها بالإلحاد ، وهي التي كانت تمثل في الواقع تطلعات الجماهير في ذلك الوقت ، أفقدهم ما كان يمكن أن يحصلوا عليه من تأييد وقضى على جهودهم بالفشل .

لقد كان فشل حركة التوفيق بمثابة ضربة قاصمة لقضية الحكم الدستورى في أوروبا كما يقول أحد المؤرخين الذين يمتد برايمهم^(١) ، ولكنها رغم فشلها تركت

(١) و. ت. ، و. ج « تاريخ أوروبا من ١٣٧٨ — ١٤٩٤ » (لندن ١٩٤٩)

س ٣٧ « W.T. Waugh « History of Europe 1378-1494 »

ويقول فيجيس ، المرجع السابق س ٤٣ ، كان انتصار البابا يوجينيس الزايم بداية لانحصار البيروقراطية المركزية في العالم .

أثراً دائماً في التاريخ الأوروبي والفكر السياسي عموماً باعتبارها أول محاولة من نوعها لبلورة المفاهيم الدستورية الفيدرالية في مبدأ دستوري محدد يستخدم في مواجهة حاكم مطلق على أساس تحديد سلطته بواسطة هيئة تمثل « المجموع » ، وبذلك وضعت اللبنة الأولى لسيادة الشعوب - حتى قبل أن يتبلور مفهوم السيادة الحديث نفسه - ووجدت فيها الحركات الدستورية التالية كلها ذخيرة من الحجج والأفكار كما نستطيع أن نرى بوضوح في كتابات دعاة هذه الحركات .

وهناك أثر هام آخر لحركة التوفيق يعتبر من علامات الطريق في تاريخ النظرية السياسية . لقد استمرت أوروبا قرابة ألف عام تتناول القضايا العامة - الكبرى والصغرى - من زاوية الحق القانوني الشخصي الذي ورثه الفكر الأوروبي عن القانون الروماني ، وقد استطاع أنصار البابوية أن يثبتوا « الحق القانوني » للبابا في الحكم السيادي المطلق . ولكن زعماء كونستانس وبازل واجهوهم بمفهوم حديث تماماً هو أن القانون ليس شيئاً مستقلاً بذاته يعمل في فراغ ، بل هو جزء من المجتمع ويستطيع المجتمع تغييره بإرادته عندما تتغير ظروفه ، ومن ثم فإن « الحق » السياسي أمر نسبي يرتبط بمصلحة المجتمع ككل . وهكذا ظهر لأول مرة في تاريخ الفكر الغربي منذ قيام المسيحية « مفهوم النفعية » Utilitarianism في مواجهة مفهوم الحق المطلق ، الذي يتضمنه القانون الطبيعي أو أي قانون آخر بعيد عن متناول العقل البشري والإرادة البشرية ، كحجة تستخدم في قضية عامة مطروحة فعلاً . ولم تمض مائة عام حتى كان مكيافللي قد استخدم هذا المفهوم - مفهوم الاحتكام لمصلحة المجتمع كميّار نهائي - وحوله إلى مبدأ « صالح الدولة » Raison d'Etat كميّار نهائي يجعل منه نظرية سياسية قام عليه الجانب الأكبر من علم السياسة الحديث .

عبد الكريم أحمد

أستاذ العلوم السياسية

بالمعهد العالي للخدمة الاجتماعية

obeikandi.com

مؤرخ مغربي معاصر

يصف أحداث أوروبا الغربية

خلال سنوات ١٥٨٧ - ١٨٩٦

الركنور هبب الكركيم كركيم

كلية الآداب - جامعة محمد الخامس الرباط - المغرب

أولى للؤرخ المغربي أبوفارس عبد العزيز الفشتالي عناية كبرى للأحداث المعاصرة التي عرفتها أوروبا الغربية خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر، للدرجة يمكن معها القول بأن المعلومات الهامة والتفاصيل الدقيقة التي أثبتتها في مخطوطه القيم (مناهل الصفا) الموجود بجزانة القصر الملكي بالرباط، قل أن نجد لها مثيلاً حتى عند بعض المؤرخين الأوروبيين المعاصرين.

وليس هناك من شك في أن وضعية الفشتالي كوزير للمولى أحمد المنصور السعدي ورئيس كتابته الخاصة ثم كجليس خاص للخليفة، قد مكنته من الاطلاع على الكثير من التطورات والأحداث الداخلية والخارجية. وساعدته على تدوين جانب كبير منها.

ويهمنا في هذا البحث أن نكشف الجوانب الهامة من تاريخ أوروبا الغربية في نهاية القرن السادس عشر، التي أولاها المؤرخ الفشتالي عناية كبرى في مخطوطه (الناهل) وذلك:

١ - لنستفيد منها في دراسة هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ أوروبا الغربية في مطلع العصر الحديث.

٢ - لنستدل بها على مدى سعة أفق بعض المؤرخين المغاربة المعاصرين الذين دونوا أحداث بلادهم الداخلية وأهم التطورات الخارجية المعاصرة لهم.

٣ - ولنبتل الأذعاء الذي طالما ردهه الكثير من الأجانب بإنعزال العالم.

الغربي وانكماشه على نفسه خلال العصور الحديثة وجعله لما يجري من تطورات في داخل البلاد وخارجها .

اعتدت وطأة الحروب الدينية بأوربة الغربية منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر : للاشتباكات الدموية التي تمددت واجهاتها وتشمعت أهدافها ، لدرجة يمكن معها القول بأن الكثير من ملوك أوروبا وأمرائها قد استغلوا لبسط سيطرتهم أو لخلق نير حكم أجنبي ، أو لتحقيق مطامع وأهداف طالما عملوا لأجلها ، وقد كان ملك أسبانيا فيليب الثاني يعمل جاهداً على إقامة دولة مسيحية واحدة تكون قوام إمبراطورية عالمية ، وكان يتخذ من تأييد البابوية في روما حجة وسنداً للدخول في حروب ضد الدول الأوروبية يدعو اعتناق بعضها المذهب البروتستانتي الذي اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية بدعة يجب القضاء عليها مع أن هذه الدول قد خرجت أو سمت إلى الخروج ضد فيليب الثاني والوقوف في وجه أطعاه التوسعية وذلك للتطورات التي عرفتها أوضاعها وظروفها كدول نامية تسعى لتحقيق كيانها السياسي ووحدتها الوطنية ، ومن هذا القبيل بريطانيا وفرنسا وهولندا التي كانت تربطها بالمغرب روابط قوية وخاصة في الميدان التجاري . وقد أخذت هذه العلاقات تتحول إلى اتصالات سياسية بسبب شعور هذه الدول بالخطر الأسباني المتزايد . أو بمباراة أوضح ، فإن الخطر الأسباني قد تقارب بين دول المسكر البروتستانتي بأوروبا وبين المغرب الذي كان يتخوف من قيام الأسبان بهجوم عسكري ، خاصة وأن للأسبان قواعد احتلال عديدة منبثة على شواطئ المغرب الشمالية .

ومنذ انهزام البرتغال في معركة وادي المخازن (الاثنين ٤ غشت ١٥٧٨) ، اشتدت رغبة فيليب الثاني ملك أسبانيا في ضم العرش البرتغالي وتوحيد شبه جزيرة ايبيريا ، وقد تدل في قواعد الاحتلال البرتغالي في المغرب (سبتة ، طنجة ، أصيلا ، مازكان) بدعوى حمايتها من الهجومات المغربية ، وأخذ يستغل كل الفرص والظروف للإطاحة بالحكومة البرتغالية التي لم تكن الأيام تزيد أوضاعها الداخلية إلا تدهوراً واضطراباً ، وخاصة بعد وفاة الكاردينال (هنري) في شهر فبراير سنة ١٥٨٠ وعدم توصل الهيئة الخماسية التي ألفت في لشبونة لتسيير الأمور ، ريثما ييث مجلس (الكورتيز) البرتغالي فيمن سيتولى العرش لتعدد المطالبين وتشمع الاتجاهات واختلافها .

ومن أبرز المطالبين (دون أنطونيو) عم الملك القليل (دون سباستيان) ،
الذى شارك بدوره فى معركة وادى الخازن ونجا من الأسر بأعجوبة ، والملك
الأسبانى فيليب الثانى الذى لم يتردد فى استخدام القوة لضم العرش البرتغالى
والامبراطورية البرتغالية المترامية الأطراف .

وعندما اخترقت القوات الأسبانية الحدود البرتغالية يوم ١٢ يونيه ١٥٨٠
سارع مجلس (الكورتيز) البرتغالى إلى ييمة (دون أنطونيو) يوم ١٩ يونيه ،
وتصدت القوات البرتغالية إلى مقاومة الأسبان ولكن بدون جدوى ، إذ انهزم
(دون أنطونيو) فى معركة (المنطرا) وجرح ثم فر إلى شمالى البلاد ومنها إلى
جزر آصور التى وصلها يوم ٢٣ أكتوبر من نفس السنة .

أما فيليب الثانى فقد استقر فى مدينة بطليوس إلى أن جاءه خبر الفتح وتصديق
مجلس (الكورتيز) على وحدة المرشحين البرتغالى والإسبانى خلال جلسته للتعقد
يوم ١٥ أبريل ١٥٨١ ، ومن مدينة بطليوس انتقل إلى لشبونة التى دخلها ذكول
الفاحين يوم ١٣ يوليو فى حين أن (دون أنطونيو) قد أعلن معارضته لذلك ،
وجعل من جزر آصور مقراً للثورة ضد الأسبانيين . وعندما أرسل الأسبان قوات
بحرية ضد آصور سنة ١٥٨٣ انتقل (دون أنطونيو) إلى فرنسا عند ملكها (هنرى
الثالث) الذى أعرب عن تأييده للأمير البرتغالى ومدته بمختلف المساعدات ، غير
أن أحداث فرنسا الداخلية ، وتجدد الحروب الدينية بها سبب محاولات الحزب
الكاثولىكى الفرنسى حرمان الأمير (هنرى نافر) البروتستانتى من عرش فرنسا
بعد أن أصبح المرشح الوحيد له إثر وفاة الأمير (فرانسوا) أخى الملك (هنرى
الثالث) سنة ١٥٨٤ ، وتدخل ملك أسبانيا لتأييد الجانب الكاثولىكى من جهة
أخرى ، جعل (دون أنطونيو) ينتقل إلى بلاط الملكة الإنجليزية (إليزابيث)
بلندن ، التى آوته وشمته بكل عطف وتأييد .

وبانتقال (دون أنطونيو) إلى لندن ازدادت حدة النزاع بين أسبانيا وانجلترا
وتباينت شدة الخلاف بين المسكرين المسيحيين الأوربيين الكاثولىكى بزعامه فيليب
الثانى والبروتسانتى بزعامه الملكة إليزابيث .

والجدبر بالملاحظة هو أن كلا من المسكرين قد سعى جاهداً إلى كسب جانب

الخليفة السعدي المولى أحمد النصور لما يتمتع به المغرب من استراتيجية هامة . وللدور العسكري الذي يمكن أن يقوم به الغاربية عند قيام حروب بين دول المسكرين الكاثوليك والبروتستانت ، وقد التزم المغرب جانب الحيام بين الجانبين المتنازعين . إلى أن حصلت معركة الأرمادا التي انتهت بانهزام الأسطول الأسباني (١٠ أغسطس سنة ١٥٨٨) إذ ازادت الصلات بين الملكة الإنجليزية (إليزابيث) والمولى أحمد للنصور الذي أعلن تأييده للأمير البرتغالي (دون أنطونيو) ، واعترافه بمطالبه المشروعة في العرش البرتغالي .

وبعد الاتصالات السرية التي جرت بين مرا كاش ولندن تم الاتفاق على أن ينتقل الأمير (دون كريستوف) بن (دون أنطونيو) إلى المغرب كرهينة في مرا كاش مقابل المساعدة المادية والقروض المالية التي وعد النصور بتقديمها ، إلا أن المولى أحمد استغل وجود الأمير البرتغالي بين يديه للضغط على الملك الأسباني فيليب الثاني الذي تنازل له دون قتال عن مدينة أصيلا إحدى قواعد الاحتلال الأسباني بالمغرب ، وللانطلاق نحو غربي أفريقيا لفتح السودان ، وتأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف .

لقد أثرت نتائج معركة الأرمادا على الأحداث التي عرفتها أوربة الغربية فملاوة على الثورات التي ازدادت ضد الأسبان لقدم بعض المسكانة التي كانت لهم كأعظم دولة في العالم ، أخذ خصومهم الذين كانوا يقفون منهم على حذر لسطوتهم وقوتهم ، يصارحونهم المداء ، ويحاولون استغلال هذه الفرصة لرفع نيرهم وإبعاد خطرهم ، أو للانتقام منهم .

وهكذا اندفع الإنجليز في حروبهم ضد الأسبان وتعددت واجهات القتال بين المسكرين المسيحيين ، وسعى الحلف البروتستانتي بوجه خاص إلى احتلال أهم المدن البرتغالية الساحلية لتتربح (دون أنطونيو) بها ولقطع الطرق التجارية البحرية التي تصل بين أسبانيا من جهة والعالم الجديد والشرق الأقصى من جهة أخرى .

وقد نجح الإنجليز أخيراً سنة ٢٨٨٦ في احتلال مدينة قادش إحدى المراكز

الاتصالية الأمة بشبه الجزيرة الإيبيرية ونادوا بالأمير « دون كريستوف » أميراً عليها بعد وفاة والده (دون أنطونيو) بفرنسا سنة ١٥٩٥ .

* * *

وجميع هذه التطورات والوقائع قد دونها المؤرخ الفشتالي في مخطوطه « مناهل الصفا » ، وإن لم يكن ذلك بصفة منتظمة لأن الفشتالي كان يدون أخباره بشكل كرايس ومذكرات ولأن بعض هذه الأحداث جاءت بصفة استطرادية أو في معرض حديثه عن الخليفة المنصور وأخبار دولته بالمغرب .

وقد قمت بتنظيم المعلومات التي دونها الفشتالي عن أوربا الغربية خلال الفترة بين ١٥٧٨ - ١٥٩٦ وترتيبها ترتيباً زمنياً لتم الفائدة المرجوة ودون أن يس ذلك بالأصل وبشروط الأمانة التاريخية .

١ — أوضاع البرتغال بعد معركة وادي المخازن والصراع بين فيليب الثاني ملك أسبانيا و (دون أنطونيو) المطالب بالعرش البرتغالي :

« فأما ولهم طاغية برتقال دون أنطون فقد كان من خبره أن أمير المؤمنين المنصور لما وقع بمجموع الشرك يوم النهر بوادي المخازن حسبما سبق وجدلت سيوفه بستان برتقال واستولى المسلمون على من تحطاه الأجل من سواد الشركين كان بمن أسريومثذ من طواغيت الشرك دون أنطون عم بستان طاغية برتقال الهالك أسره بعض زعانقة البربر من مطوعة بلاد الهبط واستألمهم بالمال وقد جهلوه فأوصلوه إلى أصيلا وعبر البحر إلى الاشبونة قاعدة برتقال ، وكان القائم بها يومئذ يأمر برتقال من بعد بستان عمه فرديال ثم هلك لحولين من ولايته فقام بالأمر من بعده دون أنطون هذا ثم طمع طاغية قشتالة أن يغلبه على ملكه بها وأعانه على انتهاز الفرصة فيه ما قدمنا من تلاشي أمر برتقال باستيصال هزائمهم وهلاك جمعهم بوادي المخازن الكائن للمسلمين عليهم على يد أمير المؤمنين فزحف إليهم بمساكر قشتالة وكانت أكثرهم النصرانية جماعاً فخرج دون أنطون لدفاعه فيمن بقي من جموع برتقال فالتقى الجمعان بساحة الاشبونة فكانت الدائرة على دون أنطون ونجى إلى ملكة

بلاد نكلطيرة ابذيل فنزل منها خير نزل فأوته وشمرت لفصرتة » (المناهل من
١١٢) .

٢ — وصف للمارك والحروب التي جرت بين الأسبان والإنجليز :

« فأظلم الجو بالفتن على طاغية قشتالة وتمالككت في مشاقته ملوك الأمم النصرانية
فكان أشدهم تكالبا عليه وأكثرهم جراءة على الإجلاب على ممالكه والتضييق عليه
والأخذ بمخنقه إيزيل سلطانة ممالك بلاد نكلطير ... ثم رام مناهضتها واحقل في
تجهيز الأسطول لمنازلها فأوقعت به أساطيلها وارتد على أعقابها مغلولا » (المناهل
ص ١٣٥) .

٣ — وصف معركة الأرمادا : [من رسالة للمنصور إلى أهل سوس - رسائل
سعدية . ص ١٥٠] .

« ذلكم أن عدو الدين الكافر جدد الله حزنه وقوض ركنه وهو طاغية قشتالة
الذي هو اليوم ضد الإسلام وعميد الشرك الذي يشرع إليه اللهدم والحسام كان من
أمره مع سلطانة بلاد نكلطيرة التي قبض الله منها عدواً من جنسه وضداً شغله عن
نفسه بسبب عداوة نشأت عن نزوعها هي وقومها عن ديار النصارى ، وشرعتهم
والخروج عن ملتهم فكانت لذلك تغزى الطاغية منذ سنين بأساطيلها في عقر داره
وتستأصل المرة بعد المرة بسيفها جماهر حماه وأنصاره وتقيم كل يوم في أرضه
مآثم ، وتهجم على أساطيله مع البحر غربانها هجوم الليل العاتم حتى إذا استشرى
داؤها العصال وعضته من حروبها الأسنة والنصال سولت له نفسه تجهيز الحركة إلى
أقطارها ومنازلها بمجموعه في عقر دارها إظهاراً لقوته وإيداناً من الله باستحصان
شوكته فشمز للأهبة والاستعداد واستنفذ في الاحتفال الطارف والتلاد حتى تجمعت
له من الأساطيل عمارة خافلة مكث في جمعها أربعة أعوام تبعاً استفرغ فيها غاية
مقدوره وجهده واستعمل فيها كل طاقته وجده وعندما كملت أجزاها إلى البحر
وشحنها بأمم لا تحصى من جموع الشرك ، وأحزاب الكفر بحيث لم يبق أحد من
أحزابه () فما فوقه بسائر أقطاره ، وبلاده وقوضت إلى بلاد نكلطيرة تخوض
نحوها الأمواج وتبتغي إليها السمو والمعراج حتى إذا دشوا منها وقد أخذت أساطيلها
لحربهم الأهبة والاستعداد وقعدت لهم بمنتهى جزيرتها وحدود أرضها بالمرصاد أرسلت

الله على أساطيل الطاغية من عنده ريمحاً صرصراً أحمتمهم في بلاد العدو على غير نظام ونكست لهم الريات والأعلام فاغتنمت منهم نكلطيرة الفرصة فابتدروا انتهازها وهجم أسطولهم على تلك العهارة القوية فردوا على صدورهم أعجازها وأقبل تيار الهلكة على جموع قشتالة كافة واستأصل الله سبحانه لهم الشأفة فلم ينبج من العرق سوى من استأصله السيف وعاجله بحمد الله تعالى السيف ولا خلو من الورطة في تلك الجموع الكفرية وثه المنة على كثرتها وأربائها على الرمل والحصى في عددها وعدتها لإقبطان مدينة لا غير وهو قائد تلك الجموع السكافرة والعصابة الرائحة بالصفقة الحاسرة أفلت وحده من شرك الردى جريمحاً ، وكان له الموت لو وجده شافياً من تجرع تلك العصاة ومريمحاً .

٤ — إيليزابيث ومساعياها لدى المنصور لتأييد (دون أنطونيو) ضد الأسبان.

« ثم نظر في أمره فردا أن جبر صدعهم وبناء ما تهدم من ملكهم لا يتأتى إلا على يد أمير المؤمنين الذى فى هلاكه ضرهم ونفعهم وجبرهم وصدعهم وأنه لا قدرة على تشييد ركنهم إلا نقضه بمعاول سيوفه الأمامية وأسنته اللهدمية فاستخدم له ومد إليه يد التأميل من وراء البحر ، وأوفد عليه ابنه من بلاد لنكلطير صريمحاً وضارِعاً فنزل باسنى قاعدة البحر ، وبلغ إلى أمير المؤمنين على مكناسة من طريقه لفاس خبر وصوله غرة ربيع النبوى [فأبح ربيع الأول عام ٥٩٩٧ هـ . الموافق منتصف يناير سنة ١٥٨٩] فسرح إلى ابنه المولى الأمير أبى فارس بالحضرة يأمره بإرسال كبير الموالى المملوجى ببابه القائد محمود لصحابه فوصل به وأنزل بهسريج المنارة من بسانيين الخلافة بساحة الحضرة ، وأقيم له هنالك من رسوم الكرامة ما يليق بعظمة القوم أمثاله » (الناهل ص ١١٣) .

٥ — للمولى أحمد المنصور وموقفه من الحروب الأسبانية — الانجليزية .

« كان أشدهم تكالباً عليه وأكثرهم جرأة على الاجلاب على ممالكه والنضيق عليه والأخذ بمخنقه إيزيل سلطنة ممالك بلاد نكلطيرة لإغراء مولانا أمير المؤمنين بإها عنأواته وهخذ عزأعها على عداوته ومظاهرتها على مغالبتها بما أمدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار وإطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفية

وإمدادها بالمداد التي أعوزتها ببلادها فناصرها أيده الله في وجه عدو الدين وقبض له منها أيده الله بمقتضى حزمه ، وواسع تدبيره ، وشده احتياطه شاغلاً يشغله تفرغاً واستجهاً إلى ما كان أيده الله بحرف إليه وجه عزائم الماضية من تجهيز العساكر إلى بلاد السودان التي فتحها ، ومملك أرضها فتم له أيده الله في ذلك تدبيره وكل في نكابة عدو الدين مراده وقصده واعتزت صاحبة بلاد نكلطير بمظاهرتة وطاوعته على ما أغراها به وتوكلت على منساة الإسناد إلى على جنابه والاعتضاد بعظيم سلطانه والاستمداد من شريف إيلاته وضخامة ممالكه وقاومت بذلك الطاغية على ضيق خطتها فشمرت لمشاقتة ومضايقتة فنازلت أولاً بمساكرها الأشبونة قاعدة بلاد برتقال من ممالكه » (المناهل ص ١٣٥) .

٦ - تطور الصراع الإنجليزي - الأساني بعد الأرمادا :

« فازدادت بذلك جراءة عليه وبالغت في الاحتفال له فلأبت عليه البحر أساطيلها وجرت عليه هزائم وأتيح لها عايبه الظهور ، وأغلت في مضايقتة حتى هجمت أساطيلها على أسطوله بمرسى قالس من سواحله فنالت منه سبباً ، وتغريقاً وملسكت عليه البحر أجمع فيكادت أساطيلها تقطع عنه منافع الهند ، ومجايبة ، وعطلت على بلاده مرافق البحر والتاجر وضاق منها مخنقه إلى اليوم » (المناهل . ص ١٣٥) .

٧ - فيليب الثاني ملك الأسبان والحروب الدينية بفرنسا :

« ذلك أن ملك الأفرنج كان في القديم من أضخم الدول وأفخم الممالك ، وأوسع الأيلات خطبة وأعمالاً ثم رجع القهقرى شيئاً فشيئاً حتى ضاق نطاقه ، وتوزعت ممالكه فغلب على بعضها طاغية قشتالة عند ركود ربح الدولة الأفرنجية ، وتقاصر قدرتها بالضعف العارض للدول عند هرمها ، ووافق ذلك ما كان من تحويل جمهور أهل تلك الممالك إلى الدين الحادث في الأمم النصرانية المعروف بلا تريان فكان ذلك أعون على خذلان ملك الإفرنج لإطباق رعاياه على الانتقال لهذا الدين فصمم هو على دينه الأول ، وكرام رعاياه يسوقهم ببعض القفر إلى دينه فاستمضى عليه شأنهم فتجافى عنهم وتوكلهم وودينهم مدياجة وهوادة وليس له مع ذلك وارث يرث مملكته ذكراً والبنات لا يرثن الملك في دينهم كما يرثن عند غيرهم من

النصارى فلم يكن أقرب إليه وأحق بأرثه من ابن عم له سلطان أهل نباره الوارث للملكهم من طريق الخوالة ، وكانوا على دين لاتريان فطمع لذلك طاغية قشتالة في ملك الإفرنج لانتفاع وارثه وتحول دين أهله فاعتمل في التضريب بين سلطانهم وقومه وأغرى بعض أهل باريس قاعده ملكهم بالفتك به فاستحكمت النفرة بينهم وبين سلطانهم وتوجس في نفسه خيفة من ذلك فانتقل عن باريس إلى روان إحدى ممالكه ووصل يده بيد ابن عمه صاحب نباره ثم عاود باريس منازلها لفاقدس إليه أولياء طاغية قشتالة من أهلها بالعدو على يد قسيس فطمنه ثم غالية السلطان المطعون على سلاحه فقتله به في الحين ثم هلك هو من طمئنته فصار بسبب ذلك لصاحب قشتالة من مملكة أفرانصة برطانية ويرجوم والبعض من نباره ، وصارت باريس بمد خروج صاحب أفرانصة عنها ليحببه ومعناها جماعة تدير الأمر وصاحب قشتالة مهمهم في تلك الليجة كأحد تلك الجماعة ، وكان يعدم يجيشه الذى بأفلائس ثم ملك صاحب نبارة ابن عم السلطان المالك باريس ، واتصل أهل أفرانصة ، وانضم بعض ققويت شوكتهم واستفحل أمرهم ، وتمازمت صولتهم فسمت مهمهم إلى استرجاع ممالكهم ومماودة سلطانهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة على ما يليهم من ممالكه فصمدت عساكرهم إلى باريس فنازلوها وأجلبوا على أعماله وممالكه وزاحموه بالمناكب ولاحت لهم بوارق الظهور عليه فتهاكوا لهذا المهدي مضايقتهم ووقفوا له بمدارج النفس فضاقت منهم مخنقة وتكالبوا عليه مع صاحب بلاد نكلطيرة كل من جهته» (الناهل ص ١٣٦) .

٨ - ثورة الأراضى المنخفضة ضد الأسبان :

« ثم عزروا بثالث الأثافي من أهل فلنضس ، وهم أهل مملكة الطاغية القديمة التي منها أصله وقد انتصوا عليه وصاروا عليه إلباً مع الإفرنج وأهل بلاد نكلطيرة فأضرموا عليه جهات ممالكه ناراً وفتنة وصلى بنار حروبهم برآ وبحراً فظهروا عليه ظهوراً أطمعتهم في انتشار سلكه ومقاسمة ملكه» (الناهل . ص ١٣٦) .

٩ - احتلال الأنكيز لمدينة قادن وأهمية ذلك سياسياً واقتصادياً :

« وفى هذا التاريخ (يقصد الفسئالى سنة ١٥٩٦) صمد إليه أسطول سلطنة بلاد نكلطيرة فى مائتى مركب ونيف مشحونة بجيوش وافرة وعساكر النار على احتفال

عظيم يقدمها دون كشتوبان الذي كان أوفده على أمير المؤمنين والده دون أنطون سلطان بزقال النازع إلى بلاد نكلطيرة عند تغلب طاغية قشتالة على الاشبونة حسبما قدمنا وطارت لنوى زحفها طيارات الطاغية وتساعدت من الذعر إلى أوكارها مشرقة ومغربة حذاراً من انقراض النح الكواسر عليها من مراكب أهل نكلطيرة المائلة لمظمها وجفائها على شبح الموج كالماعل الحصينة فأجابت على مدينة قادس من مدن سواحل قشتالة ، وهي الباب الأعظم إلى ممالك الطاغية ومتون النظائر الثقيلة من بلاده ، ومحط رجال الأموال الطائلة من أرضه ومرسى أسطوله وفرضه المجاز إلى ممالكة والعقيلة المائلة على كرسها من بحر الزقاق آنفه وعزة وتحصيناً فانتضى عذرتها أسطول الانكليز ، واستباحوا حماها وكانت أغربة الطاغية الأنداسية وأسطوله () مسفر الهند جأعة عليها ومحامية دونها فأوجف عليها أسطول الانكليز ولم يكن لها من قبل مدافمة فأوقع بها ، وكانت فيما زعموا خمس مراكب للطاغية مشحونة بالأموال يقال فيها من السلع النافعة بأرض الهند النامية الأرباح يساوي المئين من الآلاف فأتيج للانكليز الاستيلاء عليها والظفر بها واكتسعوا الأساطيل ثم أضرمو أعوادها ناراً فأتى عليها التدمير تغريقاً وتحريقاً ثم اقتحموا المدينة عنوة واستولوا عليها بالسيف غلباً وقهراً فاستباحوها وأطلقوا أيدي الميث فيها فحصلوا من أموالها الطائلة وذخائرها المستبجرة وتجاثرها الثقيلة على ما لا يضبطه قلم حاسب ولاذ التجار من أهلها وأكابرها وحاميتها بقصبتها () العساكر ونصبوا عليها مدافع النار وشاهدوا الموت الأحمر فألقوا باليد واستامنوا وطلبوا الإبقاء على مال بداره فداء يقال إنه مائة وأربعمون ألف دقة ، ويقال مائتان ، وبعثوا إلى قومهم بأشيلية فأعطوها عن يد فأخرج عنهم عساكر الإنكليز فخرجوا متسايلين إلى أرضهم ناجين بأنفسهم من بين الناب والظفر ومغتمين الإبقاء عليهم واجتمعت على المدينة المساكر وسائر عمارة الأسطول وتهاكروا في تخريبها ، وأضرمو بيوتها ناراً فأصرعوها إلى الأرض وألصقوا مبانيها وقصورها بالرغام فأصبحت أطلالا دراسة كان تمنن بالأمسى ، وأقصوا عليها ستة عشر يوماً منادين هل من مبارز فأعظام الطاغية الأذن السماء وقد عظمت فيه النكاية وحلت به المنصية وقد تصاعد أسطول الانكليز لهذا المهمد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للميث في سواحل الطاغية وتدمير أرضه والإجلاب على ممالكة والتضييق عليه والمبالغة

في نسكايته وهو متطاحن لصولتهم ومستكين لا يئس له عرق بحركة ولا يحتلج
منه خافية ولا قادمة لهوض ولا مدافمة وألبسته هذه المرة الثنماء للذل والصغار
وجلته الهوان عند الملوك أضداده فأطعمتهم يبه وفغروا أفواههم من كل جانب
إلى التهامه مكن الله منه بنياته وعزته حزب الإسلام وجعل ملكه نهبه سيوف
مولانا الإمام « (المناهل . ص ٤٣٧) .

* * *

مصادر البحث :

- ١ - مناهل الصفا . عبد العزيز الفشتالي . مخطوط بخزانة القصر الملكي
بالرباط رقم ٢٧٤ .
- ٢ - عصر المولى أحمد المنصور الذهبي . أطروحة الدكتوراه للدكتور
عبد الكريم كريم .

obeikandi.com

أتباع سان سيمون ونشاطهم في مصر

(١٨٣٣ - ١٨٣٦)

د. محمود صالح منسى

سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) :

ينتسب السان سيمونيون إلى المكونت «هنرى دى سان سيمون Claude Henri de Rouvroy de Saint Simon» صاحب المذهب الاشتراكي الذى نشأ في فرنسا خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر ؛ فقد كان دائم التفكير في أحسن الوسائل للمفوض بالإنسان والمجتمع الإنساني كله ، وصار يرى أن هذا الأمر لا يتحقق إلا بوسيلتين هما العلم والصناعة . ولذلك وثق « سان سيمون » صلته بكثير من أسانذة وخريجي مدرسة الهندسة العليا Ecole Polytechnique ، ورغم قلة ما لديه من مال فقد استطاع - بمعونة بعض أصدقائه - أن يصدر بعض المطبوعات مثل صحيفة « الصناعة L'Industrie » وصحيفة « السياسة La Politique » وكتاب « المنظم L'Organisateur » وكان آخر ما كتبه هو (المسيحية الجديدة Le Nouveau Christianisme الذى ظهر في ابريل من عام ١٨٢٥ وفيه أوجز « سان سيمون » الرسالة التي يجب أن يضطلع بها القرن التاسع عشر ألا وهي تحسين أحوال الطبقة العاملة أكثر الطبقات عدداً وأشدّها بؤساً .

ويعتبر « سان سيمون » مؤسس الاشتراكية الفرنسية ، فقد آمن بالمبادئ الاشتراكية وعمل على نشرها ، ولما كان يعتقد أن تقدم العالم مرهون بأمرين اثنين هما العلم والصناعة فقد دعا إلى قيام دولة صناعية على أن يديرها العلماء لا الطبقات الأرستقراطية أو العسكرية ، وعلى أن تستهدف هذه الدولة إنتاج الأشياء المفيدة للحياة باستغلال قوى الطبيعة استغلالاً علمياً منظماً يقوم على التعاون بين الأفراد . كما كان « سان سيمون » يرى وجوب امتلاك المجتمع لأدوات الإنتاج حتى يتحرر العامل من الفاقة والبؤس ومن الشروط المحجفة التي كان يفرضها عليه أصحاب العمل ، وتضطره ظروفه القاسية من الجوع والحرمان إلى قبولها ، وبذلك لا يتحتم

أصحاب العمل في المال ، ويصبح العمل متوفراً لكل قادر عليه ويعطى كل فرد حسب إنتاجه .

وإلى جانب ذلك كان (سان سيمون) يتمنى أن يرى المجتمع الأوروبي وقد ألقى السلاح ونبذ الحروب وجنح إلى السلام ، ووسيلة ذلك — في رأيه — العمل على الحد من التعصب الوطني وإيجاد نوع من الاتحاد بين شعوب أوروبا ، مع احتفاظ كل منها باستقلاله القومي وحكومته المحلية ، على أن تقوم أنظمة للحكم متشابهة في مختلف الأقطار الأوروبية من شأنها أن تساعد على التقارب بينها ، وإلى جانب هذه الأنظمة المحلية تقوم حكومة عالية وبرنامج أعظم لتنفيذ المشروعات العامة التي تعود بالنفع على المجتمع الأوروبي كله .

ومن الأسس الهامة التي قام عليها مذهب (سان سيمون) ، دعوته إلى الجمهورية كنظام للحكم في المجتمع الصناعي الذي نادى بقيامه ، فقد كان يرى أن الجمهورية أفضل النظم لأنه في ظلها تتوفر الحياة الحرة الكريمة لكل مواطن دون استغلال .

وبعد وفاة (سان سيمون) في ١٩ مايو ١٨٢٥ خلفه في زعامة أتباعه الأب (بروسير انفاتان Prosper Enfantin) واستمر نشاط الجماعة وازداد عدد أعضائها وانضم إليها كثيرون من خريجي مدرسة الهندسة العليا الذين كانوا يعتبرون من أقدر الناس على تحقيق أفكار سان سيمونيين وتنفيذ مشروعاتهم ، حتى لقد كان (انفاتان) يعتبر أن مدرسة الهندسة العليا هذه هي المصدر الذي تشيع منه أفكارهم في المجتمع ، وأن العلم الذي رشفه أعضاء الجماعة في هذا المعهد الأثير هو الذي سيغذي الأجيال التالية^(١) .

ولم تلبث الحكومة في فرنسا أن رأت في وجود جماعة سان سيمونيين خطراً يهدد الأمن العام ونظام الحكم القائم ، واتهمتهم بأنهم في أحاديثهم يحضون الناس على الثورة ، ولذلك فسرعان ما عمدت إلى حل الجماعة وأودع زعمائهم سجن (سان بلاجي St. Pelagie) منذ ديسمبر ١٨٣٢ حتى أغسطس ١٨٣٣ عند ما اعتزموا الرحيل إلى مصر .

السان سيمونيون ومشروع القناة :

لقد كان مجيء سان سيمونيين إلى مصر عام ١٨٣٣ يهدف أولاً وقبل كل شيء

إلى تنفيذ مشروع القناة بين البحرين المتوسط والأحمر ، وقد راودت هذه الفكرة (سان سيمون) مثلما راودته فكرة شق قنوات أخرى مثل قناة (انبارتيدو) في المكسيك بين المحيطين الأطلنطي والهادى ، والقناة بين مدريد والبحر المتوسط ، والقناة بين الدانوب والراين ، والقناة بين الراين وبحر البلطيق ، إلا أنه عندما مات (سان سيمون) عام ١٨٢٥ لم يكن قد تجاوز مرحلة التفكير في مشروع القناة بين البحرين المتوسط والأحمر ، فترك الفكرة لأتباعه يتعهدونها ، فأخذ حليفته (انفانتان) يعمل من أجل شق هذه القناة التي اعتبرها — هي وقناة بناما — ذات أهمية قصوى في سبيل تقدم التجارة وما سوف يترتب على ذلك من ازدهار الحضارة وربط خموص العالم بعضها ببعض ، ورغم أن الحكومة الفرنسية حلت الجماعة وسجنت زعماءها فلم يفتأ هؤلاء في سجنهم يفكرون في المشروع ، حتى أصبحت أفكار الأب (انفانتان) وخططه — عندما أطلق سراحه في أغسطس ١٨٣٣ تدور حول الرحيل الى مصر وشق قناة في برزخ السويس ، فأعرب انفانتان في إحدى رسائله بتاريخ ١٨ أغسطس ١٨٣٣ إلى زميله (بارو Barrault) عن اعتقاده بأنه « يقع على عاتقنا أن نشق بين مصر وبلاد اليهود القديمة (يقصد فلسطين) طريقاً من الطرق الجديدة التي تصل أوروبا بالهند والصين ، وسوف نشق بعدئذ طريقاً آخر في بناها ، وبذلك نضع أحد أقدامنا في بلاد النيل والآخر في بيت المقدس ، في حين يمتد ذراعنا الأيمن على مكة ويصل ذراعنا الأيسر إلى روما . ويظل مرتكزاً على باريس ، إن السويس هي مركز حياتنا العملية ، وفيها سوف ننفذ العمل الذي ينتظره العالم منا لكي نثبت قوتنا وشدة بأسنا » (١) .

وتحدث (انفانتان) مرة أخرى عن واجب إحياء مشروع توصيل البحرين المتوسط والأحمر فكتب في ٢٨ أغسطس ١٨٢٣ إلى (اردوان M. Ardoin) — أحد الذين يهتمون بنشاط سان سيمونيين ويعولون صحفهم — مؤكداً أن قيام سان سيمونيين بتوصيل البحرين يعتبر عملاً عظيماً ، وأن الإسهام في هذا العمل يجب أن يصدر عن شعور قوى بفيض الحماس والإخلاص « لأن المجد سوف يكون جزءاً أولئك الجنود السالمين الذين سوف يضطلعون بتنفيذه » (٢) .

Lettre d'Enfantin à Barrault, citée dans : Oeuvres de St. (١)
Simon et d'Enfantin, T. IX, pp. 56, 7; D'Allemagne, p. 357.

Lettre d'Enfantin à M. Ardoin en 28 août 1833 (Arsenal 7647, (٢)
fo. 490) citée dans : Oeuvres ... T. IX, p. 64; D'Allemagne, p. 359.

ولقد عبر زعماء السان سيمونيين الآخرون مثل دوفور Arles Dufour و (فورنل Fournel) عن نفس الآراء .

ويرجع اهتمام السان سيمونيين بمشروع القناة ومحاولة تنفيذه وتمسكهم به قرابة قرن من الزمان ، أنه كان شديد الصلة بالبادئ التي آمنوا وبشروا بها من عهد زعيمهم الأول (سان سيمون) ولأن المشروع كان يحقق كثيراً من الأهداف التي يسعون إلى تحقيقها ، فقد أعلن الأب (انفاتان) أن المشروع يعتبر أولى ثمرات سياستهم الاقتصادية^(١) ، إذ كان التصنيع أساس فلسفة (سان سيمون) الاجتماعية باعتبار أن المجتمع الصناعي هو أفدر المجتمعات على إسماعد المواطنين ، ولكي يستمر النشاط الصناعي كان لا بد من قيام حركة واسعة للتبادل التجاري بين الشرق والغرب من أجل الحصول على المواد الأولية وتصريف منتجات المصانع ، وكان شق القنوات المائية في مقدمة أنواع المواصلات التي تسهل التبادل التجاري .

وإلى جانب ذلك كان السان سيمونيون يرون أن النزعة القومية سوف تخفى لتحل محلها فكرة الإنسانية العالمية والوحدة المشتركة إذا ماتم ربط جهات العالم بوسائل المواصلات المختلفة ومنها القنوات المائية والسكك الحديدية . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان من الطبيعي أن تنسب أفكار السان سيمونيين الاشتراكية والجمهورية في إثارة سخط الحكومة في فرنسا وأن تنظر بدم الارتياح إلى مساعيهم لنشر هذه الأفكار وكسب الأعوان ، لما في ذلك من خطر على الملكية وعلى الطبقة المتمسكة في فرنسا في عهد (لويس فيليب) وهي الطبقة المتوسطة ، حتى لقد اعتبرت الحكومة الفرنسية أحاديثهم ومقالاتهم إنعاهى وسائل لحض الناس على الثورة ضد السلطات القائمة . ومما زاد في كراهية السان سيمونيين أنهم كانوا يتطلعون إلى تولي الحكم في فرنسا واعتقدوا أن الواجب يقتضى الملك (لويس فيليب) أن يتخلى لهم عن مكانه لأنهم أكثر منه مقدرة وكفاءة على تسلم أمانة الحكم . وقد كتب (ميشيل شيفالييه M. Chevalier) وهو في السجن يتنبأ بأنهم سيصلون إلى مقاعد الحكم خلال أربع سنوات . ولم يكن (شيفالييه) يرى ضرورياً أن يرأس الأب (انفاتان) حكومة جمهورية في فرنسا أو يتولى الوزارة فيها فرد بذاته

من قادة السان سيمونيين ، بل كان مقصده أن يتولى الحكم في فرنسا أناس يؤمنون
وحسب بالمبادئ السان سيمونية (١) .

لهذه الأسباب جميعاً لم تعد الحكومة الفرنسية راضية عن هذه الجماعة ، وإنما
اعتبرتهم عنصراً من عناصر الفتنة والاضطراب وأنهم يتخذون من العمل على تحسين
أحوال الفقراء ستاراً يخفون وراءه نواياهم الحقيقية ، ولذلك أخذت في مطاردتهم
ولم تلبث أن قدمت — في أغسطس ١٨٣٣ — زعماءهم وخصوصاً الأب (انفانتان)
(ميشيل شيفالييه) إلى المحاكمة بتهمة القيام بأعمال مضرة بالنظام الاجتماعي
القائم ، وصدر الحكم في ٣٠ أغسطس من نفس العام بالسجن عاماً على زعمائهم كما
نص الحكم على حل الجماعة ومصادرة مطبوعاتها .

وشعر السان سيمونيون بشدة وطأة الحياة التي صاروا يجيئونها في فرنسا بسبب
الاضطهاد الذي لاحقتهم به السلطات الفرنسية الأمر الذي جعل (بقى Petit)
يجتهد رحيل الأب (انفانتان) ليقضى فترة من الوقت بعيداً عن فرنسا حتى يهدئ
لنفسه سبيل العودة « فلا يمود خائفاً مكروها مهيناً كما كان ، ولكن ليعود وقد
اكتسب محبة الناس وصار هؤلاء يرغبون في عودته . . . » وذلك بقيامه بعمل
مجيد خارج فرنسا يفضي عليه الشهرة (٢) ، ويؤدي إلى رد اعتباره (٣) .

وهكذا نرى أن السان سيمونيين عندما أحسوا بأن حكومة فرنسا قد صارت
غير راضية عنهم أخذوا يتحدثون عن مشروع يشغلون به جهود الجماعة ، يكون
ميدانه خارج فرنسا ذاتها ، ومن شأنه العودة بالنفع على فرنسا وتقوية مركزها
وذلك حتى يكسبوا رضا الحكومة الفرنسية ، ذلك الرضا الذي افتقدوه بسبب
أعمالهم وآرائهم التي رأت فيها خطورة على الحكم القائم في فرنسا آنذاك .

واقدم كان بسبب هذه الرغبة إذاً أن قرأى السان سيمونيين على الرحيل

Lettre de M. Chevalier à Algae St. Hilaire, sans date, Arsenal (١)
7706 : D'Allemagne, p. 316.

Lettre d'Alexis Petit à M. Lemonnier en août 1833, Arsenal (٢)
7771 : D'Allemagne, p. 357.

Aisenal 7704, D'Allemagne, p. 360. (٣)
Lettre de M. Chevalier à Arlés Dufour en 28 août 1833,

إلى مصر ، التي أرادوا أن تقوم بها « خارج فرنسا » أكبر مشاريعهم الإنشائية إطلافاً ، فيقوى بفضلها مركز فرنسا ، أما المشروع الذي أرادوا تنفيذه ، فكان حفر قناة تربط — بطريقة ما — بين البحرين المتوسط والأحمر ، ذلك المشروع الذي كانت فرنسا توليه أهمية خاصة ، وبذلك ترتفع مكانة السان سيمونيين في نظر حكومتهم ويثبت لها نفهمم كجماعة تعمل لصالح الأمة الفرنسية .

أما الحكومة الفرنسية فقد كانت من ناحيتها ترحب برحيل السان سيمونيين ، حتى لقد صار المسئولون الفرنسيون يشجعون أصحاب السفن التجارية على نقل السان سيمونيين إلى الشرق على أن يقوم المسئولون بسداد نفقات الرحلة إذا عجز السان سيمونيين عن سدادها .

وقد لفت نظر السان سيمونيين موقع مصر ، فهي كما يقول الأب (انفانتان) أهم أجزاء أفريقية ، يمر بها المسلمون من مختلف أنحاء القارة في طريقهم إلى الأماكن للقدسة ، كما أنها تقع في أكثر الجهات ملائمة لتسيير الحملات إلى مختلف الجهات ، ولدى أهلها استعداد لتذوق العلوم والمعارف ، وبذلك يمكن القيام في هذه البلاد بمشروعات منوعة تعود عليها وعلى العالم كله بالفائدة كمشروع حفر قناة تصل بين أوروبا والهند فتستفيد مصر عندما تصبح ممراً لتجارة العالم كله ، وتستفيد أوروبا نتيجة اقترابها من أسواق الشرق (١) .

وكان مما شجع السان سيمونيين على اتخاذ مصر مسرحاً لنشاطهم من جهة وميداناً لمد نفوذ فرنسا من جهة أخرى ، أنه كان يوجد في هذه البلاد عدد غير قليل من الأوروبيين ، ومن الفرنسيين خصوصاً ، على رأس كثير من المؤسسات التعليمية والصناعية والعسكرية ، واعتقد السان سيمونيون أنه بمعونته هؤلاء ، وكذلك بمعونته الشبان المصريين الذين كانت توفدهم مصر لتلقى العلم في فرنسا ، يستطيعون تنفيذ هذه المشروعات .

ومن ثم فقد كانت الفكرة التي سيطرت على ذهن الأب (انفانتان) وأعووانه هي غزو مصر اقتصادياً واجتماعياً وليس جرياً سياسياً ، وذلك عن طريق الإسهام

Lettre d'Enfantin à Barrault en 8 août 1833 : Oeuvres de St. (١)
Simon et d'Enfantin T. IX pp. 56-7 ; D'Allemagne, p. 357.

في المشروعات التي يتسنى بفضلها إعطاء فرنسا مركزاً ممتازاً في مصر ، وقد بلغ من إيمان السان سيمونيين بضرورة بسط نفوذ فرنسا في مصر أنهم صاروا يدعون الحكومة الفرنسية إلى تأييد دعاوى الدول الأوروبية الأخرى وخاصة روسيا وإنجلترا في أملاك الدولة العثمانية الأخرى حتى لا تلتقي فرنسا معارضة من جانب هاتين الدولتين خصوصاً قد تحول دون بسط النفوذ الفرنسي في مصر ، فقد اعتقد الأب (انفانتان) أن قمة ضرورة ملحة فرضتها « السماء » حتى يشهد القرن التاسع عشر آثارها ألا وهي استعمار الغرب للشرق « لأن الله يدعو روسيا صوب الأناضول وفرنسا صوب مصر ، وإنجلترا صوب أرض الفرات من أجل إدخال المدينة الأوربية إلى هذه البلاد المتخلفة ونشر ألوية الحضارة بين ربوعها وذلك بالقيام بحملات صليبية سلمية لنشر الحضارة المسيحية ودعم أركانها »^(١) وهذا (لامبير Lambert أحد الذين اشتركوا في رحلة السان سيمونيين إلى مصر يكتب إلى انفانتان في ١٧ ديسمبر ١٨٣٣ بأن فرنسا كانت قد بدأت حملة مسيحية صليبية جديدة على عهد الجمهورية عام ١٧٩٨ - ويقصد حملة بونابرت على مصر - وأن ذهاب السان سيمونيين الآن (١٨٣٣) إنما معناه تجديد هذه الحملة لبلوغ الغاية ذاتها .

وهكذا نرى كتابات السان سيمونيين أنفسهم تدحض ما ذهب إليه البعض من أن مشروع رحلة السان سيمونيين إلى مصر لتوصل البحرين قد صدر عن رغبات نبيلة وأفكار وآراء سامية .

الاعداد لتنفيذ المشروع :

وإذ حدد السان سيمونيون هدفهم من الرحيل إلى مصر حتى شرعوا في الاستعداد لتنفيذ المشروع ، وكانت استعداداتهم فنية هندسية من ناحية وسياسية من ناحية أخرى ، وقد اضطلع بالجانب الفني المهندس (فورنيل Fournel) الذي أخذ في دراسة المشروعات السابقة لتوصيل البحرين وبخاصة الأعمال التي قام بها في برزخ

Lettre d'Enfantin à Arlès Dufour en 13 Janvier 1836, (١)
Arsenal 7615, fo. 400 : Oeuvres de St. Simon. T. XI p. 9; D'Allemagne, p. 328.

السويس المهندس لوير Lepère على عهد الحملة الفرنسية ، كما نشط السان سيمونيون في ضم عدد من المهندسين من خريجي مدرسة الهندسة العليا بمختلف أقسامها .

كما مهد (أنفانتان) لرحيله إلى مصر بإيفاد مجموعات متتابعة من أعوانه لإعداد العدة لاستقباله هو ومرافقيه ، وكانت أولى هذه المجموعات تلك التي وصلت إلى الإسكندرية آخر أبريل ١٨٣٣ ، وبمجرد وصولها شرعت في الدعاية لمبادئ الجماعة ، وفي ٢٠ مايو من نفس العام وصلت مجموعة ثانية على رأسها (بارو Barrault) عن طريق الآستانة التي لم يستطيعوا البقاء فيها لعدم رضا الحكومة العثمانية عن مبادئهم حتى أبعدهم عن البلاد^(١) ، فحاءوا إلى مصر وبدأوا بخلق ملائمتهم الغربية وحلق ذقونهم حتى لا يبدو منظرهم غريباً فتساء معاملتهم كما حدث لهم في الآستانة .

وهكذا تجمع في مصر من السان سيمونيين نحو عشرين شخصاً قبل وصول الأب (أنفانتان) ومن معه من فرنسا ، وقد قام (بارو) ومن معه — قبل وصول أنفانتان — ببعض الدراسات الفنية في منطقة برزخ السويس .

أما النشاط السياسي للسان سيمونيين فيتجلى في محاولة جس نبض الحكومة العثمانية وكذلك حكومة إنجلترا لمعرفة إلى أي حد يمكن أن تؤيد كل منهما المشروع أو تعارضه ، ولقد كتب (فورنل) إلى أحد المتصلين بجماعة السان سيمونيين وهو دكتور (بابلي Bailly) يطلب منه أن يتعرف على وجهة نظر إنجلترا إزاء مشروع توصيل البحرين وذلك عن طريق ممثليها في الآستانة .

ولم يكن رد دكتور (بابلي) مشجعاً ، لأنه - كما ورد في خطابه إلى (فورنل) في أغسطس ١٨٣٣^(٢) - خرج من اتصالاته في الآستانة بنتائج مفادها أن إنجلترا تخشى أن يترتب على تنفيذ مشروع القناة ازدياد نفوذ (محمد علي) في مصر بحيث يتفوق على غيره من الحكام الآخرين الذين يتولون الحكم في الأقطار العديدة التي تتكون منها الدولة العثمانية ، كما كانت إنجلترا ترى أنه من الواجب عليها إبقاء الهند

(١) Lettre de Cognat au Père Enfantin en 9 mai 1833, Arsenal 7708 ; Lettre de Barrault à Enfantin en 9 mai 1833, Arsenal 7646 fo. 128, D'Allemagne 375.

(٢) Lettre de Dr. Bailly à Fournel en Août 1833, Arsenal 7647 fo. 186, D'Allemagne pp. 358-9.

بنأى عن دائرة نشاط فرنسا والنمسا ، وأنه إذا صارت بحار الهند — بعد شق قناة بين البحرين المتوسط والأحمر — في متناول الأساطيل الفرنسية والنمسية فإن مركز إنجلترا في الهند سوف يكون حرجاً ، ومن ثم فإن إنجلترا — كما يقول (بايلي) — لا توافق على المشروع ، وإنه إذا كان الإنجليز يبحثون في استخدام طريق الفرات والخليج الفارسي للوصول إلى الهند ، فذلك من أجل البريد لا من أجل التجارة التي يقنعون بنقلها عن طريق الرأس .

السان سيمونيون وفكرة الحياد :

وإلى جانب ذلك بحث السان سيمونيون وسيلة تنفيذ المشروع وتمويله ، وتوصلوا إلى أنه من الأفضل أن يكون التنفيذ جماعياً فدعوا إلى مساهمة الدول حتى لا تحاول واحدة منها — وعلى الأخص إنجلترا — الحصول على امتيازات خاصة ، ومن أجل ذلك أعربوا عن أملهم في أن ينعقد (مؤتمر أوروبي) من ملوك الدول الأوروبية لبحث تنفيذ المشروع (١) .

وقد بلغ من إيمان السان سيمونيين بفكرة (تدويل) مشروع القناة أنهم فكروا في فصل منطقة برزخ السويس عن مصر وادعى (أنفانتان) أنه لا يوجد ثمة ارتباط بين البرزخ ومصر مادامت الصحراء تفصلهما عن بعضهما .

الرحلة :

وفي ٢٩ أغسطس ١٨٣٣ غادر الأب (أنفانتان) باريس مع بعض رفاقه إلى ليون ، ومنها إلى مرسيليا انتظاراً لسفينة تقلهم إلى مصر .

وفي أثناء وجوده في مرسيليا أوفد (أنفانتان) زميله (دوجويه Duguet) إلى مصر لإعداد العدة لاستقبالهم ، وقد زوده (فورنيل) ببعض التعليقات من أهمها الإلمام ببعض المشروعات العلمية والصناعية التي كانت تشمل بال (محمد علي) وذلك تمهيداً للمشاركة فيها حتى تثبت أقدامهم في البلاد . وأخيراً غادر (أنفانتان) ميناء مرسيليا في صباح الثالث والعشرين من سبتمبر ١٨٣٣ على ظهر السفينة (ولي العهد

Prince Hereditaire ، وبعد شهر كامل رست الباخرة به في ميناء الإسكندرية في الثالث والعشرين من أكتوبر ١٨٣٣ ، ومعه ذلك النفر من أتباعه المتخصصين في الهندسة والزراعة والطب والتعليم والفنون ، أولئك الذين عزم (أنفانتان) أن يكون منهم جالية صغيرة يعمل على زيادتها بالتدرج طبقاً للحاجة إلى خدماتهم ، وإذا ما رأى أن هذا الفوج الأول قد أظهر كثيراً من الكفاءة وحقق كثيراً من الفائدة (١) .

ولم يكن (أنفانتان) مطمئناً لترحيب (محمد علي) بهم بعد طردهم من فرنسا ومن الدولة العثمانية وانعزاع مبادئهم ، ولذلك بدأ السان سيمونيون بمحاولة توطيد علاقاتهم بأفراد الجالية الفرنسية في البلاد وفي مقدمتهم (ميمو Mimaut) القنصل و (فردينان دى لسبس) نائبه وقد استطاع الأخير إقناع (محمد علي) بتركهم يقيمون في مصر ووعده بأن يستخدم سلطاته القنصلية في ترحيلهم عنها إذا ما سببوا اضطراباً للأمن العام (٢) .

وعند ما فاتح السان سيمونيون القنصل الفرنسي بشأن مشروعهم لشق قناة بين البحرين نصعهم بعدم مفاخرة (محمد علي) إلا بعد إعداد مذكرة مدروسة دراسة وافية على أن يهدوا لمشروعهم بالدخول أولاً في خدمة الباشا حتى يستكملوا دراسة المشروع ويحوزوا ثقة الباشا فيسهل عليهم بعد ذلك الحصول على موافقته على المشروع .

دراسات السان سيمونيين التمهيدية لمشروع القناة :

وقبل وصول (أنفانتان) إلى مصر قام بعض أتباعه من سبقوه وهم (الريبك Alric) و (كولان Colin) بدراسة منطقة السويس في بداية أكتوبر ١٨٣٢ وفي ١٦ نوفمبر ١٨٣٢ بعث (أنفانتان) بنفر آخر لدراسة منطقة البرزخ تمهيداً للرحلة التي كان يزمع هو القيام بها بنفسه .

وفي ٢٠ يناير ١٨٣٣ قام (أنفانتان) بالرحلة إلى منطقة البرزخ ومعه عدد

Lettre d'Enfantin à Coïonel Brack : Oeuvres de St. Simon (١)
et d'Enfantin, T. IX, p. 140.

Bridier, L. : Une Famille Française -- Les De Lesseps, p. 330. (٢)

من أتباعه المهندسين ، فطافوا بفرع دمياط وزاروا المنصورة وزفتى ثم اتجهوا بعد ذلك إلى قلب البرزخ وساروا بماذاة بقايا القناة القديمة حتى وصلوا إلى البحيرات المرة . وقامت بعثة السان سيمونيين خلال هذه الرحلة ببعض الأعمال الفنية الهندسية المتصلة بالمشروع فأجروا بعض المفايس ووضعوا الخطوط الرئيسية لمشروع قناة .

وبينا كان (أنفانتان) وبعض أتباعه يقومون بهذه الدراسات في برزخ السويس ، كان (فورنل) في القاهرة لإقناع (محمد على) بالمشروع ، وبفضل تزكية القنصل الفرنسي استقبل (محمد على) (فورنل) في الساعة التاسعة من مساء اليوم الثالث عشر من يناير ١٨٣٤ وفي خلال الحديث ذكر (محمد على) أنه يبحث تنفيذ مشروع خط حديدي بين القاهرة والسويس وأنه لذلك طلب أحد المهندسين المختصين من إنجلترا ، وسأل الباشا (فورنل) عن الوقت الذي يستغرقه إعداد نموذج لمشروع الخط الحديدي فتهمد (فورنل) بإنجازه خلال أربع وعشرين ساعة . وفي مساء الخامس عشر من يناير مثل (فورنل) مرة أخرى أمام (محمد على) وقدم له النموذج الذي أعجب به الباشا ومع ذلك لم يعهد إليه بتنفيذ مشروع الخط الحديدي ، وكان (فورنل) يعنى نفسه بذلك ، إذ كان (محمد على) قد طلب مهندساً إنجليزياً لهذه المهمة . ورغم هذه الصدمة فإن مهمة (فورنل) لم تضعف وحماسه لم تفت ، فما زال أمامه المشروع الأكبر — مشروع توصيل البحرين — الذي من أجله حضروا إلى مصر .

وفي خلال الأحاديث التي جرت بين (محمد على) و (فورنل) في ١٣ و ١٥ يناير حاول (فورنل) إقناع الوالي بتنفيذ مشروع القناة على أساس أن القناة ستكون محايدة ، وذلك لكي يهدى من مخاوف (محمد على) من هذه الناحية^(١) . وقد قام (فورنل) بالاشتراك مع زميله (لامبير) بوضع مذكرة في ١٧ يناير ١٨٣٤ ألحا فيها على (محمد على) بضرورة البدء في مشروع القناة قبل أى مشروع آخر ، وترجمت هذه المذكرة إلى اللغة التركية ، وعهد إلى مسيو (ميمو) بتقديمها إلى الباشا فقدمها في ٢٤ يناير ١٨٣٤^(٢) .

Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin, T. IX pp 197-8. (١)

D'Allemagne : Ouv. cit., pp. 400-402. (٢)

ولسكن (محمد على) كان في ذلك الوقت يبحث عدة مشروعات لسلك منها أنصاره الذين يفضلون مشروعاتهم على غيره ، فهذا (لينان دى بلقون) يدعو لمشروع القناطر ، والسان سيمونيون يطالبون بالقناة ، أما إنجلترا فإنها عن طريق ممثلها (جالواى Galloway) كانت تحبذ إنشاء خط حديدى بين القاهرة والسويس ، وعندما عرضت هذه المشروعات على المجلس العالى فى جلساته التى عقدها أيام ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ يناير ١٨٣٤ تقرر تفضيل مشروع القناطر على غيره من المشروعات .

وقد كان هذا القرار صدمة أخرى (فورنل) ، ولما كان يعتقد أنه ليس من الممكن تنفيذ مشروع القناطر بنجاح لقلة الدراسات الجيولوجية والهيدروغرافية ، فقد عزم على مغادرة مصر والعودة إلى فرنسا . وعندما وصل هذا النبأ إلى أنفانتان وكان لا يزال فى رحلته الاستكشافية فى برزخ السويس — أسرع إلى القاهرة فى ١١ فبراير وحاول ثنى (فورنل) عن عزمه دون جدوى ، فقد صار (فورنل) يعتقد أن الركود سيشمل السان سيمونيين لعدم موافقة (محمد على) على مشروع القناة الذى هو محور نشاطهم . وقد كان لرحيل (فورنل) أبلغ الأثر على نفس الأب (أنفانتان) الذى اعترف ببعجزه عن قيادة الأتباع وترك لهم حرية اختيار الطريق الذى يسرون فيه ، وكان من أثر ذلك أن فضل بعض السان سيمونيين اللحاق (بفورنل) والعودة إلى فرنسا .

ورغم رحيل هؤلاء ، وفشل السان سيمونيين فى الحصول على موافقة (محمد على) على مشروع توصيل البحرين فقد عول الأب (أنفانتان) ، ومن ظل إلى جانبه على المشاركة فى المشروعات الأخرى لمل الفرصة تسنح فيما بعد ويتحقق حلمهم فى تنفيذ مشروع القناة .

نشاط السان سيمونيون في مصر

السان سيمونيون ومشروع القناطر :

لقد رأينا كيف فضل (محمد علي) مشروع القناطر على مشروع السكة الحديد والقناة ، فقد كان يعتقد أن القناطر لو أنشئت فإن فائدتها سوف تعود على مصر ذاتها ، أما مشروع السكة الحديد ومشروع القناة فإنه على الرغم مما قد يعود به كل منهما على مصر من فائدة إلا أن الدول الأجنبية تسمى إليهما من أجل فائدتهما كما تعارض إنجلترا فرنسا بمشروع السكة الحديد ، وتعارض فرنسا إنجلترا بمشروع القناة وأيقن (محمد علي) أنه لو فضل أحد المشروعين على الآخر فإنه لا بد وأن يغضب إحدى الدولتين^(١) . ولذلك فإنه بمجرد أن وافق المجلس العالي على مشروع القناطر عهد (محمد علي) في ٣ فبراير ١٨٣٤ إلى (ليمان) ببدء العمل في القناطر واقترح عليه إشراك من يرى فائدة من إشراكه من السان سيمونيون ، وفي ١٢ مايو ١٨٣٤ بدأ العمل رسمياً في إقامة القناطر .

ولم يكن السان سيمونيون راضين عن تفضيل محمد علي لمشروع القناطر على مشروع القناة ؛ إذ كانوا يعتقدون أن مشروع القناة عمل هلمى يعود بالنفع على العالم كله ويؤدي إلى ترابط أقطار العالم وبذلك تتحقق مبادئهم في الوحدة المالية ، بينما كانوا يعتبرون مشروع القناطر — رغم فائدته — مشروعاً يتصف بالأنانية لأنه مشروع قومي بحت لا يفيد إلا مصر وحدها^(٢) .

ومع هذا فمناذرتهم (محمد علي) بتنفيذ مشروع القناطر وكلف (ليمان) بذلك سارع الأب (انطانتان) بوضع خدماته وخدمات زميله (لامبير Lambert) تحت تصرف الباشا للمساهمة في مشروع القناطر ، فقد اعتقد السان سيمونيون أن الطريق الوحيد لتحقيق هدفهم وتنفيذ مشروع القناة هو المشاركة في المشروعات

(١) Husny, H. : Le Canal de Suez et La Politique Egyptienne (Montpellier 1923) p. 180.

(٢) Lettre d'Enfantin au General Soliman Bey, en 16 ma 1834, Arsenal 7618 fo. 41 Verso : D'Allemagne, p. 401.

الأخرى في مصر وإثبات كفاءتهم ومقدرتهم حتى تسنح الفرصة لتحقيق حلمهم الكبير ، ومن ثم فإن مشاركتهم في مشروع القناطر تعتبر خطوة في سبيل تنفيذ مشروع القناة ، كما أن الأب (أنفانتان) أراد أن يشغل مهندسيه ومن تبعه من العمال في عمل ما حتى تحين فرصة مشروعهم الأكبر .

ولما كان أمام (لينان) صعوبات ليست بالهينة فقد قبل ما اقترحه عليه (محمد علي) من الاستفادة من جهود السان سيمونين وقد وجد فعلا من بينهم كثيرين من المهندسين الأكفاء . ومنذ أخذ (أنفانتان) على عاتقه المساهمة في المشروع أخذ يبدي به اهتماماً كبيراً ، فرجع إلى (لينان) في ٩ مارس ١٨٣٤ برنامجاً مفصلاً للخطوات التي يجب اتباعها تمهيداً لتنفيذ المشروع ، فأقترح البدء بمسح المنطقة وتجهيز اللواد والمعدات وتمهيد الطرق الضرورية لنقلها ، كما اقترح إقامة مدرسة للهندسة في منطقة القناطر يلتحق بها عدد من الطلبة لتتابعه المران العملي أثناء دراستهم النظرية (١) .

وكان الأب (أنفانتان) وللمهندس (لامبير) على رأس قاعة السان سيمونين الذين أسهموا في مشروع القناطر ، فقد غادر القاهرة في ٩ مارس ١٨٣٤ ومنذ وصولها إلى المنطقة المزمع إقامة القناطر فيها وهما مشغولان بأعمال القياس ، ومسح للمنطقة .

وفي أواخر يونيو ١٨٣٤ بدأت وفود من المتطوعين الجدد يصلون إلى منطقة القناطر وكان في مقدمتهم (لاشيز Lachèze) ، وكان بصحبتهم زوجاتهم ، وبعض النساء حتى لقد فكر (أنفانتان) في الاستفادة من هؤلاء باستخدامهن في تعليم البنات الأوريات في مدرسة تنشأ لهذا الغرض في منطقة القناطر . كما استدعى (أنفانتان) زميله (أوار Hoart) و (برونو Bruneau) ووكانا لايزالان في فرنسا ، فكتب إليهما منذ ١٦ مارس ١٨٣٤ يستدعيهما « من أجل مشروع للسويس » وكلفهما باصطحاب عدد من المهندسين ، وخاصة أولئك التخصصيين في

الأعمال المائية^(١). وقد وصل (أوار) و (برونو) إلى الإسكندرية في ٢٠ أغسطس ١٨٣٤ وبصحبتها الطيب (فورساد Fourcade) وهو جراح بالجيش الفرنسي ، وحصل على إجازة لمدة عام ، وتوالى حضور أعضاء جماعة سان سيمونيين من فرنسا إلى مصر ولحقوا بالأب (أنفانتان) في منطقة القناطر ، ففي ١٤ ديسمبر ١٨٣٤ وصلت (سوزان دي فوالكان Suzanne de Voilquin)^(٢) ومعها المهندس الممارى (جوندره Gondret) . ومهندس الناجم (دروو Drouot) . وقد شارك هؤلاء في العمل في مشروع القناطر وأبجز للمهندسون منهم الكثير من الخطط والتصميمات ، وكان سان سيمونيون يمشون في منطقة القناطر كمتطوعين ، وقد شهد الفنصل الروسى (دوهاميل Duhamel) وفود سان سيمونيين يحضرون للاشتراك في مشروع القناطر . فذكر أنه كان من بينهم كثير من المهندسين المشهورين الذين تلقوا علومهم في مدرسة الهندسة العليا^(٣) .

ويبدو أن (لينان) كان يشعر أن ثمة مؤامرة تدبر لإبعاده عن إداره مشروع القناطر ، واعتقد أن (أنفانتان) يدا في هذه المؤامرة لكي يحل هو محل (لينان)^(٤) ، ومن الممكن أن تكون شكوك (لينان) صحيحة ، فلعن (أنفانتان) لس المقدرة على إتمام مشروع القناطر فرأى أن ينقل إدارة المشروع إلى سان سيمونيين وفيهم كثير من المهندسين الأكفاء ، ولعل (أنفانتان) — بالإشراف الرسمى على المشروع وبخاصة في تنفيذه — يستطيع بعد ذلك إقناع (محمد على) بمشروعاته الأخرى في مصر ، وفي مقدمتها مشروع القناة بين البحرين ، ويؤيد ذلك ما عر عنه (أنفانتان) من أن نجاحهم في مشروع القناطر — رغم عدم إيمانهم به — يدهو إلى الاغتيال ، على اعتبار أنه سيكون تحت إمرته جيش من العمال يقدر بالآلاف يستطيع فها بعد أن يوجههم إلى مشروعاته الأخرى .

(١) Lettre d'Enfantin à Hoart et Bruneau en 16 mars 1834, Arsenal 7618 fo. 21 : D'Allemagne p. 406.

(٢) وقد نسر لها في عام ١٨٦٦ كتاب بعنوان Souvenirs d'une : fille du Peuple, ou La St. Simonienne en Egypte 1834-36.

(٣) Cattaut : Le Regne de Moh. Ali d'après Les Archives Russes en Egypte, T. II, p 158.

(٤) D'Allemagne, R. : Les St. Simoniens, p. 413.

ومهما يكن من أمر اشتراك (أنفانتان) في المؤامرة ضد (لينان) فإن إحساس الأخير يدل على أن (أنفانتان) كانت له من الصفات والمزايا ما جعل (لينان) يخشى على مركزه في تنفيذ مشروعات (محمد علي) من أن ينافسه فيها ، إذ الواقع أن (أنفانتان) كانت له هيبة عظيمة ليس فقط بين زملائه بل كذلك عند كل من يتصل به ، ورغم أنه كان قد ترك الهندسة منذ مدة طويلة مما جعل البعض يعتقد بأنه لم يعد قادراً على إدارة أى مشروع ، إلا أن وجوده كان ضرورياً وفعالاً فقد كان العامل الروحي لنشاط الأتباع .

وإزاء هذا الشعور من جانب (لينان) ورغبة من (أنفانتان) في أن يستمر الوثام بين (لينان) وبقية السان سيمونيين المشتغلين في منطقة القناطر غادر (أنفانتان) منطقة العمل وعاد إلى القاهرة حيث أقام لدى (سليمان باشا الفرنساوى) وهناك أتاحت له فرصة التفكير في هدوء في مشروعاته العديدة المقبلة . وقد صاحب (أنفانتان) (سليمان باشا) في جولة تفتيشية في الأقاليم فغادرا القاهرة في ٧ أكتوبر ١٨٣٢ ووصلا إلى دمياط ، وفي أثناء الرحلة كان (أنفانتان) يبدي كثيراً من المقترحات بشأن الإصلاحات التي كان يرى وجوب القيام بها والمنشآت التي تجب إقامتها في هذه المناطق ، وعند عودتهما إلى القاهرة في أوائل نوفمبر ١٨٣٤ وجدا فيها المارشال (مارمون Marmont) الذي كان (لويس فيليب) قد أعفاه من منصبه في الجيش الفرنسي فقام برحلته المشهورة إلى الشرق ، وبقى (أنفانتان) في القاهرة حتى ١٤ ديسمبر ١٨٣٢ حين عاد لمزاولة نشاطه في منطقة القناطر .

وبينا السكل يعمل بهمة ونشاط في مشروع القناطر وصل إليهم نبأ اعتزام (محمد علي) إيقاف العمل في المشروع لما لمسه من نقص في الإعداد له وبسبب انتشار وباء الطاعون ، ذلك الوباء الذي فتك بالكثيرين من أتباع (أنفانتان) وهم في ميدان العمل .

وقد كان لتوقف (محمد علي) عن السير في إتمام مشروع القناطر أثره على نفس الأب (أنفانتان) الذي عبر عن عدم دهشته لهذا التصرف واتخذ دليلاً على عدم مقدرة مصر على النهوض وحدها بمثل هذه المشروعات « فكل شيء يشهد بعدم

مقدرة مصر على تنفيذ مشروع مماثل دون الاستعانة بأوروبا»^(١) ، وأيقن (أنفانتان) كذلك أن مشروع القناة لن يخرج إلى حيز الوجود دون معونة الدول الأوروبية .

ورغم انشغال السان سيمونيين في مشروع القناطر فإنهم لم ينقطعوا عن التفكير في مشروعهم الأساسى وهو مشروع القناة ، وفى ذلك يقول الأب (أنفانتان) : « وسيظل مانلا أمام أعيننا البحر المتوسط والبحر الأحمر والبرزخ الذى سوف نشقه »^(٢) .

وفى أثناء زيارة المارشال (مارمون) خلال عامى ١٨٣٢ — ١٨٣٥ تحدث مع (محمد على) فى ١٤ يناير ١٨٣٥ بخصوص مشروع القناة ، فطلب (محمد على) أن ترفع له مذكرة عن المشروع فاتهمز (أنفانتان) الفرصة وعهد إلى (لامبير) باعداد مذكرة عن مشروع لتوصيل البحرين على نخط المشروع الذى كان قد وضعه المهندس (لوير) أيام الحملة الفرنسية كما طلب منه كذلك إعداد خريطة لمصر وغير ذلك من البيانات المتصلة بمشروع القناة^(٣) .

إلا أننا لا نكاد نسمع شيئاً عن أثر تلك الدراسة ، ولعل هذا يرجع إلى أن (محمد على) وإن كان يشجع الدراسات والأبحاث المتصلة بمشروع القناة ، إلا أنه لم يكن يرى الوقت مناسباً لتنفيذه ، هذا علاوة على ما حل بالسان سيمونيين من كوارث بسبب موت كثير من الأتباع نتيجة تفشى الطاعون وانشغال من تبقى منهم بأعمال أخرى .

السان سيمونيون ونشاطهم التعليمى فى مصر :

ولم تكن مساهمة السان سيمونيين فى مشروع القناطر هى كل ما تخضع عنه نشاطهم فى مصر فى تلك الفترة ، بل كان لهم كذلك نشاط ملموس فى النواحي

(١) Lettre d'Enfantin à Lambert en 7 Août 1835, Arsenal 7615, fo 17, D'Allemagne, p. 415.

(٢) Lettre d'Enfantin à Hoart et Bruneau en 16 Mars 1834, Arsenal 7618 fo. 21 : Oeuvres de St. Simon et d'Enfantin, T. IX, p. 212.

(٣) Lettre d'Enfantin à Lambert en 15 Janvier 1835, Arsenal 7618, fo. 112, D'Allemagne, p. 414.

التعليمية وهو ميدان له أهمية كبرى في نظرم حيث كانوا يرون وجوب تعهد تلك النواة التي بذرها (بونابرت) في مصر عندما أنشأ المجمع العلمي خلال حملته المعروفة . وعندما كان (محمد علي) يفكر في إقامة القناطر كان يفكر كذلك في إنشاء مدرسة للهندسة لتخريج مهندسين يستعين بهم في تنفيذ مشروعاته المختلفة وقد رأينا (أنفانتان) يقترح في ٩ مارس ١٨٣٤ على (محمد علي) إنشاء مدرسة في منطقة القناطر ، ولما كان (محمد علي) قد اختار بعض تلامذة قصر العيني لدراسة هندسة الري (١٨٣٣) فقد نقلهم بعد عامين إلى منطقة القناطر (١) ، وهكذا تحققت فكرة (أنفانتان) وارتفع عدد تلاميذ المدرسة إلى ستين ، لولا أن هذه المدرسة لم يقدر لها الإستمرار بسبب التوقف في بناء القناطر ذاتها ، فضمت عام ١٨٣٦ إلى مدرسة المهندسخانة ببولاق .

وفي ٢٦ أغسطس ١٨٤٣ رفع (أنفانتان) إلى (سليمان باشا الفرنساوي) - وبناء على طلبه - مشروعاً لإعادة تنظيم المدارس والاشرف عليها ، وقد اقترح (أنفانتان) في هذا المشروع إنشاء (مجلس للتعليم العام) و (لجنة استشارية للعلوم والفنون) وقد تحققت أفكار (أنفانتان) إذ أمر (محمد علي) بتأليف مجلس عام للنظر في تنظيم المدارس وكان (لامبير) من بين أعضائه ، وهو المجلس الذي اقترح عام ١٨٣٦ تقسيم التعليم إلى ثلاث مراحل : ابتدائية وتجهيزية وخصوصية ووضع اللوائح لكل مرحلة ، وبعد انتهاء مهمته حل المجلس ثم تكونت لجنة في عام ١٨٣٦ أيضاً كانت مهمتها البحث باستمرار في أمور التعليم أى كانت تختص بالشئون الفنية المتصلة بالمدارس ، وكانت لجنة دائمة عرفت باسم (شورى المدارس) أو (مجلس المدارس) (٢) .

وعندما أنشأ (محمد علي) مدرسة للمعادن في عام ١٨٣٤ آلت إدارتها - قبل

(١) وعين (محمد بيومي أفندي) أستاذاً عليهم هناك بعد انتهائه من دراسة الهندسة وأشغال القناطر في فرنسا :

- د. أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ٣٦١ .
- (٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٩٧ - ٩٨ .
- د. أحمد عزت عبد الكريم : المصدر السابق ص ٩٣ - ٩٧ .

ضمها إلى مدرسة الهندسة في عام ١٨٣٦ — إلى (لامبير) الذي كان متخصصاً في أعمال التعدين والمناجم ، بعدما أنشئت مدرسة الهندسة في يولاق عام ١٨٣٤ وضمت لها بعد ذلك مدرسة المهندسين بالقناطر الخيرية ومدرسة المعادن بمصر القديمة تقدم (أفانتان ولامبير) بمقترحات بشأن النظام الواجب اتباعه فيها لكي تكون على نمط مدرسة الهندسة العليا بباريس .

وبعد رحيل (أفانتان) وبعض أتباعه إلى فرنسا في أواخر عام ١٨٣٦ شارك من بقي من السان سيمونيين في كثير من المؤسسات التعليمية ، ففي عام ١٨٣٨ طلب من (لامبير) أن يقوم بالتدريس بمدرسة الهندسة في يولاق لأربعة من التلاميذ كانوا قد عادوا من فرنسا دون إتمام دراساتهم ، وفي سبتمبر ١٨٣٨ عين هؤلاء بعد تخرجهم مدرسين بالمدرسة (ولامبير) مديراً لها ، وبشاركة في الإدارة (حكيكيان أفندي) ، وبعد ثلاثة أعوام نقل (حكيكيان) واستقل (لامبير) بإدارة مدرسة للهندسة حتى أبريل عام ١٨٤٩ حين خلفه فيها (علي مبارك) (١) .

وقد اهتم (لامبير) بالتهوض بمدرسة الهندسة وقد نجحت في تخرج عدد كبير من المهندسين والمدرسين المصريين وكذلك تعريب كثير من الكتب الرياضية ، حتى أنه في عام ١٨٤١ بعد أن تمت التسوية المصرية العثمانية وظهرت الحاجة إلى إعادة النظر في النظام التعليمي في مصر على ضوء حاجات البلاد الجديدة ، قررت اللجنة المشكلة لتنظيم التعليم الإبقاء على مدرسة الهندسة لأهمية خريجها ، واعترفت اللجنة بالتقدم العظيم الذي أحرزته المدرسة في النهضة العلمية ، وعزت ذلك إلى دقة ناظرها (لامبير) وهمة أساتذتها (٢) .

ولما تولى (إبراهيم) الحكم في يونيو ١٨٤٨ عقب اعتزال أبيه وشرع في تنظيم التعليم على أسس جديدة كان ساعده الأيمن في ذلك (لامبيريك) ناظر مدرسة الهندسة . ولم تكن جهود (لامبير) قاصرة على مدرسة الهندسة ، بل كان كذلك يدرس الرسم بمدرسة السوارى كما ساهم أيضاً في عام ١٨٣٦ في اللجنة التي

(١) أمين ساسى : التعليم في مصر ص ٤٧ من الملحقات .

(٢) د . أحمد عزت عبد الكريم : التعليم في عصر محمد علي ص ١٣٠ ، ٣٦٨ .

نيظ بها تنظيم مدرسة الطوبجية (١) .

ولم يكن (لامبير) هو الوحيد من السان سيمونيين عندما ساهم بهذا النصيب الكبير في خدمة المؤسسات التعليمية في مصر ، فهذا الطبيب (بيرون Perron) أحد أفراد جماعة السان سيمونيين يتولى نظارة مدرسة الطب البشرى منذ عام ١٨٤١ (٢) وقد أنعم عليه برتبة القاء مقام في أواخر عام ١٨٤٥ ، وظل في منصبه حتى استقال عام ١٨٤٦ وعاد إلى فرنسا ، كما اشترك (بيرون) مع (سليمان باشا) و (لامبير) في لجنة تنظيم التعليم عام ١٨٤١ .

وقد تولى (رونو Brunoau) إدارة مدرسة الطوبجية بطرة من مارس ١٨٤٠ حتى أبريل ١٨٤٧ (٣) وأقامها على النموذج الذى كانت تسير عليه مدرسة الهندسة العسكرية بباريس ، كما تولى (ديشارم Descharmes) إدارة مصلحة الطرق والكبارى ما بين عامى ١٨٣٨ ، ١٨٤٥ .

ومنذ مارس ١٨٣٤ وضع (أوليفيه Olivier) و (توشيه Toché) (بوفور Beaufort) مشروعاً لتنظيم مزرعة نموذجية لسكى تكون نواة لمدرسة زراعية ، وكان الأب (أنفانتان) متعمساً لهذا المشروع ورأى أن يتولى إدارته رجل كفاء ولذلك أرسل يستدعى أحد أعوانه الخالصين من فرنسا وهو (بتى Petit) أحد خريجي مدرسة الزراعة فى (روفيل Roville) وقد أوضح (أنفانتان) لزميله (بتى) فى رسالته إليه أنه وإن كان المشروع الرئيسى بالنسبة لهم هو مشروع القناة بين البحرين إلا أنه من أجل الوصول إلى هذا الهدف لا بد من المساهمة فى النشاط القائم فى البلاد فى مختلف النواحي ، ولذلك فإن (أنفانتان) كان يعتبر مشروع المزرعة النموذجية عظيم الأهمية رغم ما قد يبدو من ضآلته (٤) .

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم : المصدر السابق ص ٣٨٠ - ٣٨١ ، ٤٠٠ - ٤٠٩

(٢) Oeuvres de St. Simon T. XII, pp. 13-15

(٣) أمين سامى : التعليم فى مصر ص ٥٢ (من الملاحظات) .

(٤) Lettre d'Enfantin à Petit en 31 Mai 1834, Arsenal 7618, (٤) fos. 48-50 : D'Allemagne, p. 419.

وإي (بقي) نداء زعيمه ووصل إلى مصر في نوفمبر ١٨٣٤ بإرفاقه زميل له يدعى (بسكو دي دومبال Dusco du Dombale) وفي ٨ ديسمبر ١٨٣٤ قدم هذا الأخير مذكرة حول تنظيم المزرعة النموذجية بين فيها أن الهدف من إنشائها هو إقامة مدرسة زراعية على نمط مدرسة (روفيل) في فرنسا ، وهدفها تعليم الزراعة لمائة من الفتيان سنوياً ، والعمل على إدخال آلات الزراعة الحديثة للتقليل من نفقات الأعمال الزراعية وتحسين سلالات الحيوانات وتهجين أصناف جديدة والاستفادة من الألبان في صناعة الجبن وأقلية دودة الحرير . وطالب (بسكو دي دومبال) في مذكرته التي رفعت إلى محمد علي بمساحة من الأرض تتراوح بين ١٠٠٠ — ١٢٠٠ فدان وعليها المباني اللازمة ، ومائة من التلاميذ ممن تتراوح أعمارهم بين ١٤ — ١٨ سنة ، وكذلك للمدرسين اللازمين لتدريس العلوم المختلفة^(١) ، ولم يطلب صرف مرتبات له ولزملائه في هذه المدرسة بل طالب بالمشاركة في أرباحها ، وكانت مدرسة الزراعة التي تأسست أولاً بنبروه عام ١٨٣٦ ثم انتقلت إلى شبرا في عام ١٨٣٩ هي نتاج هذه الفكرة .

وبينما كان الأب (أنفانتان) ومعه (لامبير) منمكين في مشروع القناطر كان كثير من أتباع (سان سيمون) في مصر يسعون لشغل بعض المناصب فهذا (كولان Collin) منمك في إعداد إحصاء لمصر ، كما تولى (لامي Lamy) إنشاء حظيرة للماشية ، وأصبح (كونيا Cognat) و (شاربان Charpin) طبيين بالقناطر و (الريك Alric) يقوم بعمل تمثال نصفي (لمحمد علي) كما طلب (كلوت بك) من (ماشيرو Machereau) أن يقوم بالتدريس في مدرسة أبي زعبل ، وكان (أوربان Urbain) و (جرانال Granal) يقومان بتدريس اللغة الفرنسية بمدرسة المشاة بالحانكة ، وهكذا تغلغل السان سيمونيون في كثير من نواحي النشاط في مصر تحقيقاً لأحد الأهداف التي رسموها لأنفسهم قبيل رحيلهم من فرنسا وذلك بالمساهمة في المشروعات المختلفة حتى تثبت أقدامهم في البلاد وتتاح لهم فيما بعد فرصة تحقيق مشروعهم الأكبر — مشروع القناة بين البحرين .

وقد كان (أنفانتان) سعيداً بهذا النجاح الذي حققه أتباعه في مصر ، ومع

ذلك لم يكن جميع أفراد جماعة السان سيمونيين في مصر يقومون بأعمال تدر عليهم معاشهم؛ فقد تابعت وفودهم حتى ازداد عددهم وصار من الصعب على الأب (أنفانتان) أن يدبر مصدر الرزق لهم جميعاً حتى لقد اضطر كثير منهم إلى العودة إلى فرنسا .

ولم يلبث الطاعون أن تفشى في يناير ١٨٣٥ وراح ضحيته عدد كبير من جماعة السان سيمونيين في مصر ، وعندما توفي المهندس (أوار Hoart) في ١٢ أكتوبر سنة ١٨٣٥ كان لموته أسوأ الأثر في نفوس زملائه حتى أنهم اعتبروا أن رسالتهم قد وصلت إلى نهايتها بوفاة (أوار) .

وبسبب انتشار الطاعون رحل (أنفانتان) عن القاهرة بصحبة بعض الأتباع ، فعادروها في ٢٥ فبراير ١٨٣٥ على إحدى المراكب في النيل واتجهوا جنوباً ، وفي طريقهم زاروا أبيدوس ومبدندره ووصلوا إلى الأقصر حيث زاروا الآثار المصرية القديمة ، وهناك تكررت مقابلات (أنفانتان) مع (ميمو) قنصل فرنسا الذي كان قد لجأ هو الآخر ومعه كثير من أعضاء الجالية الفرنسية إلى الصعيد هرباً من الوباء ، وظل (أنفانتان) في الأقصر حتى غادرها في ١٦ سبتمبر فوصل إلى القاهرة في ٢٣ منه عن طريق النيل .

ولم يكن الموت هو المصير الوحيد الذي كان ينتظر أتباع (سان سيمون) في مصر؛ فهذا (أوربان Urbain) يتخلى عن كاثوليكيته ويعتق الإسلام منذ ٨ مايو سنة ١٨٣٥ ، وحذا حذوه (ماشيرو Machereau) الذي تسمى باسم (محمد أفندي) وتزوج من سيدة مسلمة أنجب منها أربع فتيات سماهن بأسماء عربية^(١) ، وقد كان هذا الحادث موضع سخرية (محمد علي) إذ عبر عن شماتته في جماعة (السان سيمونيين الذين وفدوا إلى مصر « لتحويل المسلمين عن دينهم فإذا باثنين منهم يتحولان إلى الإسلام »^(٢) .

وفي ٨ فبراير ١٨٣٦ احتفل من بقي في مصر من السان سيمونيين بعيد ميلاد

Carré : Voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, T. I, (١)
p. 267.

Lettre d'Enfantin à Algae St. Hilaire en 5 Octobre 1835, (٢)
Arsenal 7827 : D'Allemagne, p. 422.

الأب (أنفانتان) فاجتمع اثنان وعشرون منهم حوله معبرين عن حبهم وولائهم له ،
وأمضوا الليل في حديث ورقص وشراب (١) .

إلا أنه كان لانتشار الطاعون أثره في تفرق الأتباع ؛ فغادر بعضهم البلاد عائدين
إلى فرنسا ، علاوة على من اختطفهم الموت ووصل عددهم إلى خمسة عشر ماتوا —
كما يقول (أنفانتان) « في ساحة الشرف ، في سبيل العمل الذي كرسوا له حياتهم
تاركين لنا — ولى على وجه الخصوص — مهمة وشرف متابعة السير بعزم في ذلك
العمل الذي سقطوا تحت وطأته » .

ولذلك غادر (أنفانتان) القاهرة في ٢٣ أكتوبر ١٨٣٦ مع ليف من
أعوانه إلى الإسكندرية التي أبحر منها في الثلاثين من نفس الشهر فوصل مرسيلا
في ٧ يناير ١٨٣٧ تاركا في القاهرة بمض الأتباع مثل (لامبير) و(برنو) وغيرها
والبعض الآخر في الإسكندرية . وعندما عاد (أنفانتان) إلى فرنسا لم يقابل بالحماس
الذي كان يحلم به عندما غادرها إلى مصر ، وهكذا انفرط عقد السان سيمونيين
في مصر دون أن يقدر لمشروعهم — مشروع القناة بين البحرين — أن يتحقق ،
إلا أن فشلهم لم يجعل اليأس يتطرق إلى نفوسهم ، بل استمر نشاطهم وظلوا متمسكين
بالمشروع ، وإذا كان لم يقدر للمشروع أن يخرج إلى حيز التنفيذ إلا على يدى (فردينان
دى لسبس) فإن التاريخ يسجل للسان سيمونيين فضلا لا ينكر بل يذكر ويقدر .

(١) Souvenirs d'une fille du Peuple, ou la St. Simonienne en Egypte, par Suzanne de Vollquin citée dans : D'Allemagne p. 43&

obeikandi.com

موقف الكويت

من التوسع السعودي في نجد وسواحل الإحساء

للدكتور جمال زكريا قاسم

أستاذ مساعد التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

سنعنى في هذه الدراسة بتتبع مراحل التوسع السعودي في سواحل الإحساء وما ترتب عليها من تهديد لإمارة الكويت . ولما لم يكن للكويت حدوداً مقررّة أو متفق عليها في المراحل الأولى من عمليات التوسع السعودي فقد ترتب على ظهور السعوديين في السواحل الشمالية من مقاطعة الإحساء تهديداً خطيراً لكيان الإمارة من الناحية الجنوبية ، هذا بالإضافة إلى أنه نجم عن الإغارات السعودية المتكررة اضطراب قبائل كثيرة إلى الاندفاع من ساحل الإحساء إلى الكويت محتمين بمحاکمها أو ملتجئين إليهم مما ترتب على ذلك مشكلات قليلة حادة بين الكويت والسعودية .

ويستدل بما لدينا من المصادر المحلية التي تعرضت لنشاط السعوديين في المقاطعات الشرقية للجزيرة العربية أن التحركات السعودية الأولى على سواحل الإحساء ظهرت بشكل واضح في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، وبالتحديد منذ عام ١٧٨٥ حينما وجه الممويون هجماتهم ضد أسرة بنى خالد ، وهي قبيلة من أقوى القبائل العربية التي كانت تقطن السواحل الشمالية من الخليج العربي في ذلك الوقت ، وكان سلطانها يمتد من شبه جزيرة قطر جنوباً حتى البصرة شمالاً بماحاذة ساحل الخليج من ناحية ووسط الجزيرة العربية من ناحية أخرى . ولما كانت تنتشر انتشاراً كبيراً في الصحراء فقد أتاح لها ذلك السيطرة على طرق القوافل التجارية التي تسلك الطريق بين بغداد ونجد^(١) . ولقد بقيت هذه القبيلة التي ظهرت إلى مجال السيطرة منذ أوائل القرن السادس عشر ، وعت في شبه تنظيم سياسى خلال سنوات القرن السابع عشر تتمتع بدرجة كبيرة من اللقوة خاصة أن امتلاكها لمقاطعة الإحساء مكنت لها قدراً كبيراً من الثروة نتيجة لما تشتهر به الإحساء من واحات خصيبة وكان مما يضيف إلى رخائها الزراعى انتماشها من الناحية التجارية إذ أن موانى الإحساء كالقطيف والمقبر كانت تمد بدايات صالحة لانطلاق القوافل التجارية إلى نجد

وأواسط الجزيرة العربية. ولذلك كانت الإحساء مطمح أنظار سكان نجد إذا ما حل
ببلادهم الجذب وقد أبدى شيوخ بنى خالد في مناسبات كثيرة عدائهم للحركة الوهابية
منذ أن قامت وكانوا على جانب كبير من القوة بحيث كان في مقدورهم أن يتقلوا
المركة دائماً إلى قلب نجد واستمر وضعهم على ذلك حتى بدأ مركزهم يتعرض للانحيار
السريع نتيجة للصرعات الأسرية التي أخذوا يتعرضون لها والتي يرجع أن يكون
للسعوديين دخلاً كبيراً في إثارتها. وقد اشتد التحركات السعودية على سواحل الإحساء
في الفترة ما بين ١٧٨٥ و ١٨٩٣ وتميزت بطابع شديد من الإرهاب والقسوة (١).
حقيقة أن الصراع بين الوهابيين وبنى خالد بدأ منذ أوائل النصف الثاني من القرن
الثامن عشر ولكنه لم يتضح إلا في السنوات الأخيرة من ذلك القرن. وقد أمدتنا
المصادر المحلية التي تعرضت للتحركات السعودية ببعض التفاصيل الخاصة بذلك
الصراع. وقد يكون من المفيد في هذا الصدد الرجوع إلى كتابات ابن بشر (٢)
وحسين بن غنام وسيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب المعروفة بلع الشهاب.

وفي عام ١٧٩٣ نجح السعوديون في الإطاحة بنفوذ بنى خالد. ذلك أن أسرة
بنى خالد كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الإعياء الداخلي فضلاً عن أنها أصبحت
غير قادرة نتيجة لعوامل الضعف التي تمكنت منها أن تصدى للتحركات السعودية
التالية التي اشتدت في ضراوتها.

وما لاشك فيه أن بنى خالد كانوا الحاجز الكبير الذي حفظ الكويت من
الخطر الوهابي حتى نهاية القرن الثامن عشر غير أنه بسقوط بنى خالد صار إخضاع
السعوديون للكويت بعد عام ١٧٩٣ أمر كثير الاحتمال. وبالعمل شهدت السنوات
التالية لسقوط الأسرة هجمات سعودية متكررة على الكويت اشتدت في عنفها طوال
فترة إقامة الوكالة الإنجليزية التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية بالكويت عقب
انتقالها من البصرة في الفترة ما بين سنتي ١٧٩٣ و ١٧٩٥.

وكان من الطبيعي أن يطالب السعوديون بتسلطهم على ممتلكات بنى خالد ويعني

(١) أحمد مصطفي أبو حاكمة : تاريخ الكويت ، الجزء الأول ، إصدار لجنة الكويت
ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٢) عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ج ١ ص ١٠٨ وما بعدها .

ذلك أن تصبح الكويت منطقة من مناطق النفوذ السعودي على الساحل الشمالي للخليج . ولكن استمرت إمارة الكويت محتفظة بوضعها المستقل في وقت كانت فيه القوة السعودية هي القوة المتسلطة على سواحل الخليج العربي . بل وأكثر من ذلك يمكن أن نذهب — وهذا في تقديرنا الشخصي — أن سقوط أسرة بني خالد كان عوناً كبيراً في انطلاق الكويت نحو مرحلة جديدة من مراحل استقلالها .

ولناقشة ذلك يمكن أن نركز على ناحيتين هامتين :

الأولى ، علاقة الكويت بأسرة بني خالد .

والثانية ، العوامل التي أدت إلى احتفاظ الكويت باستقلالها عن السعوديين رغم تداعي نفوذ بني خالد .

في تقديرنا أنه يمكن اعتبار سقوط حكومة بني خالد ميذاً للعلاقات بين الكويت والسعوديين ولا يمكن اعتباره بأية حال بداية خضوع الإمارة للنفوذ السعودي ويمكن أن نوضح هنا حقيقة هامة وهي أنه على الرغم من أن شيوخ الكويت كانوا يقدمون ولاءهم منذ أن تأسست إمارتهم في النصف الأول من القرن الثامن عشر لشيوخ بني خالد إلا أن ذلك الولاء لم يكن إلا من الناحية النظرية (١) ، على الرغم مما تتفق عليه المصادر المحلية أن سيطرة بني خالد كانت تمتد إلى الكويت التي ينسب تأسيسه إلى أحد زعماء هذه الأسرة ويدعى براك ، بناء في بداية الأمر على شكل حصن صغير (٢) ، وحينما قدم آل صباح من أفلاج نجد استقراراً في هذه المنطقة حيث استولوا على هذا الحصن أو سمح لهم آل خالد بالبقاء فيه وتميمه حيث اتخذوا منه

(١) يقرر نيبور بصد ذلك أن النزاع كان يدور دائماً بين الكويتيين المتمسكين باستقلالهم وبين شيخ الحسا المطام في احتلال الكويت وإذا ماوجه هذا الشيخ جيشه إلى الكويت لإخضاعه هجرة أهله إلى جزيرة فيلكا كما يؤكد أنه على الرغم من أن شيخ الكويت كان يتبع شيخ الإحساء إلا أنه كان يمارس استقلاله في أحيان كثيرة .

Of. Carsten Niebuhr, Travels Through Arabia & Other Countries in the East, Vol. II, p. 103 ff.

أنظر أيضاً : جاكلين بيرن : اكتشاف جزيرة العرب — ص ١٦٤ .

(٢) عبد الله حاتم : من هنا بدأت الكويت .

منطلقاً لإنشاء إمارتهم (١) . وعلى الرغم من أن آل صباح تمكنوا من ممارسة نفوذهم المستقل في مستقرهم الجديد إلا أنهم كانوا في المراحل الأولى من بدء استقرارهم يرتبطون بشكل أو بآخر بنوع من التبعية لحكام بني خالد ، ولذلك كان من المتوقع حينما داهمت بني خالد الغزوات السعودية في الفترة من ١٧٨٥ إلى ١٧٩٥ أن يبادر آل صباح لنجدتهم لما كان يقضى به العرف أن يتقدم التابع لنجدة متبوعه ، ولكن الشيخ عبد الله بن صباح كان متردداً بين أمرين :

الأول ، تقديم العون لبني خالد ومعنى ذلك أن يستمر على ولائه لهم .
والثاني ، مساعدة السعوديين في إسقاط الأسرة ، وبما لا شك فيه أنه كان يقدر أن الأمر الثاني سيجلب عليه انطلاق الكويت في إحدى المراحل الهامة لتحقيق استقلالها وتخلصها من تبعية بني خالد ، إلا أن الشيخ عبد الله كان يدرك في نفس الوقت قوة الضغط السعودي خاصة في هذه المرحلة التي اندفع فيها السعوديون بشكل تصبى بالغ بهدف نشر الدعوة الوهابية في سواحل الخليج العربي وما قد يترتب على ذلك بالضرورة من تعرض إمارته لخطر مجاورتها لنفوذ السعوديين في الإحساء ، وبالفعل بدأت الكويت تتعرض بشكل واضح منذ عام ١٧٩٣ لناوشات سعودية خاصة حينما قدم القائد السعودي إبراهيم بن عفيضان بجماعة من قبائل الحرج والعارض والسدير واستحوذ على قدر كبير من الأسلاب ، ولذلك حرص الشيخ عبد الله أن يبدو في مسلكه وقوفه على الحياد في الصراع الدائر ولكن من المؤكد أنه كان يتعاطف مع القوتين المتشابكتين ، وهما العثمانيين وبني خالد ، في صراعهما ضد السعوديين .
وكان تقدير شيخ الكويت أن مشيخته تتمتع باستقلال ذاتي في ظل العثمانيين وبني خالد ولكنه لا يضمن أن تستمر إمارته متمتعة بذلك الاستقلال في ظل السيطرة السعودية على أنه من ناحية أخرى كان حريصاً على ألا يظهر من تقديم الكويت عوناً للعثمانيين وبني خالد تأكيداً لتبعيةها لتبني القوتين ولذلك رأى أن يكتفي بتقديم المساعدات لشيخ المنتفق الذي كلف من قبل والي بغداد بإعداد قوات

(١) راجع في ذلك عثمان بن سند : سبائك المسجد ص ١٨ .

والفناعي : صفحات من تاريخ الكويت ص ١٠/١٢ وبشيء من التفصيل يمكن الرجوع إلى مقالة الأب انتاس الكرملي عن الكويت في مجلة المشرق — العدد العاشر ص ٤٥ .

كبيرة لمقاتلة السعوديين بالتحالف مع شيوخ بنى خالد وبالفعل وضع الشيخ عبد الله جميع إمكانيات الكويت البحرية في خدمة العمليات الحربية واستخدمت السفن الكويتية لنقل قسم كبير من قوات الشيخ ثويني إلى الإحساء ، وإن لم تكن النتيجة طيبة على أية حال إذ تفرقت هذه القوات وقتل ثويني في إحدى المعارك الطاحنة التي نشبت بينه وبين السعوديين^(١) وعقب ذلك نجح السعوديون في الاستيلاء على الإحساء وتأكيد نفوذهم في المقاطعات الشرقية للجزيرة العربية وترتب على ذلك أن أصبحت الكويت ملامسة للقوة السعودية التي أخذت تتأخها من الجنوب . وعلى الرغم من أن الكويت استغادت من سقوط أسرة بنى خالد في التخلص من الارتباط الذي كان قائماً بينها وبين هذه الأسرة في عهد الشيخ صباح الأول إلا أن شيوخ الكويت أخذوا يتعرضون لهجمات سعودية عنيفة^(٢) .

وفي تقديرنا أن وجود الوكالة البريطانية في الكويت في الفترة من ١٧٩٣ إلى ١٧٩٥ كان له أثر كبير في حماية الكويت من السقوط في قبضة السعوديين . وقد انتقلت الوكالة من البصرة إلى الكويت نتيجة الصعوبات والعقبات التي وضعتها السلطات العثمانية في وجه الوكالة البريطانية^(٣) .

ويمكن التركيز بصدق ذلك أن حادثة انتقال الوكالة إلى الكويت كانت تؤكد في حد ذاتها استقلال الكويت عن الدولة العثمانية . وكان القائم بأعمال الوكالة آنذاك هو المستر مانيسقى Manisty الذي رأى حماية للوكالة من الضغط السعوى أن يبقى طراداً صغيراً في ميناء الكويت ، كما وضمت فرقة حرس من الهنود يقودها ضابط هندي على المشاطىء . والجدير بالذكر أن الوثائق الرسمية البريطانية قد حرصت على أن ينفي نفياً قاطعاً قيام الوكالة البريطانية بأى دور في صد السعودية عن الكويت تمشياً مع السياسة البريطانية العامة التي كانت تقرر عدم التدخل في الصراعات الداخلية في الخليج العربي . وأن الوكالة كانت حريصة على أن تقف موقف الحيادية

(١) حسين بن غنام : روضة الأفكار والأفهام ج ٢ ص ١٦٥ وما بعدها .

(٢) ج. لولا يمارج : دليل الخليج ج ٣ ص ١٥٠٨ الدوحة ١٩٦٧ .

(٣) Kelly, Britain and the Persian gulf, London 1928.
Cf. Chapter I, the Persian Gulf in Late Eighteenth

الصراع بين السعوديين والكويت خوفاً على بريدها الصحراوي من أن يتعرض للانتقام السعوديين . . . وهذه الآراء وغيرها نجدتها في كتاب المستر Brydges عن الوهابيين والذي أكد فيه أكثر من مرة أن أهالي الكويت هم الذين دافعوا عن الإمارة وأن شيخها الوقور هو الذي نجح بمده وسماعته من أن يجنب إمارته الخضوع للسعوديين^(١) . ولما كنا مع ذلك نجد بعض المصادر الأخرى تؤكد على حدوث مساعدة انجليزية للكويت ضد السعوديين وتستند في ذلك على ما ذكره أحد الموظفين في الوكالة البريطانية ويدعى رينود Reynaud من أن المستر مانيسقي القائم بأعمال الوكالة البريطانية في الكويت أصدر أوامره خلال عمليات الغزو السعودي للكويت ١٧٩٥ بإنزال مدفيين من الطراد الإنجليزي وطلب من الجنود الهنود الاشتراك مع أهالي الكويت في صد السعوديين عن الإمارة ، وكان رد الفعل المتوقع مهاجمة السعوديين لبريد بريطانيا الصحراوي مما كان سبباً في رحلة رينود إلى الدرعية حينما كلف من مانيسقي بمقابلة الأمير السعودي في عاصمته . وقد اشتهر رينود بأنه كان أول أوروبي يزور عاصمة السعوديين الأولى .

وتتفق آراء بعض الباحثين على الأخذ بالرواية الثانية لأن الوكالة البريطانية كانت بطبيعة الحال تخشى على أموالها المودعة بالكويت فيما لو حدث غزو وهابي ، والتي كانت ستصبح غنيمة مشروعة في عرف الوهابيين باعتبارها من «أموال الكفر» وفضلاً عن ذلك فقد كان التزاماً أدبياً من الوكالة البريطانية أن تعبر عن اعترافها بحميل الشيخ عبد الله حينما أفسح لها مكاناً في بلاده .

وعلى الرغم من أن السعوديين استمروا في مواصلة عملياتهم الانتقامية ضد الكويت ابتداء من عام ١٧٩٥ إلا أن هذه المناوشات لم تؤد إلى نتيجة إيجابية أخضعوها لسلطتهم في الإحصاء إلى تحول طريق تجارة الهند إلى أوسط شبه الجزيرة واستطاعت الإمارة خلال السنوات التالية أن تحرز انتصارات اقتصادية هامة ضد السعوديين حينما أدت للمشاكل والحروب المستمرة بين السعوديين والقبائل التي

(١) Brydges, sir Harford Jones An Account of His Majesty's mission to the court of Persia 1809-1808, To which is appended a brief History of the Wahanby, Vol. 2, p. 12.

أخضعوها لسلطتهم في الأحساء إلى تحول طريق تجارة الهند إلى أواسط شبه الجزيرة العربية^(١) عن مجراه المعتاد مروراً بالإحساء إلى البصرة والسكوت ، إذ أصبح هذان المينائين يستخدمان بدلاً من موانئ القطيف والعقير مدخلاً لشبه الجزيرة العربية مما أثار السوريون وجعلهم ينظرون بقلق بالغ إلى منافسة السكوت لموانئ الأحساء بل ومطالبتهم بنصيب من الأموال ، وبالفعل أعدوا حملة كبيرة للاغارة على السكوت في عام ١٨٠٨ ولكن أهالي السكوت نجحوا في مقاومة الحصار الذي فرضه السعوديون عليهم وتمكنت الإمارة أن تبقى بمنأى عن النفوذ السعودي الذي بلغ درجة كبيرة من الانتعاش في تلك الفترة وإن استمر الخطر السعودي مع ذلك جاثماً عليها . وهذا يفسر لنا شدة ترحيب شيخ السكوت بالتقدم الذي أحرزته للقوات المصرية التي زحفت على نجد وأسقطت الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى في عام ١٨١٨ ، بل إن بعض المصادر تؤكد مساعدة الشيخ جابر حاكم السكوت لابراهيم باشا القائد المصري أثناء حصاره الدرعية . ولكن تقدم القوات المصرية بعد إخضاعها نجد صوب سواحل الأحساء أدى بالضرورة إلى قيام علاقات بين مصر والسكوت .

وتؤكد المصادر الرسمية التي تناولناها أنه في عام ١٨٣٨ حينما وصلت القوات المصرية بقيادة خورشيد باشا إلى سواحل الأحساء أرسلت وكيلاً عنها ليقم في السكوت على أنه وكيل لشراء الإمدادات اللازمة للقوات المصرية ، ولاشك أن خورشيد باشا كان في حاجة شديدة إلى الاستعانة بأسطول السكوت التجاري الذي كان — كما تردد في أكثر من مصدر — أسطولاً كبيراً ومجهزاً تجهيزاً طيباً ، وإن لم يثبت لنا مع ذلك استفادة القوات المصرية بالأسطول السكوتي بدرجة كبيرة باستثناء شحنة وحيدة من التبخيرة والمعاد وصلت إلى القوات المصرية خلال احتلالها للأحساء حملتها التي القطيف سفينة كويتية من ميناء الجديدة على ساحل البحر الأحمر^(٢) .

على أنه لم يثبت أن اتضح الهدف الحقيقي من إقامة الوكيل المصري بالسكوت

(١) كانت طرق القوافل وسيلة من الوسائل الهامة لنقل البضائع من الهند إلى أوروبا . حيث كانت تمر من الخليج إلى أواسط الجزيرة العربية ومنها إلى حلب وقد أمدنا رحالة القرن الثامن عشر بوصف تفصيلي لهذا الطريق الذي كان يعرف بالطريق الصحراوي العظيم . انظر : أبو حاكم : تاريخ السكوت الجزء الأول ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٢) ج.ج. لوريتار : دليل الخليج ٠٠ المجلد الثالث ص ١٥١٥ الدوحة ١٩٦٧ .

وهو أن يسكون مبعوثاً سياسياً وجامعاً للأخبار المتعلقة بنجاح خطة خورشيد باشا قائد القوات المصرية في انتزاع العراق من الدولة العثمانية وذلك بإعداد حملة لغزو العراق من الجنوب . وكان شيخ الكويت يعامل المندوب المصرى معاملة ممتازة إذ كان يمنحه مقعد الشرف دائماً في كل مجالسه .

وتذكر الوثائق البريطانية أن الشيخ جابر حاكم الكويت الذى عاصر تقدم القوات المصرية كان صديقاً للحكومة البريطانية ، ولكن حدث خلال إقامة الوكيل المصرى أن عامل مسشولا بريطانياً وهو الليفتانت آدموندز معاملة تجافى اللياقة وذلك وجوده بالكويت للمفاوضة بشأن إنشاء خط بريدى عبر صحراء نجد ، بين الكويت إلى البحر المتوسط . وتضيف المصادر البريطانية أن حكومة الهند لم تجد مع ذلك ثمة ما يلزم لمعاينة الشيخ على تصرفه هذا ، مبررة أن الأمر لم يصدر عن نوايا سيئة ولكنه يهدف خداع الوكيل المصرى . وإن كنا لا نتفق مع هذا التبرير إذ أن شيخ الكويت لم يختلف عن بقية أمراء ورؤساء الخليج في شدة ترحيبه بالتقدم المصرى صوب سواحل الخليج تخلصاً من الضغط البريطانى من ناحية وتماطفاً مع القوات المصرية التى حققت انتصارات كبيرة في أواسط الجزيرة العربية ، والتي كانت تهدف في تقديرنا تحقيق الوحدة بين إمارات الخليج العربى (١) . وأغلب الظن أن الحكومة البريطانية لم تر ما يلزم لإيجاد أسباب لتوتر العلاقات بينها وبين الكويت خاصة عقب انسحاب القوات المصرية من الخليج وشبه الجزيرة العربية في عام ١٨٤٠/١٨٤١ ، ولذلك آثرت ألا تقوم بعمل من شأنه إحداث جفوة في العلاقات القائمة بينها وبين الكويت .

وعقب انسحاب القوات المصرية من نجد كانت الفرصة مواتية لكي يقفز إلى الحكم السعودى عبد الله بن ثنيان الذى أطاح بالحاكم السعودى السابق خالد بن سعود مستغلاً كراهية الأسرة السعودية له لقبوله حكم بلاده تحت الحكم المصرى . وقد أعقبه في الحكم فيصل بن تركى ١٨٤٢/١٨٦٦ وفى عهده حققت الإمارة السعودية الثانية

أقصى توسعها في منطقة الخليج العربي خاصة حينما أخضعت الإحساء واتخذت من المهفوف قاعدة للاغارة على بقية الإمارات العربية ، فأجبرت البحرين على دفع الجزية واستسلم حاكم قطر وقبل بدوره . ومنع الزكاة للسعوديين ، كما تمت القوة البحرية السعودية ووصلت إلى درجة كبيرة من التفوق إذ قدر أسطول السعوديين في ذلك الوقت بثلاثمائة سفينة حربية^(١) . ولكن مما يستلفت النظر أن موجة المد السعودي رغم اشتدادها لم تصل إلى إمارة الكويت إذ نجح حكامها إلى حد كبير في الاحتفاظ بعلاقتهم الودية مع السعوديين حتى أن هذه الإمارة لم تدفع الزكاة السنوية لهم على الرغم من شدة سطوتهم . والواقع أننا لا نجد تعليلاً مقبولاً لذلك . ومما يزيد الموقف غموضاً أن الكويت كانت تشكل مغنا عليها للسعوديين خاصة وأنها لم تكن قد ارتبطت حتى ذلك الوقت بماهدة مع بريطانيا على غرار غيرها من إمارات الخليج الأخرى التي اضطرت السعوديون إلى تخفيف ضغطهم عليها عقب التصريح الذي انتزعه الانجليز من الإمام فيصل بن تركي في عام ١٨٦٦ بعدم الاعتداء على الإمارات التي تربطها بريطانيا بمعاهدات خاصة ، بل وأكثر من ذلك كان شيوخ الكويت يتصلون بانتظام على نصيبهم من تجارة القوافل المارة بين الكويت ونجد كما كانت مواسم الحج تحدث انتعاشاً كبيراً في الإمارة .

وعلى الرغم مما تذهب إليه بعض المصادر من أن حكام الكويت استمروا منذ انسحاب القوات المصرية من الجزيرة العربية حتى عهد مبارك بن الصباح سنة ١٨٩٦ لا يبدون أي اهتمام بالأوضاع القائمة في نجد طالما كانوا يتصلون بانتظام على نصيبهم من التجارة العابرة إلا أننا نخالف هذا الرأي ونؤكده على اهتمام حكام الكويت بما كان يجري من أحداث في نجد خاصة خلال فترة الصراع الأسرى التي أعقبت وفاة الإمام فيصل بن تركي في عام ١٨٦٦ . إذ توقفت خلال هذه الفترة العلاقة بين حاكم الكويت وبين عبد الله بن فيصل الذي كان أخوه الأصغر سعود ينافسه في الحكم وتمكن بالفعل من انتزاع الإمارة لنفسه . ومن ذلك يمكن أن نذهب في الرأي أن اتجاه شيخ الكويت لتقديم المساعدة لقوات مدحت باشا عند احتلالها

(١) راجع في ذلك تقرير الكولونيل بلي إلى الرياض في عام ١٨٦٦ . نقل عن :
Aitchison, a Collection of Treaties, Engagements and Sands relating
to India & Neighbouring Countries, Vol. XI, Persian Gulf, p. 44.

للإحساء لم يكن مجرد طاعة للدولة العثمانية ، وإنما كان ذلك يتفق مع مصلحة الكويت وأمنها في معاونة شيخ الكويت حليفه الأمير عبد الله ضد أخيه سعود خاصة وأن مدحت باشا خلال المراحل الأولى من حملته على الإحساء كان حريصاً على إعلان الأمير عبد الله بالولاية على نجد^(١) ، ومن ناحية أخرى قدر شيخ الكويت أن مساعدته للحملة العثمانية ستؤدي إلى تخلص الكويت من سيطرة الأمير سعود على السواحل المتاخمة لإمارته من الجنوب ، وما يؤكد ذلك أن الكويت أصبحت بالفعل هدفاً لإغارة الأمير سعود في عام ١٨٧٢ هدد الأمير سعود مدينة الكويت ولكن الشيخ استطاع رد الهجوم بعد أن استدريج أنصاره بعيداً أو تمكن من أن يرغمه على الفرار . وحوالي عام ١٨٨٤ وكان واضحاً أن شيخ الكويت يناصر أمراء شمر من آل الرشيد الذين بدس مراءهم ضد السعوديين^(٢) .

وفي خلال الحكم العثماني للإحساء ١٨٧١ - ١٩١٣ تمت إمارة الكويت وانطلقت في التوسع جنوباً على حساب الحكم العثماني الذي تميز بالضعف العام^(٣) ، وفي عهد الشيخ مبارك بن الصباح الذي ولي الحكم في الفترة من ١٨٩٦ إلى ١٩١٥ استطاعت إمارة الكويت أن تنتهز فرصة الأوضاع المضطربة في نجد لتحقيق نجاح ملحوظ من التوسع على حساب الصراع الذي كان قائماً في هذه الفترة بين آل رشيد وآل سعود . وتفصيل ذلك أن الشيخ مبارك عمل على احتضان القضية السعودية في مراحلها الأولى^(٤) ، وكان يهدف من ذلك الاستعانة بالأسرة السعودية في توسيع

(١) انظر إعلان من مدحت باشا موجه إلى أهالي نجد في ٢٠ لابريل ١٨٧١ .

Cf. Essau to Pelly 197/7/1871.

Enclosure from Assistant Resident at Bahrei to the Resident in the Persian Gulf.

India Office Political & Secret Department, Letters from the Persian Gulf.

(٢) ج.ج. لوريغار : دليل الخليج ج ٣ ص ١٥٢٣ .

(٣) عرضت لنا الرحالة آن بلغت في رحلتها إلى نجد التي قامت بها في عام ١٨٨٠ صورة

للحكم الراهن الذي يميز به الحكم العثماني في ساحل نجد .

Cf. Blunt, Lady Anne, A Pilgrimage to Nejd, Vol. II, 265-268, London, 1881.

(٤) حافظ وهبه : شبه جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٢٥٨ القاهرة ١٩٥٦ .

إمارته على حساب الدولة العثمانية وآل رشيد في نجد ولكن ما كاد الأمير عبد العزيز ينجح في استرداد الرياض ١٩٠١ حتى أدرك جيداً أطماع مبارك مما كان له أثر كبير في توتر العلاقات بينهما . وقد وصل هذا التوتر إلى درجة كبيرة هددت بانفجار المواقف بين السعودية والكويت في الأيام الأخيرة من حكم الشيخ مبارك .

ويمكن تتبع العلاقات بين الكويت ونجد منذ سقوط الأسرة السعودية عقب معركة الميلاء سنة ١٨٩١ والتي بدأ في أعقابها أن الحسم في نجد قد استقر لآل رشيد ولذلك عندما تولى الشيخ مبارك حكم الكويت في عام ١٨٩٦ رأى أن يستعين بمن تبقى من أفراد الأسرة السعودية لتحقيق توسعته في نجد على حساب آل رشيد وعلى هذا النحو نصل إلى مرحلة هامة من المراحل التي مرت بها العلاقات بين الكويت ونجد وهي المرحلة التي تميزت بمحاولة الكويت التوسع في أواسط الجزيرة العربية ولكنها ووجهت بآل رشيد ومن ورائهم الدولة العثمانية . وقد أدت الأوضاع القلقة بين الكويت وآل رشيد في نجد إلى ملحة من أقوى الملاحم العسكرية التي وقعت بين القوى المحلية في نجد والخليج العربي وهو معركة العسيف في عام ١٩٠١ (١) .

ويتفق الرواة على أن أسباب هذه المعركة ترجع إلى اتجاه الشيخ مبارك إلى تحقيق رغبته في التوسع في نجد في الوقت الذي بدأت فيه الكويت تعاني من ضائقة التدهور الاقتصادي الذي طرأ عليها نتيجة إغارات قبائل ثمر المستمرة وتهديدهم طرق القوافل التجارية فضلا عن قطع طريق الحج إلى مكة . ووضع أن السبب في تدهور العلاقات بين الكويت ونجد حقد آل رشيد على الشيخ مبارك احتضانه من تبقى من زعماء الأسرة السعودية فضلا عن التعريصات التي كان يلقاها آل رشيد من الدولة العثمانية التي ظهر بالتالي حقدها على الشيخ مبارك لارتباطه بماهدة مع الإنجليز سنة ١٨٩٩ وعدم إعلان ولائه صراحة لها . وقد وجد الشيخ مبارك مؤيدين له من بعض القوى المحلية في الخليج كالشيخ سعدون شيخ المنتفق ، نظراً للعداوة التقليدية بينه وبين قبائل ثمر ، كما لقي الشيخ مبارك تأييداً من أمراء بريدة

وعنيزة في القصيم آل سليم وآل مهنا، إلى جانب قبائل مطير والمعجمان القاطنية في الإحساء هذا بالإضافة إلى المساعدات البحرية التي أسداها إليه صديقه الشيخ خزعل خان شيخ المحمرة . ولذلك تمكن مبارك أن يحرز انتصارات ملحوظة في التحركات الأولى من ذلك سقوط مقاطعة العارض التي أسند إدارتها للأمير عبد العزيز ابن سعود الذي كان يرافقه في حملته ، كما نجحت القوات الكويتية وخلفائها من القوات الأخرى إسقاط العضم ، ولكن عند بئر صغير على مقربة منها نشبت معركة بين الفريقين انتهت بهزيمة الكويت هزيمة أليمة وأصبح الطريق أمام آل رشيد مفتوحاً لإسقاط الكويت خاصة بعد أن أشيع مقتل الشيخ مبارك في المعركة . ولم ينقذ الكويت من المصير الذي كان من المؤكد أن تنساق فيه إلا مراوغة مبارك السياسية الذي سارع بالذهاب إلى انفاو ليرق إلى الدولة العثمانية بولائه لها ، وأجابته الدولة العثمانية على شعوره الموالي بإصدارها فرمان أكدت فيه اعتباره قائماً رسمياً على قضاء الكويت^(١) . ولم يكتف الشيخ مبارك بذلك بل إنه اضطر إزاء ضغط عبد العزيز آل رشيد وحصاره لإمارته أن يطلب المساعدة من البحرية البريطانية التي كانت ترقب تطور الأوضاع على مقربة من ميناء الكويت^(٢) وعلى الفور هرعت ثلاثة بوارج بريطانية إلى الميناء لنجدة سكان الكويت مما اضطر قوات آل رشيد على أن ترحلها إلى التراجع عن غزو الكويت^(٣) .

وعلى الرغم من نجاح الأمير عبد العزيز بن سعود في العام التالي من معركة الصريف من استرداد الرياض فإن خطر آل رشيد ظل ماثلاً أمام الكويت وهذا

(١) وضع أن الشيخ مبارك قد ارتبط في عام ١٩١٠ بولاء مزدوج للدولة العثمانية وبريطانيا وقد اتفقت الدولتان في ذلك الوقت على المحافظة على الوضع الراهن في الكويت راجع في ذلك :

Télégramme de sublime porté au représentant ottoman à Londres 919/1901 cf. Gooch and Temperly, British Documents on the Origins of the War, vol. X, Part II, p. 49, see also Memorandum respecting Koweit, p. 7 ff., F.O. 78-5174.

Rouire, La question du Golfe Persique, Le règlement de Mascate et de Koweit, pp. 370-371. (٢)

Cf. Memorandum Respecting Koweit, pp. 14-16, Foreign Office 78-5174. (٣)

يفسر لنا حرص الشيخ مبارك على تقديم مساعدات فعالة للأمير عبد العزيز بن سعود ومعاونته في توطيد دعائم حكمه وتزويده بالخطط العسكرية التي تعينه في التخلص من غريمه ابن الرشيد . وقد استمرت المساعدات الكويتية تصل إلى الأمير عبد العزيز في نجد ، سواء كانت مساعدات كويتية خالصة أو مساعدات بريطانية كانت تصل إلى عبد العزيز عن طريق الكويت ، حتى مقتل الأمير عبد العزيز بن الرشيد في روضة المهنا في عام ١٩٠٦ .

ويتضح لدينا من مراقبة تطور الأوضاع بين الكويت ونجد أن المساعدات التي كانت تقدمها الكويت لآل سعود كانت تهدف بها أساساً استغلال التنافس بين آل سعود وآل رشيد لتحقيق قدر من التوسع الإقليمي في أواسط نجد على حساب الطرفين المتصارعين . وفي عام ١٩٠٤ دخل العثمانيون كمنصر هام في هذا الصراع وذلك بمساندتهم لحلفائهم من آل رشيد^(١) . ويستدل من الروايات المختلفة المتعلقة بتاريخ نجد إرسال الدولة العثمانية قوة عسكرية قامت من البصرة متجهة إلى أواسط نجد بهدف معاونة آل رشيد بيد أن هذه القوة لم تلبث أن ووجهت بهزيمة شنيعة على يد ابن سعود وحلفائه في التصميم ، فأعد العثمانيون حملة أخرى في العام التالي ١٩٠٥ وهنا وجد شيخ الكويت أن الفرصة سانحة ليمرض وساطته بين الأطراف المتنازعة وبالفعل عقد اجتماع هام في صفوان أعقبه اجتماع آخر قرب آبار الكاشانية في المنطقة بين الكويت والبصرة في عام ١٩٠٥ حيث اجتمع عبد الرحمن بن سعود بمخلى باشا والي البصرة وبحضور الشيخ مبارك أمير الكويت . وفي هذين الاجتماعين بحثت عدة اقتراحات من قبل والي البصرة كانت تهدف إلى إبقاء القسم من منظمة عازلة بين آل سعود وآل رشيد على أن يكون فيها للدولة العثمانية حامية عسكرية في كل بريدة وعنيزة حتى يتم إقرار الصلح النهائي بين حائل والرياض .

(١) كانت الحكومة البريطانية تراقب تدخل الدولة العثمانية في الصراع بين آل رشيد وآل سعود وقد بادرت بتعيين أول وكيل سياسي لها في الكويت وهو الكاتب نويس لمراقبة الأوضاع في أواسط الجزيرة العربية وإن كانت تحرص على ألا يستمر وجود هذا الوكيل انتباه السلطات العثمانية .

وعلى الرغم من موافقة الأطراف المعنية على هذه الاقتراحات إلا أنها لم توضع قط موضع التنفيذ ويرجع ذلك إلى اضطرار الدولة العثمانية بسبب حامياتها العسكرية من أواسط نجد لمواجهة متطلبات الموقف العسكري في اليمن الناجم عن الثورة التي قامت في عام ١٩٠٤ . وهكذا أصبح الموقف قائماً دون حل تقريباً وإن كان قد ظهر من خلال ذلك شدة استياء الأمير عبد العزيز بن سعود من شيخ الكويت الذي لم يساعده في موقفه . والثابت لدينا أنه على الرغم من أن شيخ الكويت قد عرض الوساطة على كل من الدولة العثمانية وآل سعود وآل رشيد إلا أنه رفض القيام بدور إيجابي لصالح حليفه ابن السعود ، وقد أحدث ذلك استياء من قبل الأمير عبد العزيز عبر عنه بإرسال ممثلين من قبله بحجة القوافل النجدية التي تكنتل من الكويت بهدف استيفاء الرسوم المقررة على التجارة قبل مغادرتها الكويت ، وانسيابها في صحراء نجد . وقد قام بهذا التصرف دون أن يشاور شيخ الكويت بشأنه مما كان سبباً لاستياء الشيخ مبارك الذي عد هذا التصرف نكراً لجليه واعتداءً على سلطته . ورداً على ذلك أخذ مبارك يبدى تقارباً ملحوظاً مع الأمير عبد العزيز الرشيد بل وطلب منه في إحدى الرسائل التي كان يبعث بها إليه أن يرسل من قبله مبعوثاً لكي يتفاوض معه في عقد مهادنة من شأنها التضييق على الأمير عبد العزيز ابن سعود والوقوف ضد خططه التوسعية في نجد . وبالفعل أمكن في عام ١٩٠٥ الوصول إلى اتفاقية سرية بين الطرفين نصت على أن يلتزم الشيخ مبارك بجانب الحياد التام في حالة نشوب الحرب بين آل رشيد وآل سعود ، ووضح أن الشيخ مبارك كان يرمى من وراء تشجيعه آل رشيد بتحقيق أهداف ثلاثة :

أولها — تقليل نفوذ ابن سعود في نجد الذي أصبح يشكل خطراً على الكويت .

وثانيهما — إحباط مساعي خصمه العنيد يوسف الإبراهيم الذي كان يقلقه وينازعه في الحكم وذلك بتأييده لقضية أبناء أخوة الشيخ مبارك . والذي كانت تربطه روابط صداقة بآل رشيد .

وثالثهما — استعواذه على رضا الدولة العثمانية حينما تعلم بمصافاته لحليفها ابن الرشيد^(١) .

(١) حسين خلف الشيخ خزعل : تاريخ الكويت السياسي ، ج ٣ : ص ١٨٦

وعلى أثر توقيع تلك الاتفاقية التي بدأ منها انحيازاً واضحاً من قبل الكويت لآل رشيد ، أخذت الكويت تقدم مساعدة فعالة لآل رشيد من ذلك تشجيع الشيخ مبارك للبدو ، الذي كان يملك عليهم تأثيراً خاصاً ، في الاعتداء على القبائل التابعة لابن سعود وبثه الدعاية بين أعراب نجد مشجعاً أيّامهم على التمرد على سلطة عبد العزيز بن سعود .

ولكن قوة عبد العزيز بن سعود الصاعدة في أواسط نجد مكنته من التصدي لآل رشيد وإحاقه الهزيمة بهم في العام التالي ١٩٠٦ وقتل الأمير عبد العزيز ابن الرشيد في روضة الهنا (١) . وأصبح الموقف يحتم على الكويت أن تساند بكل قوتها قضية آل رشيد أكثر من أي وقت مضى خاصة بعد أن تداعت قوتهم في نجد ومات حليفهم يوسف الإبراهيمي الذي عرف بعدائه الشديد لمبارك .

وغداة وصول متعب بن الرشيد إلى الحكم أرسل إليه مبارك يهنئه بالإمارة ، ويعزيه في وفاة والده ويقرر أن حائل والكويت شقيقتان ومصالحة البلدين واحدة ويطلب منه التعاون معه في تخليص نجد من سلطة السعوديين التي تخشاهما الكويت بقدر ما تخشاهما حائل . بيد أن هناك إجماع بين المصادر التي تناولناها أن الشيخ مبارك كتب إلى عبد العزيز بن سعود في نفس الوقت يؤكد له أنه مستعد لتقديم المساعدة له للقضاء على حكم آل رشيد ويهنئه بالانتصار عليهم في روضة الهنا . وتضيف هذه المصادر أنه حدث خطأ في تبادل هذه المراسلات مما كان سبباً لإحراج مركز مبارك .

ومع ذلك فقد بدأ في عام ١٩٠٦ محاولة الشيخ مبارك أن يجعل من نفسه محكما في النزاع بين آل سعود وآل رشيد وذلك بإعداده مشروعاً خيالياً لتقسيم وسط الجزيرة العربية بحيث يصبح جبل شمر وما حوله ملكاً لآل رشيد ومعظم أجزاء نجد الجنوبية لآل سعود بينما يستولى لنفسه على القصيم وممتلكات السعوديين

في كل من وشم والسدير والدواسر . وظهر أن إمارة الكويت — بذكاء شيخها ودهائه الذى وصفه البعض بأنه يقرب من دهاء ريشيلية — أصبحت بالفعل القوة المسيطرة على الموقف في المقاطعات المتأخمة لها في أواسط الجزيرة العربية ، وأخذت قوافل الحج تنساب من الكويت إلى مكة بسلام بعد أن كانت قد انقطعت منذ عدة سنوات نتيجة طبيعية للحروب المتواصلة في نجد . وقد قدر الخارجين للحج في عام ١٩٠٦ بأكثر من ألف نسمة^(١) .

على أن مشروع التقسيم الذى كان يدور في مخيلة مبارك لم يلبث أن قضى عاياه الأمير عبد العزيز بن سعود قضاءً مبرماً حينما سارع بوضع الشيخ أمام أمر واقع وذلك باستيلائه على التقسيم وإعلانها مقاطعة تابعة له . وكان سقوط التقسيم يعنى خضوع أواسط نجد للسلطة السعودية كما كان يعنى في نفس الوقت أن الطريق قد أصبح مفتوحاً لتوسعات سعودية في شرق الجزيرة العربية وأصبحت ضرورات الموقف تحتم على الشيخ مبارك أن يعود مرة أخرى إلى أساليب المراوغة التي اشتهر بها وذلك بإظهار صداقته للأمير عبد العزيز الذى بدأ نجمه يبرز إلى مجال القوة والسيادة في أواسط الجزيرة العربية . وبالفعل أبدى الشيخ مبارك في ذلك الوقت تقارباً ملحوظاً مع الأمير عبد العزيز حينما حاول أن يظهر بطريقة عملية أنه لا يزال عوناً له في تخليصه من مشاكلكه ، وقد بذل في هذا الموقف بالذات جهوداً ملحوظة في الوساطة في النزاع الذى نشب بين الأمير عبد العزيز وبين أقاربه من العرائف حينما قام هؤلاء بثورة أسرية تزعمها بعض المطالبين بالحكم للفرع الأكبر من أحفاد عمه سعود في مقاطعتي الحرج والحريق ١٩١٠/١٩١١^(٢) .

وفي عام ١٩١٣ كان مركز عبد العزيز قد أصبح قوياً بدرجة تمكنه من فتح الإحساء فاتهنز في ذلك فرصة انشغال الدولة العثمانية في حروبها في البلقان واضطرت الدولة العثمانية إلى التفاوض معه . ولكن الشيخ مبارك كان قلقاً

(١) لوريغار : دليل الخليج ج ٣ ص ١٥٦٣ — الدوحة ١٩٦٧ .

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ إلى

١٩١٤ ص ٣٠٩ — القاهرة ١٩٦٧ .

لاستيلاء عبد العزيز على الإحساء معتقداً أن أطباع الأمير لن تتوقف عند حد وقد أبدى استياءه. وشدة لومه للدولة العثمانية التي تخلت عن الإحساء دون مقاومة^(١)، وعدم إطلاعة على نتيجة البحوث التي دارت بينها وبين بريطانيا في لندن والتي تناولت الكويت وغيرها العربي من إمارات الخليج العربي^(٢).

ومرة أخرى يحاول الشيخ مبارك أن يظهر بمظهر الوسيط الذي يمكن أن يسوى عن طريقه النزاع بين عبد العزيز والدولة العثمانية بشأن الإحساء، ولا شك أنه تشبث في القيام بذلك الدور حتى يضمن تسوية الأمور بالشكل الذي يروقه. بيد أنه — الأمير عبد العزيز — لم يخف عليه ما كان يقصده الشيخ مبارك من إصراره على أن يكون اجتماع التوفيق في الكويت، وهو ألا يكون للأمير عبد العزيز الرأي البات سيما إذ أجمع مع مبارك في مجلس واحد ولذلك رفض عبد العزيز الحضور إلى الكويت مفضلاً أن يعقد الاجتماع في الصبحة وهي قرية تقع بين الكويت والإحساء^(٣).

وكان يرأس الوفد العثماني السيد طالب بك نقيب الأشراف في البصرة وقد وصل الوفد أولاً إلى الكويت حيث أمضى وقتاً في ضيافة مبارك ثم انتقل إلى الصبيحة وقد أوفد مبارك ابنه جابر لمقابلة الوفد السعودي بيد أن الشيخ مبارك لم ينجح هذه المرة في سياسته ذات الوجهين التي حاول اتباعها بالنسبة للدولة العثمانية والأمير عبد العزيز إذ فطن الفريقان إلى حقيقة ما يرمى إليه مبارك الذي أرسل كتاباً إلى الأمير عبد العزيز برفقة ابنه جابر يؤكد له ضعف الدولة العثمانية ويحذره من الانصياع لمطالب الوفد العثماني في الوقت الذي كان يؤكد فيه للوفد العثماني

(١) صلاح المقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي — ص ٢٥٠ — القاهرة

سنة ١٩٦٦.

Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, vol. I, p. 269 ff., Gooch and Temperby.

وكذلك:

British Documents on the Origins of the War (1871-1914), vol. X, Part II, pp. 177 ff.

(٣) حسين خلف الشيخ خزعل: تاريخ الكويت السياسي ج ٣: ص ٢٣ —

بيروت ١٩٦٢.

ضمت عبد العزيز ، وعدم مقدرته على مواجهة الدولة العثمانية فضلا عن التهوين من شأنه .

ولذلك أصبح واضحاً من التسوية التي تمت بين عبد العزيز والدولة العثمانية أن الكويت خسرت معركة الصبيحية السياسية بعد أن أصبح النفوذ السعودي حقيقة معترف بها رسمياً في الإحساء . ذلك أن اتفاقية الصبيحية عام ١٩١٤ نصت على إلحاق منطقة الحسا بإمارة نجد واعتبار الاثنتان ولاية واحدة من ولايات الدولة العثمانية على أن يكون الأمير عبد العزيز والياً وقائداً عاماً واسع الصلاحيات مع احتفاظه بحق إنشاء قوات عسكرية بهدف حفظ الأمن داخل الولاية . وفي هذه المناسبة أغدقت الدولة العثمانية على الأمير لقب باشا ، وقدم ناظر الحربية أنور باشا وساماً إلى الأمير عبد العزيز مشفوعاً بهنئة رقيقة على إخلاصه للدولة^(١) .

وتذكر المصادر السعودية أن الأمير عبد العزيز لم يقدم على التفاهم مع الدولة العثمانية إلا تقديراً للمشاحنات ولقطع على الإنجليز أية محاولة للسيطرة على الإحساء لأن الدولة العثمانية خلال مباحثاتها مع الإنجليز في ذلك الوقت كان لا يمكن أن تتنازل عن الإحساء^(٢) . أما الدوائر العثمانية فقد رحبت بعقد تسوية مع الأمير عبد العزيز لأن من شأن هذه التسوية تجنب الأمير الارتباط بأية معاهدة مع الإنجليز ، وإن كانت ظروف الحرب العالمية الأولى التي اندلعت في ذلك الوقت مكنت للأمير عبد العزيز تجاهل ارتباطه بالدولة العثمانية وينحاز إلى جانب الإنجليز .

وعلى الرغم من أن الشيخ مبارك قد اضطر إلى أن يبعث إلى الأمير عبد العزيز بهنئة بتوصله إلى اتفاق مع الدولة العثمانية إلا أنه في نفس الوقت كان يتحين الفرصة للإيقاع بالنفوذ السعودي الذي عدّه يشكل خطراً على إمارته . وأخذ الشيخ ينحاز أكثر من أي وقت مضى إلى آل رشيد وظهر ذلك واضحاً خلال المعركة التي

(١) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي : دراسة لتاريخ الإمارات العربية من ٣١١ الهجرية ١٩٦٧ .

(٢) صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وأحاضرها ج ٢ ص ١٥٨/١٥٩ - بيروت ١٩٥٧ .

نشبت بين الأميرين وعرفت باسم موقعة أجراب ١٩١٥ . ولكن نتيجة المعركة أقرب ما تكون إلى التعادل بين الطرفين المتصارعين . وكان من سوء حظ مبارك أن انكشفت سياسته ذات الوجهين التي كان يتبعها حينما وقعت في أيدي آل رشيد حافظة أوراق ابن سعود والتي يحتمل كثيراً أن يكون قد تمعد وقوعها في أيدي أعدائه ، وكان بها رسالة من الشيخ مبارك يحرصه فيها على آل رشيد وفي نفس الوقت الذي كان يمرض فيه آل رشيد على ابن سعود^(١) وكان من نتيجة ذلك أن أرسل الأمير متعب بن الرشيد قلة من جنوده أغارت على أطراف الكويت . كما توترت العلاقات أيضاً في أعقاب معركة أجراب بين الكويت وابن سعود وظهر ذلك واضحاً حينما انتهزت قبيلة العجمان فرصة ضعف عبد العزيز وحاولت استرجاع ما كان لها من نفوذ على الإحساء ذلك النفوذ الذي كانت تتمتع به خلال الحكم العثماني الواهن .

وقد خشى عبد العزيز من مواجهة ثورة العجمان خوفاً من التجاؤم إلى الكويت وبذلك يتيح الفرصة لمبارك أن يستعين بهم عليه ولذلك لم يتقدم لقمع ثورة العجمان إلا بعد أن انتزع وعوداً مؤكدة من الشيخ مبارك بالألا يمنهم حق اللجوء أو الاحتماء به في حالة وصولهم إلى إمارته .

وكان من حسن حظ الأمير عند العزيز تأييد الحكومة البريطانية له في سياسته التي كانت تهدف إلى تقويته على خصومه من آل رشيد لكي تخفف من حالات الضغط التي كان يقوم بها القبائل الموالية للشريف حسين وحق تشغله عن هذا الاتجاه طلبت من الشيخ مبارك أن يمد الأمير عبد العزيز بقوة تساعد على قهر قبائل العجمان كما يتفرغ لآل رشيد^(٢) ، واضطر الشيخ مبارك أن يقدم بالفعل مساعدته لعبد العزيز لقمع ثورة العجمان ويبدو أنه فعل ذلك بعد أن قدمت له الحكومة البريطانية وعوداً خاصة بحماية إمارته من أي ضغط يقع عليها من قبل المقاطعات الخاضعة لعبد العزيز في الإحساء . وإن كان الشيخ مبارك — فيما هو ثابت

(١) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ج ٢ ص ١٨٢ — بغداد ١٣٦ .

لدينا — لم يكن مخلصاً في تقديم المساعدة ويمكن أن نستدل على ذلك من التلميحات التي زود بها قائد جيشه الشيخ سالم بعدم معاونة عبد العزيز ضد العجمان في حالة انتصارهم عليه إذا غلبهم ابن سعود فنحن معه وإذا هم غلبوه فلا تساعدهم في حالة انتصارهم عليه « إذا غلبهم ابن سعود فنحن معهم وإذا هم غلبوه فلا تساعدهم عليه » .

وحينما انتصر عبد العزيز على العجمان أفسح لهم مبارك مكاناً في بلاده فوردها قسم كبير منهم وأخذوا يبيعون ما نهبوه من الإحساء في أسواق الكويت (١) ، مما جعل عبد العزيز يتذرع بمطاردته العجمان لعزير الكويت . ولم ينفذ الإمارة من الهجوم السعودي ألا تدخل الحكومة البريطانية وموت الشيخ مبارك في أواخر ذلك العام ١٩١٥ (٢) .

ووضع التدخل البريطاني لحماية الكويت وغيرها من إمارات الخليج من التوسع السعودي بمقد بريطانيا اتفاقية دارين ١٩١٥ مع الأمير عبد العزيز آل سعود وقد اعترفت في هذه المعاهدة بتسمية نجد والإحساء والقطيف والجبيلي وملحقاتها والموانئ التابعة لها على ساحل الخليج للأمير عبد العزيز وباعتباره حاكماً مستقلاً على هذه الأراضي ورئيساً مطلقاً على جميع القبائل الموجودة بها وتعترف لأبنائه وأعقابه من بعده بذلك بشرط ألا يكون أى منهم ضد المواد التي نصت عليها الاتفاقية وقد تعهد ابن سعود من جانبه بالألا يتداخا في أراضي الكويت والبحرين وإمارات الساحل العمانى التي تربطها ببريطانيا معاهدات خاصة . والجدير بالذكر أن عبد العزيز استمر ملتزماً بشروط هذه الاتفاقية ومحافظاً على العلاقات السلمية خلال سنى الحرب العالمية الأولى . ولكن لم يلبث أن حدث خرق صريح من جانبه لهذه الشروط في أعقاب الحرب العالمية الأولى إذ انتهز فرصة امتناع الحكومة البريطانية عن دفع الإعانة السنوية التي كانت تدفعها له توفيراً لنفقاتها مما كان سبباً

(١) حافظ وهبة : شبه جزيرة العرب في القرن العشرين ص ١٥٨ — القاهرة سنة ١٩٥٦ .

(٢) حلل عبد العزيز الرشيد في كتابه تاريخ الكويت أسباب العداء بين ابن سعود والشيخ مبارك ج ٢ ص ١٨٠ — طبعة بيروت .

في استئناف نشاطه على سواحل الخليج متعللاً بحاجته إلى المال . وكانت لا بد من اصطدامه بالكويت وبغيرها من إمارات الخليج . ذلك أن الأمير عبد العزيز على الرغم من سلطته أصبحت مؤكدة على الإحساء وبدأ يتخذ من موانئها منفذاً طبيعياً لإمارته إلا أنه لم يلبث أن اتضح لديه أن إمارة الكويت تنافس موانئ الإحساء منافسة اقتصادية بعيدة المدى كما تأكد لديه أيضاً أن جميع القبائل النجدية تؤثر في معاملاتها التجارية الكويت على الموانئ الأخرى التي خصصت للإدارة السعودية في سواحل الإحساء . وقد ر عبد العزيز مدى الخسارة المادية التي تلحق به لعدم تمكنه من الاستفادة عوانى الجبيل والقطيف وغيرها ولذلك بذل عدة محاولات لإجبار البدو النابمين له على الاكتيال من موانئ الإحساء بيد أنه لم يجد ترحيباً منهم في ذلك . ولم يلبث أن أدرك أن نتيجة هذا التضييق الشديد هو تعرضه لأزمة اقتصادية لا تقل عن الأزمة التي يمكن أن تتعرض لها الكويت ولذلك أبدى استعداده أن تستمر الكويت في التعامل مع نجد بشرط استيفاء الرسوم الجركية على الأموال التي تخرج منها إلى نجد لحسابه الخاص ولكن حكاه الكويت رفضوا أن يكونوا مخلصين أو جباة ضرائب لعبد العزيز (١) .

ومما ساعد على استمرار التوتر في العلاقات بين نجد والكويت هجرات العجمان المتوالية إلى الكويت ولجؤهم إلى حكاهما ناشدين الأمن من تعقب قوات عبد الله ابن جلاوى لهم . ولم يلبث أن انفجر الموقف بين نجد والكويت حينما برزت إلى الوجود مشكلة الحدود بين البلدين وظهر ذلك واضحاً خلال عهد الشيخ سالم بإمارة الكويت الذي بات في يقينه أن تحركات ابن سمود المستمرة على أطراف الكويت الجنوبية إنما يستهدف بها القضاء على الاتفاقية الانجليزية التركية الموقعة في يوليو سنة ١٩١٣ والتي أصرت الحكومة البريطانية رغم هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى أن تعتبره متعملاً التزاماتها باعتبارها وريثاً في ولاية نجد وسواحلها . ولذلك أخذ الشيخ سالم يشدد أحكام الإدارة المباشرة بل والصارمة في كثير من الأحيان على إمارته تمادياً لحالة التهديد التي أخذت الكويت تتعرض

(١) راجع مشكلة المسابله بين نجد والكويت في مؤلف أمين الريحاني : ملوك العرب ،

أو رحلته في البلاد العربية ج ٢ ص ١٦٢ ١٦٤ — بيروت ١٩٢٩ .

لها من قبل القبائل التابعة لابن سعود، كما عمل سالم في نفس الوقت على تطبيق إدارته على القبائل القاطنة في الجنوب بين الأحساء والكويت .

وكان الشيخ سالم على درجة كبيرة من القلق خشية طموح عبد العزيز وتابعه في ذلك الوقت فيصل الدويش وخاصة بعد أن بلغته أنباء المعركة التي دارت بين عبد العزيز وقوات الشرافة في تره سنة ١٩١٩ ولقد كان عزم على تثبيت الحدود بين الكويت والأحساء^(١) وكان يرى أن تنتهي حدود الكويت الجنوبية عند نقطة تبعد من قلب الإمارة بنحو مائة وخمسين ميلاً ومن هذه النقطة تأخذ خطاً مستقيماً نحو الشرق أي بمحاذاة ساحل الخليج العربي بحيث تنتهي عند دوحة البلبول وكانت هذه المنطقة تتميز بغزارة مياهها وصلاحيها لمرسى السفن وقربها من مناصب اللؤلؤ ولذلك كانت كثيراً ما تفتد إليها العشار الكويتية لرى ماشيتها . ورأى سالم تثبيتاً لحقوق الكويت تشييد قلعة ويتخذ من دوحة البلبول ميناءً صغيراً ينافس به ميناء الجبال، ولما بلغ الأمير عند العزيز ما يقوم به الشيخ سالم أمر تابعه ابن شقير بالإستيلاء على جربا المليا، وهي مكان يقع إلى الشمال الغربي من دوحة البلبول وبالفعل بدأت جماعات من الإخوان تصل إلى المنطقة وشرعوا في تأسيس بعض الحجر فيها ومعنى وصول السعوديون إلى جربا المليا وهو وضوح الرغبة للتعدى على المقاطعات الأساسية لإمارة الكويت . ولذلك كان لا مفر أمام سالم من الاستجداء بالانجليز وبالفعل قدم الانجليز العون إلى الكويت حينما وجهوا إنذاراً للأمر عبد العزيز عن طريق المأجور مور المعتمد السياسي في الكويت وقد جاء في ذلك الإنذار أن الحكومة البريطانية لا تعترف بامتلاكات الأمير عبد العزيز إلا في داخلية الحدود المقررة لولاية نجد في نطاق الاتفاق الانجليزى التركى السابق توقيعه بينها وبين الدولة العثمانية في يولية ١٩١٣ . وإن عليه الالتزام بهذا الاتفاق والجدير بالذكر

(١) لم يلق موضوع الحدود الشمالية الشرقية للجزيرة العربية اهتماماً من الدارسين بعكس ما لقيه الحدود الجنوبية الشرقية التي أفرد لها كلى Kelly دراسة خاصة بعنوان :

The Eastern Arabian Frontiers, London, 1965.

ولعل لإثارة المشكلة الخاصة بالبورى كانت دافعاً لمزيد من الدراسات وإعلان كل من الحكومة السعودية والحكومة البريطانية رأيها بشأن هذه المشكلة .

أنه على الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت تبدي عدة اهتمامها على أن تظل الشروط الواردة في الاتفاق الانجليزي التركي نافذة من قبل الأمير عبد العزيز ، وكانت تحصر في مناسبات كثيرة على تذكيره بتلك الاتفاقية إلا أنها من ناحية أخرى كانت تعتمد تجاهلها بالنسبة لملاقمتها مع شيوخ الكويت متملة بأن هذه الاتفاقية قد ألغيت بمقتضى المادة السادسة من اتفاقية دارين الموقعة بين بريطانيا والأمير عبد العزيز في عام ١٩١٥ .

وليس لدينا من تحليل لهذه الملاحظة غير أن بريطانيا كانت تقصد من وراء ذلك وضع حد للتوسع السعودي في سواحل الخليج في نفس الوقت الذي لا يتيح فيه لإمارة الكويت التمسك بالحدود المقررة لها في تلك الاتفاقية وبذلك تعطى لنفسها الحرية السكافية في وضع ما تراه من تسويات على حساب إمارة على أخرى كما حدث بالفعل في تخريطها للحدود المشتركة بين الكويت ونجد والعراق وبهذه المناسبة قدمت الحكومة البريطانية تليفاً إلى الشيخ سالم في ٩ يولي ١٩٢٠ بإبطال اتفاقية ١٩١٣ ورد سالم على هذا التبليغ بإعلان استنكاره لإبطال مفعول الاتفاقية التي كانت تطالب بها إمارة الكويت .

وعلى أثر اشتداد غارات السعوديين على الكويت أبدى الأمير عبد العزيز في مقابلة تمت بينه وبين السير برسي كوكس اللندوب السامى في العراق (١) أن تساعد الحكومة البريطانية في ضم الكويت إلى مقاطعاته مشيراً إلى الاقتراح الذي سبق أن أدلى به فيلبي قبل ذلك بعدة سنوات . ولكن الحكومة البريطانية رفضت هذا الاقتراح كلية ولا يعرف السبب الحقيقي لذلك الرفض وإن كان البعض يعلله باحتمال وجود النفط بالكويت ورغبة الحكومة البريطانية أن تتمتع بالامتيازات التي تعهدت الكويت بها . وفضلا عن ذلك فإن السياسة العامة للحكومة البريطانية كانت تفضل وجود وحدات سياسية صغيرة لأن وجود هذه الوحدات أدعى إلى بقائها مسيطرة عليها لأطول فترة ممكنة .

ولم تلبث أن تصاعدت الأزمة الكويتية النجدية بقيام غارة واسعة النطاق قام

(١) راجع مقابلة الصير بن السير نرسى كوكس وعبد العزيز بن سعود في حسين خلف تاريخ الكويت السياسي — ج ٢٥٧٣ .

بها الأخوان على قرية الجهرة ومحاصرة الشيخ سالم في القصر الأحمر^(١) . وعرض فيصل الدويش شروط الصلح بدمانها أهالي الكويت بمروقهم عن الإسلام ومطالباً بضرورة هدم المستشفى الأمريكي وإحراج القنصل البريطاني من الكويت إلى جانب زحيل الشيعة من الكويت .

ورد سالم مستنكراً الشرط الأول ومبدياً استعداده لإزالة ما يمكن من فساد بينما رفض الشروط الأخرى . ولا شك أن سالمًا اعتمد في رفض شروط الدويش على موقف الحكومة البريطانية المؤيدة له ، ذلك أن الاتصالات الرسمية دارت بين المعتمد البريطاني في الكويت وبين المندوب السامي في بغداد والمقيم السياسي في الخليج وتمدت هذه الاتصالات حكومتى الهند ولندن التي اتفقتا على إرسال قوات بحرية وجوية بهدف حماية الكويت . وبالفعل أبلغ الدويش بأن الحكومة البريطانية باسطة حمايتها على الكويت وأن الذين يحاولون الهجوم عليها يعرضون أنفسهم لقذف الطائرات والسفن الحربية البريطانية^(٢) .

وليس هناك شك في أن غزو الدويش كانت بناء على وامر من عبد العزيز آل سعود ويفهم ذلك من رد الدويش على الإنذار البريطاني من أن التحركات التي يقوم بها إنما هي بتكليف ابن سعود . ومع ذلك فقد اضطر الدويش إلى الانسحاب إزاء الموقف العاصم الذي وقته الحكومة البريطانية لحماية الكويت^(٣) .

وحاول المعتمد السياسي البريطاني في الكويت ، منتهزاً فرصة الاضطرابات التي وقعت بين نجد والكويت تسويه الحدود فيما بينهما ، إلا أن الكويت أصرت

(١) سيف مرزوق الشعلان — من تاريخ الكويت ص ١٨٦ وكذلك عبد العزيز الرشيد تاريخ الكويت — الجزء الثاني ص ٢١٦ .

(٢) صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية ماضيها وحاضرها ج ٢ ص ٢٢٩ بيروت ١٩٥٧ .

(٣) راشد عبد الله الفرحان — مختصر تاريخ الكويت وعلاقته بالحكومة البريطانية والدول العربية -- ص ٩٢ . - القاهرة ١٩٦٠ .

على الاعتراف بمحدودها من جزيرة العمار جنوباً قرب انطاع وإلى جهرة واليبانة
واللصانة إلى حكر الباطن وشمالاً إلى جبل سنام وسنام وسكون وأم القصر وأن يكون
كل من حاكم نجد والكويت مسئولاً مسئولية مباشرة عما يجرى في حدوده من
تعديات البدو القاطنين ، وأن يكون للعشائر البادية الحرة التامة في الانضمام إلى
تبعية أى حاكم يرويه أقدر من غيره على حمايتهم وأن تكون هناك ضمانات كافية
لحرية التجارة ، وإذا حدث نزاع بين البدو فالفصل فيه من سلطة الحكامين إلا إذا
عجزا عن التوفيق فيرجع الأمر إلى وكلاء الحكومه البريطانية .

على أن وفاة الشيخ سالم ، والذي عرف بعدائه لعبد العزيز بن سعود ، أدى إلى
توقف ابن سعود عن معاداته للكويت ، ولكنه لم يلبث أن وجه إليها ضربة
اقتصادية بالغة الخطورة حينما عاد إلى تشديد عمليات الحصر الاقتصادي عن التعامل
مع الكويت وقصر التعاملات التجارية على جمارك جبيل والعقير وتعلل ابن سعود
بعدم استفادته من الضرائب التي ينبغي أن تفرض على رعاياه الذين يتعاملون مع
الكويت في الوقت الذي هو في أشد الحاجة إلى أموال يستعين بها في تثبيت مركزه
في الحكم . وفي عام ١٩٢٢ كانت الفرصة مناسبة كي تدخل بريطانيا لتضع تسوية
بين الكويت ونجد والعراق وقد تم ذلك بموجب مؤتمر العقير . ويهمننا من ذلك
المؤتمر التسوية التي توصلت إليها بريطانيا بالنسبة للكويت وقد شملت ما يأتي :

أولاً — تعيين الحدود الجنوبية لإمارة الكويت .

ثانياً — تعيين حدود الإقليم المحايد في الجنوب بين حدود الكويت الجنوبية
وحدود الأحساء الشمالية .

ثالثاً — الاتفاق على أن يمارس كل من حاكمي نجد والكويت حقوقاً
متساوية ، وفي حالة اكتشاف البترول يقتسم دخله مناصفة ويتم التقاضي بواسطة
مجالس عرفية مختلطة يقوم كل حاكم بتعيين عدد من أعضائها .

لم تظهر الحكومة ارتياحاً للقرارات التي فرضها مؤتمر العقير ، وأكد الشيخ
أحمد الجبار أن الكويت فقدت أكثر من ثلثي المقاطعات التي كانت تطالب بها ،

كما فقدت عدداً كبيراً من قبائلها^(١) ومع ذلك فقد اضطرت الكويت أن توقع على هذه المعاهدة التي لم تكن في حقيقتها إلا واحدة من التسويات التي فرضتها بريطانيا على العالم العربي في أعقاب الحرب العالمية الأولى^(٢). ومما يزيد من قوة اعتراض الكويت على الحدود التي التزمت بها بموجب قرارات مؤتمر العقير أن المعتمد السياسي البريطاني في الكويت هو الذي كان يمثل الكويت في هذه المحادثات^(٣)، وفيما يبدو أن الكويت اضطرت إلى التوقيع على هذه المعاهدة إزاء تجدد الغزوات السعودية على حدود الكويت. ولا شك أن توتر هذه العلاقات وشعور شيخ الكويت بالحاجة إلى تأييد بريطانيا قد أدى إلى أن تحتفظ الحكومة البريطانية بنفوذها في الكويت وأن تكتسب فيها امتيازات جديدة كما حدث في أكتوبر ١٩٢٥ حينما وافق شيخ الكويت على أنه يكون القضاء في شؤون الرعايا الانجليز وسائر الأجانب غير المسلمين وفقاً للنظام البريطاني وأن تختص به الفصالية البريطانية^(٤).

أما اتفاقية العقير فقد تضمنت في الجزء الخاص بنجد والكويت على تخطيط الحدود بينهما فصت على أن تتبدى حدود نجد والكويت من ملتقى وادي العوجا بالباطن على أن تكون الرقعى (وهي مورد ماء) تابعة لنجد ومن هذه النقطة تمتد على خط مستقيم إلى حيث تلتقى بخط ٣٩ من خطوط العرض وبمركز الدائرة الحمراء المشار إليها بالمادة الخامسة من الاتفاقية الإنجليزية التركية المؤرخة في يولي

(١) من أهم هذه القبائل قبيلة العوازم التي كانت تقيم بادية الكويت ثم اقتطعها الأمير عبد العزيز وفي الكويت جماعات متحضرة من هذه القبيلة.

أظر — مجلة الكويت — المجلد الأول ص ١٥٧ محرم ١٣٤٧ هـ.

(٢) انظر دراستنا عن المؤتمرات السياسية للحرب العالمية الأولى على إمارات الخليج

العربي — مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — العدد ١٥/١٩٦٩.

(٣) Philby, Saudi Arabia, p. 284, see also John Marlowe, The Persian Gulf in the 20th Century, p. 75 ff., London, 1965.

(٤) ألقى هذا الامتياز عام ١٩٦٠ انظر دليل الكويت — القسم الأول — الكويت

بين الماضي والحاضر ص ١٩٦١.

١٩١٣ . وكان متفقاً على أن هذه الدائرة الحمراء مركزها قلب مدينة الكويت ونصف قطرها أربعون ميلاً ، وهذا الخط يستمر إلى الجانب من نصف الدائرة حتى يصل إلى النقطة التي تنتهي عند الساحل جنوب رأس ، وهذا الحد الجنوبي يكون للكويت دون منازع .

أما بقعة الأرض المحددة شمالاً بهذا الخط والتي يحدها غرباً ضلع من الأرض يسمى الشق وشرقاً وجنوباً خط يمر غرباً بشرق من الشق إلى عين العبد ومنها إلى الساحل شمالاً إلى رأس المشعاب فهذه الأراضي تعتبر مشتركة بين حكومة نجد والكويت لهما فيها الحقوق للتساوية إلى أن يتفق اتفاقاً آخر بين نجد والكويت بخصوصها بمصادقة الحكومة البريطانية^(١) .

وعلى الرغم من أن اتفاقية العقير كان يهدف بها أساساً إقرار الأوضاع بين كل من الكويت ونجد والعراق إلا أن السنوات التالية لتوقيع هذه الاتفاقية شهدت استمرار الإغارات على حدود الكويت وكان مبعثها هذه المرة غارات من قبل الإخوان . ولا يستدل من المصادر التي تناولنا أن عبد العزيز كان له دخل في هذه الإغارات الجديدة وإنما الثابت لدينا أن حركة الإخوان مرت بدورين رئيسيين الدور الأول ، استغلهم فيه عبد العزيز لتوسيع ملكه وكانوا في هذا الدور يعملون لحسابه . أما الدور الثاني ، والذي يمكن أن نحدده بمؤتمر العقير فيسجل انقلاب الإخوان على الأمير عبد العزيز بعد أن توسع في ملكه ووجدهم يعارضون إصلاحاته والتطورات التي أخذ يدخلها على الدعوة الوهابية استجابة لمتطلبات الدولة الحديثة .

وقد اعتقد الإخوان أنهم جند عبد العزيز وأنه لا يستطيع أن يتحرك بدونهم^(٢)

(١) راجم النص الكامل لاتفاقية العقير الخاصة بتعيين الحدود بين الكويت ونجد في كتاب عبد الله الفرحان مختصر تاريخ الكويت وعلاقته بالحكومة البريطانية والدول العربية ص ١٣٤ -- القاهرة ١٩٦٠ .

(٢) يمكن الرجوع إلى حركات الإخوان على الكويت — إصدار عبد العزيز الرشيد الجزء العاشر من المجلد الثاني محرر ١٣٨٤ — ص ٢٧ — ٢٨ .

وفي العام التالي لتوقيع اتفاقية العقير (١٩٢٣) تزعم فيصل الدويش غارة من الإحساء إلى الحدود الجنوبية للكويت . ولم يجد الشيخ أحمد الجابر بعد أن وصلت قواته متأخرة وبعد أن حدث اعتداء على المقاطعات الجنوبية إلا أن بيعت لعمد العزير يشكو إليه تلك الأعمال العدوانية بعد أن أحدثت هذه الإغارات رد فعل شديد على سكان الكويت الذين بادروا إلى إعادة بناء السور وترميمه بهدف حماية إمارتهم من خطر الإغارات .

ورد الأمير عبد العزيز على الشيخ أحمد الجابر يعتذر له عن هذا الهجوم كما أكد للمعتمد السياسي البريطاني في الكويت أن هذه الغارة قام بها جماعة من الإخوان الخارجين عليه ، وأنهم في تحركاتهم يخالفون أوامره وأنه غير مسئول عن أعمالهم . وقد أكد ديكسون فيما بعد أن الإخوان كانوا في توسعاتهم يتصرفون ضد رغبات الأمير عبد العزيز بل ويتعد لأوامره . وفي عام ١٩٢٨ أكدت البعثة التي أوفدها الشيخ الكويت إلى ابن سعود بعد غارة عنيفة تعرضت لها الإمارة أسف الأمير ابن سعود ورغبته الجادة في رد الأسلاب التي استولى عليها الإخوان إلى الكويت . وأبلغ الأمير عبد العزيز البعثة الكويتية أنه أصدر أوامره بإعداد قوة عهد بقيادتها إلى أحد أبناء عبد الله بن جلوي حاكم الإحساء ضد الإخوان بهدف استعادة الأسلاب إلى شيخ الكويت . غير أنه في العام التالي (١٩٢٩) بدأت قبائل العجمان تحمض تقدماً واسع النطاق ، وذلك بإغاراتها على قبائل المتفق القاطنة في شمال الكويت واتجاهها إلى التقارب مع الكويت ضد عبد العزيز بن سعود . ولا شك أن الكويت كانت تأمل بتحالفها مع هذه القبائل الثائرة على الحكم السعودي في الإحساء الحصول على مكاسب إقليمية وقبلية ، أو على الأقل تقويض اتفاقية العقير التي لم تخرج منها الكويت بكسب يذكر . ومما يوضح لنا أن شيوخ الكويت كانوا راضين عن العلاقات الودية بينهم وبين العجمان تعاضى حكام الإمارة عن عمليات التعامل التجاري الذي كان يقوم به تجار الكويت مع هذه القبائل مما كان مبعثاً لاستياء الأمير عبد العزيز ولتدخل المعتمد البريطاني في الكويت . ولم يجد الشيخ أحمد الجابر مفرأ إزاء ذلك إلا أن يعود إلى تأكيد تعهداته قبل بريطانيا بعدم التقارب مع القبائل المعادية لابن سعود . ولم يلبث بعد ذلك أن وصل فيصل الدويش إلى شمال الإحساء ودعى الشيخ أحمد الجابر للانضمام لحركة ضد ابن سعود ولا شك أن زعيم

الإخوان كان يقدر جيداً استياء شيوخ الكويت من اتفاقية المقير ولذلك رأى أن يستعين بهم لتوسيع نطاق ثورته ضد ابن سمود . ومما يؤكد لنا ذلك أنه دعى بالفعل الشيخ أحمد الجابر إلى الانضمام إليه في ثورته بهدف استرداد المقاطعات الكويتية التي انتزعت من الكويت بمقتضى قرارات مؤتمر المقير ، كما أتبع خطابه هذا بطلب صريح وهو أن يسمح له شيخ الكويت بالتمركز بقواته في الصبيحية ويأتى إلى الكويت ليشرح خططه على أن تقدم له الكويت ما تحتاجه من مدد ومؤن^(١) .

ولا شك أن عروض الدويش قد أحدثت ارتياحاً في الكويت ووجد الكثيرون من أهالي الكويت أن الفرصة سانحة للتخلص من قيود اتفاقية المقير ، والعودة بالحدود الطبيعية للكويت . ولكن الحكومة البريطانية سارعت بإصدار تعليماتها إلى الشيخ أحمد الجابر ألا يستجيب لهذا العرض وأن يمنع الدويش وأتباعه من عبور الحدود بين الإحساء والكويت . ويقرر ديكسون الذى عاصر تلك الأحداث أن الشيخ أحمد استمر على وعوده لبريطانيا على الرغم من قوة الإغراءات التي قدمها إليه الدويش في أن يتزع من السعوديين ممتلكاته المسلوقة في الجنوب ، واسترداد زعامته على العوازم وعجمان ومطير وقد طلبت الحكومة البريطانية من الشيخ أحمد الجابر ، إزاء سيطرة الإخوان على المنطقة من شمال نجد من جل شمير إلى سواحل الخليج وعمرانهم في المنطقة المحايدة بين الإحساء والكويت ، ألا يسمح بأى تعامل مع زعماء الإخوان ، وأن يصد قواتهم في حالة هجومهم على الكويت .

وعلى الرغم مما كان ينتظر من تحالف بين الشيخ أحمد الجابر والإخوان من إتاحة الفرصة للكويت لتحقيق مكاسب خاصة بها أو على الأقل استرداد ما كان لها من ممتلكات انتزعت منها إلا أن هذا التحالف لم يكن من المتوقع له النجاح ويرجع ذلك في تقديرنا إلى عاملين :

أولهما - المدد التقليدي من الكويت والإخوان نتيجة لإغاراتهم السابقة على السلوى والرسمة والاهالي

وثانها — الضغط البريطاني .

وإزاء رفض الكويت التعاون مع فيصل الدويش تعرضت الكويت لرد فعل شديد قام به الإخوان على حدودها الجنوبية المتأخرة للاحماء في ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٠م دعى إلى تدخل ديكسون المعتمد السياسي في الكويت الذي دعى الدويش إلى مقابله حيث طلب منه الإنسحاب بقواته على الفور ، ولكن الدويش ذكر أنه ليس في نزاع مع الانجليز وأنه وقيلته مطير يتبعان شيخ الكويت ، كما حاول أن يحصل على حق اللجوء في الكويت إزاء تعرض قواته للانهمار نتيجة لموقف الحكومة البريطانية التي تتردد في استخدام القوة لوضع نهاية لحركته . وقد طلب فيصل أن يسمح لأتباعه بالاكتيال من الكويت وأنهم يودون العودة إلى ولائهم للكويت .

وعلى الرغم من أن الدويش وغيره من زعماء مطير والعجمان أعلنوا استسلامهم للسلطات البريطانية في الكويت إلا أن ديكسون رأى تسليم زعماء الإخوان للأمير عبد العزيز بن سعود بعد أن توسط لديه في الترفق بمعاملته لهم والحصول منه على تأكيد بالأبواصل إبداءاته على مقاطعات الكويت والعراق نظير الموقف الذي وقفته الحكومة البريطانية تجاهه إزاء هذه الثورة التي كانت تهدد ممتلكاته بالضياع .

ونظراً لموقف الكويت المحايد ، وهو موقف لا شك أنه فرض عليها خلال ثورة الإخوان ، تسلم الشيخ أحمد الجابر في عام ١٩٣٠م نيشاناً ووعداً من قبل الحكومة البريطانية بأن تبذل كافة مساعيها لكي يزيل عبد العزيز بن سعود جميع القيود التي فرضها على المعاملات التجارية بين نجد والكويت . ويؤكد ديكسون بصدد ذلك أن الموقف المحايد الذي وقفته الكويت خلال ثورة الإخوان كان عوناً رئيسياً لقمع هذه الثورة ويرى بصدد ذلك أن بريطانيا أسدت إلى ابن سعود جيلاً وذلك بإبقائها كلاً من الكويت والعراق على الحياد خلال هذه الأزمئة (١) .

وبالفعل استمرت الحكومة في بذل وساطتها لإقرار العلاقات بين الكويت والسعودية وتحقق ذلك في عام ١٩٣٧ حينما أعلن الملك عبد العزيز بن سعود رفعه جميع القيود على تجارة رعاياه^(١) وتمهد الطريق في عام ١٩٤٠ لعقد اتفاقية بين الكويت والسعودية حينما ذهب الشيخ حافظ وهبة وزير الخارجية السعودية إلى الكويت لحل هذا النزاع الذي طال عليه الأمد وبعد مفاوضات بين الشيخ والوكيل السياسي بالكويت استمرت قرابة أسبوعين وقعت ثلاثة اتفاقيات هامة بين البلدين وهي معاهدة صداقة وحسن جوار ومعاهدة تجارية ومعاهدة ثالثة لتبادل تسليم المجرمين^(٢).

وبعد عامين من توقيع تلك المعاهدات تبودلت مذكرتان رسميتان في ٢٠ أبريل سنة ١٩٤٢ بشأن تبعية القبائل للكويت والسعودية بين الشيخ يوسف ياسين والسير بيرو المفوض البريطاني في جدة جاء فيهما أنه حيث توقعت السعودية في تدوين اتفاقية الصداقة وحسن الجوار فيما بين البلاد العربية والسعودية والكويت فقد استقر التفاهم على تحديد القبائل التابعة للسعودية والتابعة للكويت . أما فيما يتعلق بمسألة ما إذا كانت أية من هذه القبائل تتبع الكويت فهذا أمر يسوى بين السعودية الكويت ، وفي حالة عدم التوصل إلى اتفاقية من هذا القبيل فيمكن أن يتم ذلك عن طريق لجنة مشتركة تعين في وقت تتفق عليه الحكومتان^(٣) .

والملاحظ أن العلاقات الودية بدأت تسير على وئام بين الكويت والسعودية خاصة بعد توقيع المعاهدة الدفاعية بين البلدان ١٩٤٧ ولاشك أن اكتشاف البترول في كل من الكويت والسعودية وتصديره على نطاق واسع قد أزال الخلاف الاقتصادي التقليدي بين الكويت والسعودية والذي لاحظناه خلال عرضنا السابق .

(١) المصدر السابق ص ٣٣١ .

(٢) دليل الكويت - الباب الأول - الكويت بين الماضي والحاضر ص ١١ .

(٣) راجع في ذلك المذكرتان المتبادلتان بين الشيخ يوسف ياسين وزير الخارجية السعودية وبين السير ه. و. استونهوربيرد المفوض البريطاني في جدة في ٢٠ أبريل سنة ١٩٤٢ في المجلد الثاني من وثائق الحكومة السعودية الخاصة بالتحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين الملكة العربية السعودية ج ٢ - ص ٦٥ و ١٩٦٧ .

ومع ذلك فإن اكتشاف البترول في المنطقة المحايدة دفع الدولتان إلى محاولة الوصول إلى اتفاق جديد بشأن تبعية بعض الجزر ومساكنتها للسعودية أو الكويت في نطاق المنطقة المحايدة، وقد بذلت محاولة من ذلك النوع في عام ١٩٥١ وتجددت المباحثات بين مندوبي السعودية ومندوبي الكويت في أبريل ١٩٦١^(١) غير أن هذه المباحثات لم تصل إلى نتيجة إيجابية حتى وقتنا الحاضر (١٩٦٨).

الدكتور جمال زكريا قاسم

(١) حافظ وهبة شبه جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٨٩ .

مصادر البحث

أولاً - وثائق غير منشورة :

Public Record Office

— Turkish Jurisdiction along the Arabian Coast of the Persian Gulf, F.O. 785108.

— Memorandum Respecting Koweit, F.O. 7815174.

India Office Political and Secret Library,

— Political and External Files, vol. 20, File 1508.

India Office Political and Secret Department, Letters from the Persian Gulf, vol. 18.

ثانياً - وثائق منشورة :

— Aitchison, C.U., A Collection of Treaties, Engagements and Sands relating to India and Neighbouring Countries, vol. X, Persian Gulf, Calcutta, 1892.

— British Intelligence Service, A Handbook of Arabia, vol. I, General, London, 1916.

— Gooch and Temperly, British Documents on the Origins of War, 1898-1914, vol. X, Part II, London, 1938.

Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, 2 vols.

وثائق سعودية :

التحكيم لتسوية النزاع الإقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية — عرض الحكومة السعودية — ٣ مجلدات — القاهرة ١٩٥٧ .

ثالثاً - المصادر العربية :

— ابن بشر (عثمان) ، عنوان المجد في نجد — القاهرة ١٣٤٩ .

— أحمد مصطفى أبو حاكمة ، تاريخ الكويت — الجزء الأول — إصدار

لجنة تاريخ الكويت — الكويت ١٩٦٧ .

— لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، (مجهول المؤلف

وتحقيق أبو حاكمة) — بيروت ١٩٦٧ .

— البصرى (عثمان بن مند) سبائك المسجد ، بومباي — ١٣١٥ .

- بيرين (جاكلين) ، اكتشاف جزيرة العرب (مترجم) — بيروت ١٩٦٢ .
- جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي — دراسة لتاريخ الإمارات العربية —
القاهرة ١٩٦٧ .
- المؤثرات السياسية للحرب العالمية الأولى على إمارات الخليج العربي ،
دراسة منشورة في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — العدد ١٥ —
القاهرة ١٩٦٨ .
- حافظ وهبة ، شبه جزيرة العرب في القرن العشرين — القاهرة ١٩٥٦ .
- حسين خلف الشبيخ خزعل ، تاريخ الكويت السياسي — ٤ أجزاء .
- حسين بن غنام ، روضة الأفكار والأفهام — وتوجد نسخة مصورة بدار
الكتب المصرية .
- راشد عبد الله الفرحان ، مختصر تاريخ الكويت وعلاقته بالحكومة
البريطانية والدول العربية — القاهرة ١٩٥٩ .
- سيف مرزوق الشماليان ، من تاريخ الكويت — القاهرة ١٩٥٩ .
- عبد الله الحاتم ، من هنا بدأت الكويت — دمشق .
- لوي مار ج . ج ، دليل الخليج (مترجم) — ٧ مجلدات — حكومة
قطر — الدوحة ١٩٦٧ .
- صلاح الدين الختار ، تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها
في جزئين — بيروت ١٩٥٧ .
- صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي — القاهرة ١٩٦٦ .
- يوسف بن عيسى القناعي ، صفحات من تاريخ الكويت — القاهرة
سنة ١٩٤٦ .

رابعاً - المصادر الأوربية :

- Blunt, Lady Année, A Pilgrimage to Nejd, The Cradle of Arab Race, 2 vols., London, 1881.
- Brydges, Harford Jones, An Account of the Transactions of His Majesty's Mission to the Court of Persia in the years 1810-1811, to which is appended a brief history of Wahhaby, 2 vols., London, 1834.
- Dickson, H.R.P., Kuwait and her Neighbours, London, 1956.
- Graves, Philip, The Life of Sir Percy Cox, London, 1931.
- Kelly, J.B., Britain and the Persian Gulf, London, 1968.
- Neibuhr, Carsten, Travels through Arabia and other Countries in the East, 2 vols., Edinburgh, 1792.
- Rouire, M., La question de Golfe Persique, Le règlement de questions de Mascate et de Kowelt, Revue des deux Mondes, cinquième période, tome XVII, Paris, 1903.

خامساً - الدوريات :

- مجلة الكويت — إصدار : عبد العزيز الرشيد — الكويت .
- مجلة الشرق — إصدار لويس اليسوعي — بيروت .
- دليل الكويت — دليل شامل أسدرته غرفة تجارة وصناعة الكويت عن دولة الكويت .

obeikandi.com

دراسات في تاريخ آسيا الحديث :

تجارة الأسلحة في غرب آسيا

(فارس — أفغانستان — الخليج العربي)

(١٩١٠ — ١٩١٣)

دكتور جاد محمد طه

لقد كان لتجارة الأسلحة في غرب آسيا في السنوات الخمس التي سبقت الحرب العالمية الأولى تأثيرات خطيرة على الدول القائمة بهذه التجارة وعلى الموقف الدولي بصفة عامة .

وإبان المنافسة البريطانية الفرنسية في مناطق الخليج العربي ، عمدت فرنسا إلى إقامة تجارة رائجة في الأسلحة والذخائر في المنطقة . وكانت معظم الأسلحة والذخائر تصدر من ميناء جيبوتي الخاضع للفرنسيين ، حيث يحماها التجار إلى الخليج العربي ومن هناك كانت تصدر إلى ساحل بلوخرستان وفارس ثم إلى أفغانستان ومقاطعات وسط آسيا ، مما أدى إلى حدوث اضطرابات على الحدود الشمالية الغربية للهند^(١) .

وقد ضغطت بريطانيا على دول غرب آسيا لمنع هذه التجارة في أراضيها ، ونتيجة لذلك أصدر شاه فارس أمراً إمبراطورياً في عام ١٨٨١ ، ثم أكد بقانون في عام ١٩٠٠ منحت بمقتضاه السفن الحربية البريطانية الحق في الاستيلاء على الأسلحة المنقولة إلى الموانئ الفارسية^(٢) . كما عقدت الاتفاقات التي تحرم هذه التجارة مع شيوخ البحرين (١٨٩٨) والسكويت (١٩٠٠) وشيوخ الساحل المهادن (١٩٠٢) .

P. Harrison, The Arab at Home, p. 96.

(١)

India Office Library, Political Dept., B. 182, Arms Traffic at Muscat, 15 Feb. 1911.

(٢)

أما قطر فكانت الاستثناء الوحيد من القاعدة العامة لمنع التجارة في الأسلحة في حدود الخليج العربي غربي رأس موسا نديم .

وفي عام ١٨٩٨ ، وافق سلطان مسقط على منع تصدير الأسلحة من أراضيها إلى الهند وفارس ، ومنح السفن البريطانية السلطة في تحقيق هذا المنع .

إلا أن استيراد الأسلحة إلى مسقط ثم تصديرها إلى جهات أخرى غير الهند وفارس ظل دون ضابط ، وكانت النتيجة أن أصبحت مسقط هي السوق الرئيسية للأسلحة في كل منطقة غربي آسيا ووسطها^(١) .

وكان أهم طريق لتوزيع الأسلحة هو الطريق الذي يبدأ من مسقط إلى ساحل مكران في فارس ثم إلى أفغانستان والحدود الشمالية الغربية للهند — كما ذكرنا — إلا أنه نتيجة للنشاط البحري البريطاني ، فإن هذا الطريق أصبح غير مأمون ، ومن ثم بدأت تجارة الأسلحة تتخذ طريقها إلى قطر ثم عبرها إلى ساحل لارستان الفارسي . وقد أبدت السلطات الفارسية عدم قدرتها على منع هذه التجارة في أراضيها . ولا شك أن توزيع الأسلحة الحديثة عبر المناطق الواقعة على الحد الشمالي الغربي للهند كان في حد ذاته أمراً خطيراً بالنسبة لبريطانيا . وقد حاولت الحكومة البريطانية مراراً القضاء على تجارة الأسلحة في غربي آسيا حرصاً منها على مصالحها في الهند ، إلا أنه كان واضحاً تماماً أن هذا لن يتأني إلا بالمنع الكامل لهذه التجارة في مسقط .

وفي مؤتمر بروكسل للأسلحة (١٩٠٨ - ١٩٠٩)^(٢) ، أعلنت كل من الولايات المتحدة وهولندا أنهما مستعدتان للتنازل عن حقوقها بالنسبة لتجارة الأسلحة إذا ما سلكت القوى الأخرى — إنجلترا وفرنسا — نفس السبيل ، إلا أن فرنسا عرضت كل الجهود ، وفي نهاية ديسمبر ١٩٠٩ ، انتهى المؤتمر دون اتخاذ قرار

(١) India Office Library, Political and Secret Library, Political Department, B. 196, Memorandum, Arms Traffic in the Persian Gulf, D.T.M., 20 Feb. 1913, p. 3.

(٢) Philip Graves. The Life of Sir Percy Cox, London, p. 142.

بالنسبة لتجارة الأسلحة في مسقط (١) .

و نتيجة لفشل مؤتمر بروكسل في اتخاذ قرارات لمنع تجارة الأسلحة في مناطق النفوذ البريطانية ، قررت حكومة لندن فرض حصار بحري على سواحل الخليج لتنفيذ منع تجارة الأسلحة بالقوة . وقد صادف الأسطول المسكف بالحصار بعض النجاح ، فهو وإن لم يكن في إمكانه القضاء على هذه التجارة ، فإنه تمكن من الحد منها إلى درجة كبيرة (٢) .

إلا أن عمليات الحصار البحري كانت تتكلف مبالغ طائلة حتى إنه كان من المتوقع منذ أول الأمر أنها إجراء مؤقت الى حين عقد اتفاق دائم مع فرنسا لمنع هذه التجارة .

موقف أفغانستان وفارس من تجارة الأسلحة :

لقد اقترحت حكومة الهند استمرار الحصار حتى ديسمبر سنة ١٩١٠ ، وقد وافقت وزارة الخارجية البريطانية على ذلك في ٢٦ سبتمبر ١٩١٠ بعد أن أشارت إلى أنه « ليست هناك ترتيبات مقبولة مع فرنسا بالنسبة لمسقط حتى الآن » .

وقد بزغت مسألتان مرتبطتان بالحصار خلال صيف ١٩١٠ ، الأولى بالنسبة لأحقية بريطانيا في الإستيلاء على الأسلحة التي تصل إلى الأراضي الفارسية ، والثانية بالنسبة للسفن التي تحملها وهي ترفع العلم الفرنسي ، ولقد طلبت حكومة الهند من قائد الأسطول أن يبدي وجهات نظره بالنسبة لهذه المسألة وقد أوضح الأدميرال سلايد SLADE في ٢٥ يوليو ١٩١٠ أن « المسألة لها وجهان : فعندما تكون الأسلحة المشحونة مملوكة لرعايا فرنسيين ، فإن هؤلاء لهم مطلق الحرية في نقلها ، كما أن لفرنسا الاحتجاج على أي إجراء بريطاني قد يؤثر على ثروات مملوكة لرعايا

(١) India Office Library, Political and Secret Library, Political Department, B. 196, Memorandum Arms Traffic in the Persian Gulf, D.T.M., 20 Feb. 1913, p. 4.

(٢) I.O.L., Pol. Dep., B. 182, Arms Traffic at Muscat, 15 Feb. 1911.

فرنسيين « أما الوجه الآخر فهو أن تكون الأسلحة مملوكة لتجار الأسلحة الوطنيين والذين نقلوها على سفن ترفع العلم الفرنسي بهدف تلافى تدخل السفن الحربية البريطانية ، وفي هذه الحالة الثانية فإن الأدميرال يعتقد بأن فرنسا لا يمكن بأى شكل من الأشكال وبأى تفسير محتمل للقانون الدول أن تطالب بأن يسود مبدأ أن « العلم يعطى البضائع » إذا ما تم نقلها من السفن التي ترفع علمها .

وأضاف الأدميرال أنه إذا ما تم نقل شحنات الأسلحة إلى الأفغانيين أو مسلميهم فإن حماية العلم الفرنسي لها تكون قد انتهت ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فإنه « لن يمكننا أن نمس أى سلاح سواء على الساحل أم بعيداً إلى الداخل » .

كما أن الأدميرال رأى أنه يجب الإستيلاء على الأسلحة التي تنزل الى الشاطئ من السفن الفرنسية ، كما أبدى وجهة نظره في أنه « اذا اضطرنا الى السماح بنقل الأسلحة على السفن الفرنسية دون التعرض لها ، فإن كل التجارة سوف تسلك نفس الطريق دون استطاعتنا ايقافها ، وأن كل الأموال التي تنفق في هذا السبيل سوف تذهب هباء .

والواقع أنه إذا لم يتم الانجليز بالاستيلاء على الأسلحة المنقولة إلى الأراضي الفارسية فإنهم لن يستطيعوا منع الأفغانيين من نقل الأسلحة تحت سمعهم وبصرهم ولا شك أن هذا الإجراء — إذا ما حدث يمس الهيبة البريطانية في الخليج ، ويظهر أن فرنسا هي القوة الأعظم (١) .

ويرجع استخدام رعايا سلطان مسقط للأعلام الفرنسية إلى عام ١٨٦٠ (٢) ، وفي ١٨٩١ جاءت التقارير من حكومة بومباي ومن المقيم في الخليج العربي بأن القناصل الفرنسيين في عدن وأبوك وزنجبار قد منحوا في مناسبات عديدة أوراقاً ، وأعلاماً فرنسية للقوارب الوطنية المملوكة لبعض رعايا سلطان مسقط . وبعد نقل المسألة إلى الحكومة البريطانية بوقت قصير ، جاء تقرير آخر من المقيم في بوشهور

India Office Library, Political Dep., B. 196, Secret Memo., (١)
Arms Traffic in the Persian Gulf, D.T.M., 20 Feb. 1910.

Grant of French Flags to Muscat Dhows. (٢)
I.O.L., Pol. and Secret Dep., B. 134, Confidential. Memo.

يشير إلى أن سلطان مسقط اقترح بنفسه أن يرسل إلى الحكومة الفرنسية معترضاً إرسال أعلام وأوراق فرنسية للقوارب المملوكة لاتباعه^(١). وقد أوضح السلطان أن السبب الوحيد الذي جعل ملاك القوارب يطلبون الحماية الفرنسية هو حق يمكنهم ممارسة عمليات تجارة الرقيق دون رقابة من السفن البريطانية^(٢)، وبينما رأت حكومة الهند أنه من غير المرغوب فيه أن يقدم السلطان احتجاجه مباشرة إلى الحكومة الفرنسية، فإنها أبلغت المقيم بأن عليه أن يبلغ السلطان بأنه «لديه السلطة المطلقة لمعاينة رعاياه الذين يخرجون على قوانين بلاده إذا حملوا أية أعلام أو أوراق فرنسية، وأن السلطان يمكنه اتخاذ أية خطوات يراها ضرورية لتدعيم سيادته في مياهه الإقليمية بالنسبة لرعاياه الذين يحملون أعلاماً فرنسية».

وقد أبلغ وزير الدولة هذه المعلومات إلى وزير الخارجية، وقد استنكرت الحكومة الفرنسية هذا العمل من جانب القنصل الفرنسي في عدن، وأعطت تأكيدات بعدم تكرار ذلك مرة أخرى^(٣). وإن كان من المفهوم أن القنصل الفرنسي يعمل بتعليمات من حكومته، وأن هذا الاستنكار لتصرفاته هو للتخلص من هذا الموقف.

وعلى أية حال فقد استمر استخدام رعايا سلطان مسقط للأعلام الفرنسية على قواربهم لتتلافى تفتيش السفن البريطانية لهذه السفن عند نقلها للرقيق أو للأسلحة^(٤).

التدخل البريطاني في فارس :

لقدثار جدل كبير حول أحقية بريطانيا في الإستيلاء على الأسلحة في الأراضي

(١) I.O.L., Pol. and Secret Department, B. 135, Enclosure No. 14, Memo. on the use of the French Flags by Subjects of the Sultan of Muscat, 17 May 1900.

(٢) I.O.L., Pol. and Secret Dep., B. 143, Confidential Memo. Grant of French Flags to Muscat Dhows.

(٣) I.O.L., Political and Secret Dep., B. 135, Enclosure No. 14, Memo. on the use of the French Flags by Subjects of the Sultan of Muscat, 17 May 1900.

(٤) J.J. Berreby, Le Golfe Persique, p. 185.

الفارسية ... وقد رأى مورلى Viscount Morley أن الإستيلاء على الأسلحة في الأراضى الفارسية سوف يثير مشكلات مع الحكومة الفرنسية ... إلا أنه يبدو أنه لن تكون هناك معارضة إذا تم الاستيلاء على الأسلحة قرب الحدود الأفغانية.

وقد تمت استشارة السير بارسلى G. Barclay النوزير البريطانى المفوض في طهران بالنسبة لهذه النقطة ، وقد أوضح الوزير بأنه يعتقد بأن الحق في الاعتراض ضد استيلاء البريطانيين على الأسلحة من الأفغانيين في الأراضى الفارسية هو حق فقط للحكومة الفارسية .

وفي ١٣ سبتمبر ١٩١٠ أصدر الأدميران سلبيد Slade تعليماته لقواته بأنه إذا ما ظهرت إحدى السفن وعليها أعلام فرنسية ، فإنه يجب تتبعها والاستيلاء على الأسلحة التي تحملها بمجرد انتقالها إلى التجار الأفغانيين على الساحل (١) .

وقد نقل قرار الحكومة البريطانية إلى حكومة الهند « بأنه لا يعد كافيًا الاستيلاء على الأسلحة بمجرد إنزالها من السفن الفرنسية على الساحل ، لأن الحصار البحري بهذا الوضع يتعرض للفشل » (٢) .

وبالنسبة للساحل المهادن ، فقد أشار كوكس Lieutenant-Colonel Cox إلى أنه بينما لم يأت ذكر « لأحقيتنا في التفتيش على سواحلهم ، فإن انشيوخ سوف يندهبون إذا ما طلبنا منهم ذلك ، لأن انسفن البريطانية في الواقع قد مارست هذا الحق ، ولم يحتج الشيوخ بالنسبة لذلك » (٣) .

وقد تمسكت حكومة الهند بأنه يجب اعتبار « سواحل المحميات كسواحل القوى صاحبة الحماية » إلا أن الحكومة البريطانية رأت عدم تعميم هذه القاعدة ، وأنه من

I.O.L., P.D., B. 196, Secret, India Office to Foreign Office, (١)
8 Sept. 1910.

I.O.L., P.D., B. 196, Secret, Viscount Morley's Telegram, (٢)
3 Oct. 1910.

I.O.L., P.D., B. 196, Secret, L.C. Cox to Governor of India, (٣)
22 Oct. 1910.

الأفضل معاملة كل حالة طبقاً للدوقف وكعالة منفصلة ، ويجب أن يكون الشيوخ المهاندنون مقتنعين بحقنا في التفتيش على سواحلهم وأن يستمر العمل طبقاً لذلك» (١).

ولا شك أن حكومة الهند كانت مقتنعة بأهمية الحصار البحري بالنسبة لإيقاف تجارة الأسلحة في الخليج ، ولتدعيم الحصار ، أوصت هذه الحكومة بإنشاء ثلاث محطات لاسلكي في دبي والبحرين وبوشهر ، وطبقاً لما أشار به الكولونيل كوكس — الذي وضع تقديراته على دخول بندر عباس — فإنه كان من المتوقع « أن المواقع الاستراتيجية الهامة للمحطات الثلاث سوف تنقص من تكاليف الحصار وذلك بإنقاص عدد الزوارق المستخدمة فيه» (٢).

إلا أن الأدميرال سليلد لم يؤكد هذا التصور ، ولكنه حث على الرغبة في إقامة المحطات ، لأنه في الحريف التالي « سوف تزداد تجارة الأسلحة في الخليج ازدهاراً نتيجة لنقل القاعدة البحرية من مسقط ، وأن محطات اللاسلكي الإضافية الثلاث سوف تعوض عن نقص القوة في الاتصالات نتيجة تغيير القاعدة» (٣).

أما بالنسبة لمحطة اللاسلكي في بوشهر ، فقد نازت تساؤل عما إذا كانت موافقة الحكومة الفارسية لازمة لإقامتها ، إلا أنه أمكن تلافى ذلك استناداً إلى حالة مشابهة في جاسك Jask حيث أقيمت المحطة داخل حدود محطة البرق الهندوأوربية « ويمكن إبلاغ الحكومة الفارسية رسمياً بذلك لأنه عليها حماية هذه المحطة» (٤).

وفي الثالث من أكتوبر أبرقت حكومة الهند بأنه مادامت المحطات الثلاث لا يمكن أن تعمل قبل مارس ١٩١١ ، فإنه تقرر تأجيل الموضوع كله .

وإذا كانت حكومة الهند قد استبعدت إقامة محطات اللاسلكي لتدعيم الحصار

I.O.L., P.D., B. 196, Secret, F.O. to I.O., 17 Dec. 1910. (١)

I.O.L., P.D., B. 196, Secret, L.C. Cox to Governor of India, 24 June 1910. (٢)

I.O.L., P.D., B. 196, Secret, Persian consent not needed, India, 19 June 1910. (٣)

I.O.L., P.D., B. 196, Secret, Admiral Slade to Governor of (٤)
Memo. by Mr. Kirk, Director in Chief Indo-European Telegraph Department, 7 July 1910.

فإنها اقترحت — لزيادة فاعلية الحصار — زيادة التحركات والداوريات التي تستمر ليومين أو ثلاثة على أن تكون الداورية من أعداد ملاءمة من حامية جاسك Jask وعلى أن يكون واجب هذه الداوريات الحصول على المعلومات بالنسبة لطرق القوافل من الساحل إلى الداخل (١) .

ضعف الحكومة الفارسية :

بيننا وافق وزير الدولة على الاقتراح السابق ، فإنه أشار أيضاً إلى أنه إذا ممكن استخدام القوات البريطانية على الأرض الفارسية ، فإن تأثيرها سيكون أكثر فاعلية لأنها تكون أقرب إلى الحدود الأفغانية وحيث تتجه الطرق من ساحل الخليج « ... وقوة صغيرة ولكن مؤثرة جداً » تعمل في روبات Robot يمكنها بسهولة قطع قوافل الأسلحة عند عودتها إلى أفغانستان (٢) .

إلا أن حكومة الهند — لعدة اعتبارات — رأت أن وضع قوة صغيرة مؤثرة في روبات سوف لا يكون لها التأثير المطلوب نتيجة للصعوبات في الحصول على الإبل (٣) ، وكذلك للحاجة إلى وقت طويل لتنفيذ الترتيبات اللازمة لتحقيق ذلك ، وكذلك للاعتراضات المتوقعة نتيجة لوضع قوة ضاربة على الحدود الأفغانية وحيث لا توجد حدود مشتركة مع الهند (٤) . والواقع أن الحكومة الفارسية كانت في حالة شديدة من الضعف بعد الحروب الداخلية العديدة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، وخاصة محاولة فتح إقليم هرات في عهد الملك محمد شاه ثم اضطرابها إلى سحب قواتها من هرات في عهد ناصر الدين شاه نتيجة للضغط البريطاني ، واستيلاء الإنجليز على

Telegram from Viceroy, 1018/10, 16 July 1910, B. 196. (١)

(٢) انظر :

Viscount Morley's Telegram, 30 July 1910, I.O.L., P.D., B. 196, Secret.

(٣) انظر :

Gov. of India to Secretary of State, 29 Nov. 1910, I.O.L., B. 196, p. 6.

(٤) انظر :

Gov. of India to Admiral Slade, 24 Nov. 1910, I.O.L., B. 196, p. 5.

بوشهر إلى أن نجح قرخ خان أمين الملك كاشاني (ولقب بعد ذلك باسم أمين الدولة والذي كان سفيراً لفارس في فرنسا) بمباحثات مع سفير إنجلترا في فرنسا ، وعقد معاهدة بين الدولتين وتقرر انسحاب القوات الانجليزية من موانئ فارس بشرط أن ينسحب الفرس من هرات ، وأن تصرف الحكومة الفارسية النظر عن كل ادعاءاتها في هرات وكل أفغانستان ، ولا تطلب من رؤساء وحكام تلك الأقاليم أية مطالب مثل سك العملة وخطبة الجمعة ، وأن تتجنب التدخل في أمور أفغانستان الداخلية وأن تعترف باستقلال هرات وكل أفغانستان .

والخلاصة أن سحب حكومة فارس لقواتها من هرات سبب لها خسائر فادحة في الأفراد والأموال (١) .

أما بالنسبة لتجارة الأسلحة في فارس ، فقد صدر مرسوم بتحريم استيراد الأسلحة إلى فارس سنة ١٨٨١ . وفي عام ١٩٠٠ حوت الحكومة الفارسية السفن البريطانية سلطة القبض على السفن التي تحمل الأسلحة إلى الموانئ الفارسية ومصادرة شحناتها (٢) .

ورغم ذلك فقد تدفقت الأسلحة في الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر على وقد سببت هذه الأسلحة الكثير من القلق للسلطات الفارسية ، إذ خشيت تلك السلطات من مغبة استخدام القبائل الفارسية لتلك الأسلحة في رفع راية العصيان والخروج عن سلطة الحكومة (٣) . وكانت هذه الأسلحة تهرب عبر مسقط إلى ساحل مكران الفارسي ، ومن هناك تحملها القوافل الأفغانية حيث تصل أخيراً إلى القبائل الأفغانية والحدود الشمالية الغربية للهند ، وبدت السلطات الفارسية عاجزة تماماً عن قمع هذه التجارة في الأراضي الفارسية (٤) .

(١) عبدالله رازی (همدان) — أزمة باستانی تا سال ١٣١٦ شمس هجری (بك
نقشه ایران قدیم و ٩٤ کروار) .

I.O.L. Pol. Dep., B. 182, Arms Traffic at Muscat I.O., 15 (٢)
Feb. 1911.

Richard Coke, The Heart of the Middle East, p. 136. (٣)

I.O.L. Pol. Dep., B. 182, Arms Traffic at Muscat, I.O., 15 (٤)
Feb. 1911.

وظهر أنه من الضروري — من وجهة النظر البريطانية — وضع خطة فعالة للسيطرة على المنطقة الداخلية ، وذلك نتيجة لنشاط الأفغانيين ، وخاصة في صيف عام ١٩١٠ عندما لم تقم السلطات الفارسية بالجهودات اللازمة لقمع هذه التجارة .

وفي خلال شهر يونيو ١٩١٠ ، تقدمت قوافل ضخمة تحمل شحنات الأسلحة من الساحل وعبر إقليم سستان ، كما تقدم تاجر الأسلحة محمد خير في ٤ يونيو عبر إقليم جردى Girdi ومعها قافلة من ٥٠٠ - ٦٠٠ رجل معظمها يحمل بالأسلحة . وبعد ذلك بثلاثة أسابيع وصات قافلتان كبيرتان إلى Big بيج واشتركتا في إتلاف خط البرق بين جرجه Geregen وبالوخ ، ونهبتا لمبنى بريد سستان . ولم تبذل السلطات الفارسية أية محاولة فعالية لقمع هذه الأعمال العدوانية من جانب هذه القوافل .

ورأت حكومة الهند أنه يجب تقديم احتجاج إلى الحكومة الفارسية نتيجة للخسائر التي حدثت في ممتلكات الحكومة وخط البرق ، وقد وافقت حكومة لندن على ذلك وإن كان من المفهوم أن هذا الإجراء ليست له أية قيمة ، واعتبرت أن تقديم هذا الاحتجاج هو مسألة مبدأ ليس إلا (١) .

ونتيجة لتحركات الأفغانيين وأتجاههم العنيف ، فإن حكومة الهند لم يعد لديها أي شك بالنسبة لأهمية سحب القوة المرابطة في روبات Robat أثناء الفصل الحار فقد خشيت من اتجاه الأفغانيين إلى إعادة العمليات في الحريف بينما القوة لازالت في روبلت . إلا أن المقيم في الخليج العربي كان يعتقد بأنه يجب سحب القوة بمجرد أن تصل آحر قافلة أفغانية إلى بلادها ، وأنه يجب عدم إعادة القوة إلى روبات إلا بعد يناير ١٩١١ كما رأى بأن الأفغانيين الذين أصابهم خسائر فادحة وتأخروا كثيراً في عودتهم من الخليج لن يكونوا مستعدين لإعادة العمليات قبل فترة من الوقت .

وفي يوليو ١٩١٠ أنقصت كل من حامية جاسك Jask وشاربر Charbar

Telegram from Governor of India, 7th July 1910.

(١)

لانسحاب الأفغانيين من الساحل^(١).

تجارة الأسلحة في باريس :

لقد انغمس بعض الحكام في فارس في تجارة الأسلحة ، وقد كان مير بركات خان حاكم إقليم بيابان Biyaban على علاقات وثيقة بتجار الأسلحة الأفغانيين وفي مارس ١٩١٠ اعتقله داريا Darya Bagl — وهو أحد عملاء الإنجليز — واقترح أن يحدد إقامة بركات في كتا Qutta أو روبات على أن يمنح إعانة مالية ، ولم يوافق ممثل الحاكم العام للهند في بلوخستان على ذلك لأنه رأى أنه يمكن للسجين أن يهرب إلى أفغانستان ثم العودة إلى مكران بمعاونة تجار الأسلحة الأفغانيين . ثم قدم اقتراح آخر بأن تكون بغداد محلاً لإقامته ، لا أن هذا الاقتراح رفض أيضاً .

وفي يوليو ١٩١٠ أصدرت حكومة الهند تعليماتها إلى المقيم السياسي بتسليم بركات إلى السلطات الفارسية مع التنبية عليها بالمحافظة على حياته . وقد أختيرت بوشهر كمكان لإقامته .

وفي غضون ذلك الوقت ، ورغم اعتقال مير بركات ونفيه فإن إقليم جاسك سادته اضطرابات كثيرة ، وتقدم مصطفى خان على رأس قوة لإعادة بركات بالقوة .

ومع نهاية أغسطس هرب مير بركات من بوشهر واتخذ طريقة عائداً إلى ساحل بيابان حيث وجد خلفاؤه وهم يقومون بالإغارات والقتال ، وقد أشار السكولونيل كوكس إلى أن السلطات الفارسية بدت عاجزة تماماً عن التدخل لقمع الاضطرابات ، واقترح كحل للمسألة أن تقوم القوات البريطانية بالتدخل . ومع نهاية سبتمبر اقترح كوكس على الأدميرال سليد Slade دفع قوة بريطانية في المنطقة شمالي جاسك للقضاء على جماعة مير بركات^(٢) ولا شك أن هذا الإجراء يعد مظهرأ جديداً

Lieutenant-Colonel Cox to Governor of India, 25th July 1910. (١)

I.O.L., B. 196, p. 7.

انظر :

Lieutenant-Colonel Cox to Governor of India, 27th Sept. 1910. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 7.

انظر :

لنظام الحصار ، والواقع أن دفع جملة برية يختلف كثيراً عن الأعمال السابقة ، ويرجع ذلك بصفة مباشرة الى الاضطرابات والقتال التي أثارها ميربركات وجماعته والأفغانيون في الأقاليم الداخلية .

وفي ٤ ديسمبر ١٩١٠ عرض الأدميرال سليد Slade للوقف بالنسبة للحصار ، والاحتمالات بالنسبة للمستقبل ، وأبدى اعتقاده بأن تدفق الأسلحة قد فشل في اتجاه طريق مسقط — مكران وأن التجار « قد يحاولون الالتفاف حول قواتنا » إلى أعلى الخليج ، وأنه يمكن السيطرة على ذلك بتوسيع دائرة الحصار دون زيادة القوة البحرية ، ويمكن تدعيم ذلك -- كما سبق القول بإقامة محطات الاسلحة في بوشهر والبحرين ودى . « ويمكن بذلك التأثير الفعال على التجارة دون الاستعانة بقوات ضخمة ، إذا ما انحصرت العمليات في منع جلب الأسلحة والذخائر إلى فارس عن طريق البحر » .

كما اقترح السير H.Mc. Mohon سياسة أكثر شمولا « للسمى لتحقيق السلام والهدوء في كل الأقاليم الساحلية في فارس » ، وقد رأى السير أنها السياسة الأكثر فعالية ، لأن « استمرار تجارة الأسلحة متوقفة على استمرار الفوضى في أقاليم الساحل » ومن أجل تحقيق النظام والهدوء ، فإنه يلزم تواجد قوة من ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ رجل على مرحلتين . وهذه القوة بينها هي على صلة بالبحر ، فإنه يمكنها السيطرة على الأقاليم حول بندر عباس ووادي ميناب وبنت وجه ، ويمكنها أيضاً تدعيم حراسة الطرق ، وتمطى الحكام المحليين المعاونة ضد الأفغانيين أو العصابات المحلية (١) .

أما بالنسبة لموقف الحكام المحليين في فارس ، فقد توقع الأدميرال سليد بأن إسلام خان سردار بنت وسيد خان سردار جه سوف يقدمان المعاونة المطلوبة لمنع الأفغانيين من الوصول إلى الساحل . وأضاف أنه يمكن تخفيف قوة الحصار البحرية

(١) Naval Commander-in-Chief, East Indies to Governor of India, 4th Dec. 1910.

بعد نهاية مارس سنة ١٩١١ ، إلا أنه حتى ذلك التاريخ « فلا يتصور إمكانية تخفيف قوة الحصار » (١) .

نشاط الأفغانيين في فارس :

لقد تواترت الأنباء بأن قوة من ٣٠٠٠ أفغانى كانت تتجمع في هرات وتستعد للتقدم إلى مكران . وفي ١١ يناير سنة ١٩١١ وصلت قوة من ١٢٠ أفغانى إلى بامبور ، وقد أمرهم إسلام خان بالانسحاب ، إلا أن موقفه كان ضعيفاً حيث تبين أنهم مستمدين للقتال . وقد منحه الإنجليز وعداً بالمعاونة إذا ما جاء الأفغانيون إلى الساحل (٢) . وكانت هذه القوة الأفغانية الصغيرة هي مقدمة للحشد الأفغانى ، وفي ٢٦ فبراير أبرق الضابط البحري الأول بأن نحو ٣٠٠٠ أفغانى يقتربون من إقليم كروان في مكران ، وأنهم مسلحون جداً ، وأن الشيء المقلق هو أنهم يحملون كميات ضخمة من الذخيرة .

وقد استنتج الأدميرال أن هذه القوات الأفغانية تنوى القتال بغرض مد نفوذها إلى بلوختان ، وطالب الأدميرال بإجراءات سريعة على أساس الاقتراح السابق بوجوب وضع قوة بريطانية في المنطقة خصوصاً وأن الحكام المحليين سوف يبذلون ولائهم إلى الجانب الأقوى ، وهو هنا الحشود الأفغانية المسلحة ، وأنه « يلزم لواء من ألفى رجل ومدفعين من المدافع الجبلية » (٣) .

وقد رفضت حكومة الهند أن تتخذ إجراءات فورية على الأسس التي اقترحتها

(١) Naval Commander-in-Chief, East Indies to Governor of India, 11 Dec. 1910.

I.O.L., B. 196, p. 19. انظر :

(٢) Commander-in-Chief to the Gov. of India, 16th January 1911.

I.O.L., B. 196, p. 19.

(٣) Sir G. Barley to Sir E. Grey, 26th February 1911.

I.O.L., B. 196, p. 19. انظر :

الأدميرال ، لأنه تبين أن الحملة البريطانية سوف تتكلف كثيراً ، وكذلك لأن عملية عسكرية بقوات كبيرة نسبياً في جنوب فارس ، قد تهرر عملية عسكرية أخرى — روسية — في الشمال . وقد أكدت الحكومة البريطانية أهمية هذه النقطة ، وأوصت بأن مسألة مكران يجب أن تعامل بما تستحق ، « لأنه من غير المرغوب فيه حالياً احتلال أراض فارسية » (١) .

أما المقيم في الخليج فقد أوضح وجهات نظره بالنسبة لاقتراحات الأدميرال : فبالنسبة لسلك الأفغانيين فإنه يمتد بأن العمليات البحرية لن تكون كافية ، وأنه يجب إزال قوة برية لديها إمكانيات نقل ومؤن كافية للقيام بعمليات حربية لمدة ثلاثة أسابيع على الساحل . كما اقترح تقسيم هذه القوة إلى جناحين : الجناح الغربي ويجب أن يبدأ من جاسك ويتقدم إلى بامبور عبر بنت وفانوخ وجويتير ، بينما يتقدم الجناح الشرقي إلى بامبور أيضاً عبر شارباروجه . وهكذا تم محاصرة الأفغانيين بالمواجهة من البحر ، وبقوتين متصلتين من الخلف . وأضاف المقيم بأنه « يمكن تلاقى أية معارضة من جانب الحكومة الفارسية ، وذلك بدعوتها إلى المشاركة في هذه العملية » (٢) .

وفي ٦ مارس أبقى الأدميرال إلى حكومة الهند بأن قوة من ٨٠٠ أفغانى قد وصلت إلى الساحل ، وأن ٣٠٠ آخرين وصلوا إلى فانوخ ، وتساءل عما إذا كان في إمكانه إعطاء وعد للحكام المحليين بالمعاونة البريطانية لهم في حالة مواجهتهم الأفغانيين (٣) ، وقد وافقت حكومة الهند فوراً على هذا الاقتراح ، كما اقترحت إرسال قوة من ألف رجل على سفينتين للمعمل تحت تصرف قائد الأسطول شرقاً

From I.O. to F.O., 9th March 1911.

(١)

From F.O. to I.O., 29th March 1911.
I.O.L., B. 196, pp. 19-20.

Lieutenant-Colonel Cox to Governor of India, 2nd March 1911.

(٢)

I.O.L., B. 196, p. 20.

انظر :

Commander-in-Chief, East Indies to Admiralty, 10th March 1911.

(٣)

I.O.L., B. 196, p. 20.

انظر :

وغرباً على طول الساحل . وقدرت تكاليف ذلك نحو ٢٠٠,٠٠٠ ريال شهرياً ، إلا أن حكومة الهند رفضت بشدة إنزال قوة أكبر إلى الداخل ، كما اقترح الأدميرال سليد والكلونيل كوكس ، ورأت أن هذه القوة يمكن استخدامها فقط للقيام بإغارات سريعة للقضاء على الجماعات التي تنزل الأسلحة إلى البر وحماية خط البرق^(١) .

وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذه المقترحات في ١٥ مارس ، وغادرت القوة البريطانية بمومباي في ٦ أبريل على السفينتين Northbrook, Hardinge^(٢) ، ولم تبلغ الحكومة الفارسية رسمياً ، لأن المقترحات لم تحتو على أى تغيير في العمل عن المأم السابق^(٣) .

وبدا أن الأفغانيين كانوا يستعدون للحرب ، لأنهم كانوا قد خسروا كثيراً في العام السابق ، وكما أوضح إسلام فإن « الحرب الفعلية سوف تنشب سريعاً »^(٤) .

ومع نهاية شهر مارس ، أصبحت تحركات الأفغانيين أكثر وضوحاً ، فقد كانوا على شكل قوتين رئيسيتين بقيادة كل من غلام خان وخليفة خير محمد ، وكانت القوة التي في حوزة غلام خان تتكون من ٥٠٠ أفغانى يتركزون في إقليم لاشاريين بنت وهو خان . أما خليفة خير محمد فبلغت قواته نحو ٤٠٠ أفغانى تقدم بها عبر بشكرد في اتجاه بندر عباس^(٥) . هذا بالإضافة إلى ١٠٠ رجل متناثرين على الساحل .

Governor of India to Viscount Morely 400/11, 15 March 1911. (١)

I.O.L., B. 196, p. 20.

انظر :

Viscount Morley's telegram 15 March 1911. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 20.

Commander-in-Chief to Admiralty, telegram 3rd April 1911. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 20.

انظر :

Captain Craufurd to Chief of General Staff, 11 March 1911. (٤)

I.O.L., B. 196, p. 196.

انظر :

Telegram from Viceroy, 517/11, 23 March 1911. (٥)

I.O.L., B. 196, p. 21.

انظر :

خليفة خير محمد هو الأكثر أهمية ، كما كان له تأثير ديني كبير^(١) . وقد رفض خليفة التفاهم مع الماجور أوكونور O'Connor الفصل في سستان . ومع نهاية فبراير أغار خليفة على قافلة في جرجه ، ونهب قبل ذلك عربة بريد فارسية .

وبالإضافة إلى هذين الفائدتين الأفغانيتين ، كان هناك مير بركات — الذي سبق السلام عنه — والذي كان من اللازم التعامل معه في إقليم بيايان ، والذي أثار حالة مستمرة من الاضطرابات هناك منذ هربه في أغسطس ١٩١٠^(٢) .

العمليات البريطانية في فارس :

كان إسلام خان وسيد خان من الحكام الفارسيين اللوالبين لبريطانيا ، وكان تعاونهم مع الانجليز في منع تجارة الأسلحة وطرد التجار الأفغانيين من أهم الأعمال التي أنجزت في الأقاليم الداخلية ، وذلك من وجهة النظر البريطانية .

وفي مارس ١٩١١ قدم الكابتن Craufurd ضابط المخابرات البريطانية صورة اتفاق بينه وبين السردار سيد خان حاكم جه والرئيس الأعظم لسكران الفارسية ، ويده النبي السردار إسلام خان حاكم بنت ، بأن تمنح حكومة الهند كلا منهما ٨٠٠ ريال سنوياً وذلك لأنهما ولدة الخمس سنوات الأخيرة رفضا معاونة الأفغانيين وقاوما تجارة الأسلحة ، وعاقبا الاشخاص الذين يملكون في هذه التجارة^(٣) . وقد وافقت حكومة الهند على هذا الاتفاق . إلا أنه لتلافي أي مشكلات

Consul General at Bushire to Sir G. Barley, 26 Feb. 1911. (١)

I.O.L., B. 196, p. 21. انظر :

Governor General in Baluchistan to Gov. of India, 23 Feb. 1911. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 21. انظر :

Captain Craufurd to Commander-in-Chief, 14th March. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 21. انظر :

مع الحكومة الفارسية — باعتبار أن هذا الإتفاق مع اثنين من الأمراء يمس استقلال فارس — فقد اقترح الكولونيل كوكس أن يعقد الإتفاق بواسطة مدير إدارة البرق الهندوأوربية ، وأن يوقمه المستر Gumbley وأن تدفع المنحة المالية للسوية عن طريق إدارة البرق^(١) . وقد تم التصديق على هذا الإتفاق في نوفمبر ١٩١١ .

وفي ١٣ أبريل ، تقدمت قوة بريطانية للبحث عن مخزنين للأسلحة تابين لخير محمد^(٢) قرب نهر جالغ ، وقد أبلغت الحكومة الفارسية أن هذا هو سبب إرسال قوات بريطانية من الهند . وقد رافق سيد خان هذه القوة البريطانية التي تقدمت عبر بركان على بعد ٢٠ ميلاً شمالي شكبند وثلاثين ميلاً من بنت . وتقدم الكولونيل ديلايمين Delamain قائد القوة ومعه سيد خان وإسلام خان من بركان في ١٦ أبريل إلى بنت ، حيث استقبل استقبالاً ودياً ، وظل هناك نحو ٦٠ ساعات ثم عاد مرة أخرى . وعادت القوة في ٢١ أبريل ، ولم تجد أسلحة هناك . إلا أنه نتيجة لهذا التقدم البريطاني إلى الداخل ، فقد تقهقر الأفغانيون الذين كانوا يحاولون الوصول إلى الساحل وانسحبوا بسرعة من بنت وفانوخ واتجهوا شمالاً^(٣) .

وبعد ذلك بيضعة أيام تواترت الأنباء بأن بركات خان قام بالاغارة على كل إقليم يابان ، وأنه يحاول إقامة مركز كبير لتجارة الأسلحة^(٤) ، وقد تقدمت قوة بريطانية على ساحل يابان في ٢٥ أبريل للعمل في مجموعتين . وأمکن في النهاية طرد

Gov. of India to L.-C. Cox, 8th April 1911. (١)

I.O.L., B. 196, p. 21. انظر :

Sir E. Grey to Sir G. Barley, 13th April 1911. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 21. انظر :

Commander-in-Chief to Admiralty, 22nd April 1911. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 22. انظر :

Telegram from Viceroy, 27th April 1911, 719/11. (٤)

I.O.L., B. 196, p. 22. انظر :

ميربركات بحسارة ١٢ من رجاله ، ثم عادت القوات إلى الهند^(١) .

وكانت هذه العملية على نطاق أوسع من الإغارات طبقاً للغرض منها عند الموافقة على إرسالها . وقد طلبت حكومة لندن تفسيراً من الأدميرال لأنه — طبقاً لبرقية حكومة الهند في أول مايو — بدا وقد تجاوز التعليمات المعطاة له^(٢) .

وكان تفسير الأدميرال باختصار أن تجارة الأسلحة في بلوخرستان الفارسية ترتكز على بركات خان ، وهو قد استدعى الأفغانيين جنوباً إلى يابان ، وأنه بإغاراته « على القرى الموالية لنا جعلها في حالة من الذعر قد تجعلها تقدم المعاونة للأفغانيين ، وقد جاء الفلاحون إلى جاسك لتقديم شكواياتهم إلينا ، وإذا لم نقم بعمل فعال ، فإنه قد يتفاخر بأنه قد أبعدهنا تماماً ، والنتيجة ضياع الهيبة البريطانية وازدياد نفوذه هو ، بينما السلطات الفارسية لا تملك القوة التي تردعه ، وأكثر من ذلك فإن الملاحه على ساحل يابان أثناء الرياح الجنوبية الغربية أ أكثر ملاءمة من ساحل مكران ، ويمكن نقل الأسلحة إليه بسرعة بينما ساحل مكران لا يمكن الاقتراب منه ، وهو مألوف أكثر لمهربى الأسلحة لقربه من ساحل عمان ، ولذلك فإنه من المرغوب فيه محاولة القضاء على نفوذ بركات كاستورد الأسلحة على هذا الساحل » . أما السبب الظاهري للحملة ، فقد اقترح الأدميرال استغلال فرصة استيلاء القوة على أسلحة من قارب كويتي تحطم قرب الساحل وتم بالفعل الاستيلاء على نصف محنته ، واعتبار هذه الحادثة سبباً ظاهرياً للحملة^(٣) .

وقد وافقت حكومة لندن على هذا التفسير ، بعد أن كانت قد انتقدت المدى الطويل الذي وصلت إليه الحملة إلى الداخل ، واحتمال حدوث مشكلة دولية بسببها .

Commander-in-Chief to Admiralty, 30th April 1911. (١)

I.O.L., B. 196, p. 22. انظر :

Viscount Morley's Telegram, 28th April 1911. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 22. انظر :

Telegram from Viceroy, 9 May 1911, 794/11. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 22. انظر :

وعلى أية حال مهما كان سلوك الجنرال ، فان تأثير الحملة كان فعّالاً — من وجهة النظر البريطانية — فقد رافق الحملة كل من سيد خان وإسلام خان ، وقد شعرنا بفعالية الحصار البحري ، والقدرة على التقدم مسافة كبيرة إلى الداخل (١) ، كذلك قدم أميران آخران هما ميرحاجى وميركبار معاوتهما للبريطانيين ، كما أن الأفغانيين تخلوا عن مير بركات تماماً (٢) .

أما بالنسبة للحصار البحري ، فقد طلبت حكومة الهند الموافقة الرسمية على استمرار الحصار طالما استمرت تجارة الأسلحة وطالما بقي الأفغانيون في مكران (٣) . وقد جاءت الموافقة على استمرار الحصار إلى نائب الملك في ١٥ مايو ، على أن تنتهى فترة الحصار في آخر نوفمبر ١٩١١ (٤) . ومن المناسب هنا أن نشير إلى أن كلا من المقيم في الخليج والقائد العام في الهند تمسكا بأن الحصار يجب أن يظل قائماً الى أن يمكن الوصول الى اتفاق دائم مع الحكومة الفرنسية أو مع سلطان مسقط (٥) . ولا شك أن الحصار كان ناجحاً تماماً ، الا أنه يتكلف كثيراً وأنه من المرغوب فيه على هذا الأساس — من وجهة النظر البريطانية — عدم الاستقرار في هذا الحصار بقدر ما تسمح به الظروف . ومن وجهة النظر الأخرى ، فإن أى تخفيفاً للحصار قبل الوصول إلى تسوية دائمة قد يؤدي إلى ضياع كل المكاسب التي حققتها بريطانيا من هذا الحصار . وفي ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٠ طلبت حكومة لندن

Earl of Crewe's Telegram to Gov. of India, 2nd June 1911. (١)

I.O.L., B. 196, p. 22. انظر :

Mr. Gregson's Report, 4th May 1911. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 22. انظر :

Telegram from Viceroy, 13th May 1911, 805/11. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 23. انظر :

Earl of Crewe's Telegram, 20th June 1911, 37/9/11. (٤)

I.O.L., B. 196, p. 23. انظر :

Lieutenant-Colonel Cox to Gov. of India, 28th August 1911. (٥)

I.O.L., B. 196, p. 23. انظر :

من حكومة الهند أن توضح وجهة نظرها بالنسبة للموضوعات التي قد تثار في المفاوضات بالنسبة لأربع نقط :

١ — « التنازلات الإقليمية التي يمكن منحها لفرنسا في الهند في مقابل الامتيازات البريطانية في مسقط .

٢ — « ما إذا كان أي تنازل من جانب فرنسا ، لا يكون أقل من حرية السلطان منع استيراد الأسلحة .

٣ — هل يكفي احتكار سلطنة مسقط وحكومة الهند للتجارة في مسقط ؟

٤ — هل من الممكن دراسة مسألة التمويض النقدي للحكومة الفرنسية أو للتجار الفرنسيين في مسقط ؟

وقد استشارت حكومة الهند المقيم في الخليج بالنسبة للنقاط الثلاث الأخيرة ، وبعد أن اجتمع بالمجور Trevor الممثل السيامي في مسقط ثم بالادميرال سليد Slade أعطى وجهة نظره ونظرهما كالآتي :

١ — أن كل مجهوداتنا في الفارضة مع فرنسا يجب أن تهدف الى المنع التام للاستيراد والتصدير ، وبدون ذلك فإنه من الصعب على أي موظف حكومي السيطرة على الجمارك .

أما احتكار سلطة مسقط للتجارة يمد أمراً غير عملي ، لأنه من المحتمل أن يمنع السلطان هذا الاحتكار ان يدفع أكثر .

٢ — وأي مشروع آخر دون المنع الكامل للتجارة يجب أن يتضمن :

« (أ) تحديد الاستيراد الى المطالب الفعلية للسلطان ورعيته ، ويمكن تحديد الكمية بانفاق مشترك .

(ب) قصر الاستيراد على مسقط فقط .

٣ — فيما يتعلق بالتمويض فإن الحل الوحيد الممكن هو شراء المخزون من الأسلحة الموجودة في مسقط .

والواقع أنه منذ عقد مؤتمر بروكسل الدولي لمنع تجارة الأسلحة في مسقط

والخليج وحدود الهند وشبه الجزيرة العربية (١) ، بذلت بريطانيا مجهودات مستميتة للوصول إلى تسوية مع فرنسا ، وقد بدأت المفاوضات بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية في أبريل ١٩١٠ ، إلا أن هذه المفاوضات باءت بالفشل أيضاً (٢) والواقع أن الشركات الفرنسية التي كانت تضغط على الحكومة الفرنسية ضغطاً لكي تستمر في ممارسة نشاطها (٣) . ولم يبق هناك سوى ما اقترحه كوكس من نبد المفاوضات مع فرنسا والاتصال مباشرة بأمارات الخليج العربي .

موقف إمارات الخليج العربي من التجارة :

لقد كانت هناك معاهدات ولائمة بين الحكومة البريطانية وشيوخ الكويت والبحرين والشيوخ المهادين مع الكويت (٢٣ يناير ١٨٩٩) على ألا يقبل الشيخ أى ممثل أو مبعوث من أية قوة أجنبية إلا بعد موافقة الحكومة البريطانية ، وأن لا يبيع أو يتنازل أو يرهن أو يسمح باحتلال أى جزء من أراضيه لأية قوة أجنبية أو لرعايا أية قوى أجنبية . وقد منح الشيخ مكافأة من ١٥٠٠٠٠ ريال في مقابل توقيعها على المعاهدة .

وكانت المعاهدات مع البحرين والساحل المهادن على نفس النوال مع اختلافات بسيطة . وجدير بالذكر أنه كانت قد عقدت معاهدة مع مسقط في عام ١٨٩١ تمهد فيها السلطان بعدم التنازل أو البيع أو الرهن لأى جزء من أراضيه سوى للحكومة البريطانية (٤) .

وبالنسبة للتجارة في الأسلحة والدخائر فقد واجهت بريطانيا بعض الصعوبات

Philip Graves, The Life of Sir Percy Cox, p. 142.

(١)

India Office Library, Political Dep.
B. 182, Arms Traffic at Muscat.
I.O., 15th Feb. 1911.

(٢)

Graves, op. cit., p. 142.

(٣)

I.O.L. Pol. Dep., B. 151, Memo. British Interests on the
Coast of Arabia, Kowalt, Bahrein and El-Katr, 1905.

(٤)

في التعامل مع إمارات الخليج ، فإن شيخ الكويت الذي كان قد تمهد في مارس ١٩١٠ بتنفيذ تصريحه في مايو ١٩٠٠ والخاص بمعاينة أى ملاح في الكويت يتاجر في الأسلحة يواجه في أبريل حادثة هامة ، فقد قبضت السفينة البريطانية Hyacinth على ملاح اسمه محمد صالح ؛ إلا أنها أفرجت عنه بعد ذلك ، ومن ثم ارتبط ببيع سفينته « فتح الخير » إلى شركة Goguyer et Cie الفرنسية في مسقط — وهي شركة تعمل في تجارة الأسلحة — وفي ٢٧ أبريل ١٩١٠ وصلت السفينة « فتح الخير » إلى الكويت وعلى ظهرها محمد صالح ويرفرف عليها العلم الفرنسي ، وتبين من أوراقها أنها أصبحت مملوكة لشركة Goguyer ، كما كانت الأسلحة التي تحملها باسم تمثل شركة Goguyer في الكويت . . . وهنا جاءت اللحظة التي تظهر مدى تمسك شيخ الكويت بتمهدهاته للبريطانيين ، إلا أن الشيخ بدأ متردداً .

وقد حثه السكابتن شكسبير — الضابط السياسي في الكويت — كي يقبض على الملاح لأن له الحق في ذلك . « أما بالنسبة للأسلحة ، فإنه رغم تصريح عام ١٩٠٠ يعطيه الحق في الاستيلاء عليها ، فإنه من الأفضل من الناحية السياسية ، ولتلافي أية تعقيدات مع الفرنسيين أو تجار مسقط ، من الأفضل تحويل المسألة إلى الكولونيل كوكس أو إرسال الأسلحة إلى البصرة أو إعادتها إلى مسقط » . وبعد ذلك ببضعة أيام تواترت الأنباء أن الشيخ قد وافق على بعض الاعتذارات من محمد صالح ثم تركه يذهب بالسفينة . كما أن الأسلحة سلمت للوكيل بعد دفع الضرائب المعتادة أى ٦ ريال عن كل بندقية . كما أخذ الشيخ لنفسه بعض الأسلحة . ولما كانت الأسلحة لازالت في حوزة الوكيل ، فقد حث السكابتن شكسبير الشيخ على الاستيلاء عليها ، كما وعده بالمعونة البريطانية في حالة حدوث أية مشكلات . وقد وعد الشيخ بأن يفعل ذلك ، وأكثر من ذلك بأن يرفض الاعتراف بالوكيل التجاري للشركة الفرنسية . إلا أن الشيخ تردد في تنفيذ ذلك ، مما أدى بالسكابتن شكسبير إلى الاستيلاء على الأسلحة (٣٠١ بندقية ، ١٠٠ ، ٣٠ طلقة نارية) .

وقد حاول الشيخ التنصل من أية مسئولية ، وأن يلقي المسئولية كلها على عاتق الضابط السياسي بأن يجعله يقدم صكاً بالاستلام إلى وكيل الشركة الفرنسية ، وأن يبلغه بأن الاستيلاء قد تم بواسطة وليس عن طريق الشيخ ، وقد رفض السكابتن

شكسبير ذلك بطبيعة الحال . وأخيراً عرض الشيخ في ٨ مايو أن ينقل الأسلحة من الوكالة إلى الجمرك حيث وضعت بالفعل تحت التحفظ والحراسة^(١) .

ومنذ تحمل الشيخ مسئولية ذلك ، فإنه تمسك بهذا الموقف الصارم ، وعندما طلب منه ممثل الشركة الفرنسية في يونيو إعادة الأسلحة ، فإنه رفض كل العروض المقدمة له مشيراً إلى أن الاستيلاء قانوني طبقاً للتصريح ، وأعين أنه لن يسلم الأسلحة إلى أية جهة خارجية حيث أنه تم الاستيلاء عليها « للخزانة العامة لدولته » .

وفي ٢١ مايو ١٩١٠ كتب الشيخ يؤكد للفتنانت كولونيل كوكس مظهراً إخلاصه ورغبته في تنفيذ التصريح « لأن الطاعة لأوامرك ورضاءك عنا هما أهم الفوائد بالنسبة لنا » . ورغم ذلك فقد اضطر السكاكين شكسبير إلى اتهام الشيخ — رغم إنكار الأخير — بأن سفينتين قد أنزلتا نحو ١٧٠٠ بندقية مؤخراً في الكويت .

ويجب أن نوضح هنا أن الشيخ مبارك كان حديثاً قد أصابته خسائر فادحة في الأسلحة نتيجة لهزيمة الكويت أمام سعدان باشا ، وأنه في سبتمبر ١٩١٠ سمح له بأن يعرض نفسه في الأسلحة بشراء ١٥٠٠ بندقية من مسقط وأن ينقلها إلى أعلى الخليج بعد أن أعطاه الماajor Trevor تصريحاً بذلك .

وفي غضون ذلك الوقت أبدى الشيوخ المهادنون وشيوخ البحرين انجهاً موالياً لبريطانيا . ففي ٢٢ يونيو ١٩١٠ سجل ممثل للقيم على الساحل المهادن بأن شيخ دبي الشيخ بو تي ابن سهيل قد استولى على ٣٩٦٠ طلقة كانت في حوزة اثنين من الرعايا الفرس ، وقد شكر كوكس الشيخ على هذا العمل ، ومن أجل تشجيعه هو وغيره على السير في هذا السبيل ، سمح له كوكس بالاحتفاظ بالذخيرة بشرط

(١) Telegram from Captain Shakespear to Lieutenant-Colonel Cox, 12th May 1910.

عدم إعادتها مرة أخرى للتاجرين الفارسيين ، وقد وافقت حكومة الهند على هذا الإجراء (١) .

وفي أغسطس استولى السكابتن ما كنزى فى مهرج — جزيرة صغيرة قرب البحرين — على ٢٥ بندقية ، ٨ مسدسات ، ٣٩,٨٣٤ طلقة وذلك بمعاونة شيخ البحرين . وكان التاجر المسئول هو يوسف فخرى أحد الأصدقاء المقربين من الشيخ وأحد كبار التجار فى البحرين . ونتيجة للموقف الخطير ، رأى ما كنزى اتخاذ أسلوب أكثر حزمًا ، ولما كان من غير المرغوب فيه — سياسياً — حبس هذه الشخصية الكبيرة ، فإن الشيخ حكم عليه بغرامة قدرها ٤٠٠٠ ريال — بعد استشارة الضابط السياسى — مع تدمير الأسلحة . ومن وجهة النظر البريطانية ، فإنه لم يكن من الصواب أن يقوم الشيخ بمصادرة الأسلحة ، لأنه رغم اكتفائه الذاتى من الأسلحة ، فإنه كان من المعقول جداً أن يعيدها إلى يوسف فخرى .

ونتيجة لهذا السلوك الموالى من جانب الشيخ ، فقد تلقى شكر حكومة الهند (٢) .

وبدأت وطأة الحصار تؤثر بقوة على مسقط ، وشعر السلطان نفسه بهذا الضغط . وقد أبدى السلطان سوء حالته المالية لللكولونيل كوكس ، وأن تجارة الأسلحة هى ضارة به حالياً ، وأنها عقدت علاقاته مع القرى الأخرى ، وأنه يرغب فى منع هذه التجارة . وقد اقترح كوكس إقراضه قرضاً صغيراً كحل سريع ، إلا أن السلطان رأى أن ذلك لا يلبق بمكانته ، وطالب باتفاق أو تسوية لكل مسألة التجارة (٣) .

وكانت السفينة البريطانية Fox قد قامت بالإستيلاء على السفينة « بديل »

Telegram to L.-C. Cox, 19th July 1910.

(١)

I.O.L., B. 196, p. 9.

انظر :

Telegram, Governor of India to L.-C. Cox, 11th Oct. 1910.

(٢)

I.O.L., B. 196, p. 9.

انظر :

L.C. Cox to Governor of India, 1484/10, 18th Sept. 1910.

(٣)

I.O.L., B. 196, p. 9.

انظر :

في ميناء مسقط ، وقد اعتبر السلطان أن الاستيلاء على شحنة هذه السفينة يعد إهانة شخصية له كحاكم مستقل ، واستنكر كذلك بعض حالات الإستيلاء على شحنات الأسلحة في الميناء . وقد تمسكت بريطانيا بأن تصريح السلطان في يناير ١٨٩٨ يمطى للبريطانيين هذا الحق . وبالنسبة للسفينة « بديل » فإنه كان من المستحيل أن يترك البريطانيون الشحنة للسلطان بينما من المتوقع جداً أن يعيدها مرة أخرى للتجار للتصدير ، هذا في الوقت الذي « تمسك فيه بالحصار القوي يتكلف نفقات طائلة لمنع ذلك » .

ولا شك أن حالة السلطان المالية قد تدهورت كثيراً ، وأدى ذلك إلى قيامه بتشجيع تجارة الأسلحة سراً . ومن ثم اقترح كوكس أنه « إذا كنا في حاجة ماسة إلى معاونته في أية مساومات قريبة مع فرنسا ، فإنه ليس من الحكمة أن نرفض لسموه أى طلب وأنه يجب منحه فوراً مبلغاً مقدماً من قيمة شحنة السفينة « بديل » في حدود ١٠٠ ريال عن كل بندقية ، ٥٠ ريال عن كل ١٠٠ طلقة ، أى أن المجموع النهائي يبلغ نحو ١٤,٢٥٠ ريالاً عن الشحنة كلها » . وقد رأت حكومة الهند أنه يمكن الموافقة على اقتراح كوكس « إلا إذا كان هناك اتجاه لمعد تسوية مع فرنسا »^(١) . إلا أن حكومة لندن أبلغت حكومة الهند بأنه ليست هناك توقعات للمفاوضات مع فرنسا ، وهكذا تمت الموافقة على دفع المبلغ المذكور لسلطان مسقط^(٢) وقد رفض السلطان هذا المبلغ ، وطلب إعادة الأسلحة بواسطة لأصحابها ، وتبين أنه كان قد اقترض من التجار وأنهم اشترطوا عليه إعادة الأسلحة^(٣) .

ولا شك أن الحصار كان فعالاً ومؤثراً على تجارة الأسلحة في مسقط ، ورغم

Telegram from Viceroy, 1544/10, 28th Oct. 1910.

(١)

I.O.L., B. 196, p. 10.

انظر :

Earl of Crew's Telegram, 15th Nov. 1910.

(٢)

I.O.L., B. 196, p. 10.

انظر :

Telegram from Viceroy, 26 Dec. 1910.

(٣)

I.O.L., B. 196, p. 10.

انظر :

التجار الفرنسيين وخاصة شركة Goguyer تأثراً كبيراً من الحصار ، فإن الأسلحة الواردة كانت بصفة رئيسية صناعية بلجيكية أو انجليزية^(١) .

وفي سبتمبر أيرق للماجور Trevor الممثل البريطاني في مسقط إلى الكولونيل كوكس بأن التجار قد تأثروا كثيراً بالحصار ، وأن الأسعار قد انخفضت كثيراً ، إلا أنه عندما تواترت الأنباء عن وفاق بين الحكومتين البريطانية والفرنسية بالنسبة لمسألة الأسلحة ، فان بعض التجار بدأوا في التحفظ على الأسلحة التي في مخازنهم بأمل نيل تعويض في النهاية^(٢) .

وفي ٤ أكتوبر أبلغت حكومة الهند بأن مسألة التعويضات «لن تناقش الآن» ، إلا أن حالة التجار في مسقط كانت آخذة في الانماش ، فقد قدم شيخ الكويت طلباً لشراء كميات ضخمة من البنادق بتصريح بريطاني ، كما ادفع التجار الأفغانيون للشراء ، وهكذا انتعشت التجارة بعض الوقت .

تدعيم الحصار البحري على طول الساحل الفارسي والعربي :

لقد أثبتت مسألة استمرار الحصار مرة أخرى ، وتم التصديق على ذلك حتى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ . وقد أوضح الأدميرال سليد Slade عن وجهة نظره بأنه يجب استمرار الحصار تحت أية ظروف لمواجهة نشاط الأفغانين « وأنه عند وصول هؤلاء إلى الخليج وتأكدهم من فعالية الحصار فمن المحتمل أنهم سوف يتراجعون وينهون الصراع ، إلا أننا إذا رفقنا بالحصار ، فسوف تتجدد تجارة الأسلحة مع ازدهار أكثر من أي وقت مضى » .

كما أوضح الأدميرال أن القوة البحرية اللازمة لكي يكون الحصار فعالاً يجب أن تتكون من أربعة طرادات وسبع سفن حربية ، كما أشار إلى أنه إذا كان الحصار ناجحاً ، فانه من المحتمل إنقاص عدد من السفن إلى ثلاثة في فبراير أو مارس

Governor of India to Viscount Morley, 1149/10, 11 August 1910. (١)

I.O.L., B. 196, p. 10.

انظر :

Major Trevor to L.C. Cox, 17th Sept. 1910. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 10.

انظر :

١٩١١ (١) .

كما أكد ممثل الحاكم العام في بلوختان أهمية استمرار الحصار ، واقترح تدعيم ذلك الحصار حتى يخاف التجار من المخاطرة بأموالهم في تجارة الأسلحة .

أما الكولونيل كوكس فكان يرى وجوب استمرار الحصار وتدعيمه حتى ربيع عام ١٩١١ (٢) . وقد وافقت حكومة الهند على تلك الاقتراحات ، وأعارت — بموافقة وزير الدولة — ثلاث سفن لقوة الحصار حتى تصل القوة إلى سبع سفن حربية (٣) .

وفي ٢٩ نوفمبر وافقت حكومة الهند على مقترحات الضباط الثلاثة ، وأرسلت اقتراحاً إلى حكومة لندن باستمرار الحصار إلى نهاية مارس ١٩١١ (٤) .
وقد وافقت الحكومة البريطانية على ذلك في ١٦ يناير ١٩١١ (٥) .

وفي غضون ذلك الوقت ، تم تدعيم الحصار ، وقام الأسطول بنشاط كبير ، وفي ٢ نوفمبر نزلت قوة من السفينة البريطانية Proserpine على مسافة سبعة أميال

Admiral Slade to Government of India, 2nd August 1910. (١)

I.O.L., B. 196, p. 11. انظر :

L.C. Cox to Government of India, Telegram, 30 August 1910. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 12. انظر :

Telegrams from Gov. of India, 1st Nov. and 7th Nov.
Telegram from Secretary of State, 7 Nov. 1910. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 12. انظر :

Telegram from Viceroy, 1713/10, 29th Nov. 1910. (٤)

I.O.L., B. 196, p. 12. انظر :

Earl Crewe's telegram, 16 January 1911. (٥)

I.O.L., B. 196, p. 12. انظر :

من بريس للبحث عن الأسلحة المحمولة إلى المنطقة المجاورة^(١) . وهاجم بعض الأفغانيين بعض البالوخ ، وفي اليوم التالي نزلت قوة بريطانية أخرى من السفينة الحربية Perseus وتم الاستيلاء على ٢٦٠ بندقية و ٣٠,٠٠٠ طلقة ، كما تم اكتشاف القارب الذى أحضر هذه الشحنة من الأسلحة والدخائر وتم إحراقه^(٢) .

واستمر نشاط الأسطول البريطانى فى تدعيم الحصار البحرى ، ففى ٢٠ نوفمبر ١٩١٠ ، أحرق الكابتن Hant قارباً عليه شحنة من الأسلحة ، وكان هذا للقارب ملوكا الملاح اسمه عبد الله من رعايا سلطان مسقط^(٣) . كما أحرق الكابتن هنت سفينتين محملتين بالأسلحة والدخائر فى ٢٩ نوفمبر^(٤) .

وكان إجراء إحراق قوارب تهريب الأسلحة إجراءً جديداً بتعليمات من الأدميرال سليد Slade ، ولا شك أن هذا الأسلوب الجديد فى عمليات الحصار كان فعالاً من وجهة النظر البريطانية ، لأن بحارة السفن وجدوا أن عملية نقل الأسلحة عملية خطيرة لا تساوى المخاطرة من أجلها ، لأنها قد تؤدى إلى فقد السفينة نفسها . ولقد كان لهذا الأسلوب أثره حتى أن الأدميرال سليد أمكنه أن يؤكد فى فبراير ١٩١١ أن « تجارة الأسلحة أصبحت راكدة تماماً ، وأن بعض الشحنات كانت تهرب عبر الحصار من وقت لآخر إلا أنه حتى هذه الشحنات قد نقصت

Telegram from Commander-in-Chief to Admiralty, 4th Nov. 1910. (١)

I.O.L., B. 196, p. 12. انظر :

Gov. of India to Earl Crewe, 11th Nov. 1910. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 12. انظر :

Captain Hunt to Commander-in-Chief, 24th Nov. 1910. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 13. انظر :

Captain Hunt to Commander-in-Chief, 29 Nov. 1910. (٤)

I.O.L., B. 196, p. 13. انظر :

إلى حد كبير منذ أن أصدرت تعليماتى بإحراق القوارب القاعية بالتهريب» (١) .

إلا أنه بينما نجح الحصار البحري في إيقاف التهريب في ساحل مكران ، فإن التجارة في الأسلحة استمرت في أعلى الخليج . وجاءت الأنباء بأن عدداً كبيراً من الأفغانيين كانوا يعملون في ميناء بندر عباس إلا أنهم اختفوا فجأة وبطريقة غامضة . وتبين بعد ذلك أن كمية كبيرة من الأسلحة قد نقلت سراً من الكويت إلى بندر طاهري الفارسي ، وأنه من المرجح أن أمر اختفاء الأفغانيين متصل بهذه العملية .

وفي ٢٤ ديسمبر ١٩١٠ حدثت حادثة هامة في دبي ، فقد نزلت قوة بريطانية من السفينة الحربية Hyacinth إليها نتيجة لمعلومات سابقة بأن أسلحة سوف تصدر منها بطريقة مخالفة للمعاهدة البرمة معها وقد أطلق العرب النار على القوة البريطانية ، وكانت خسائر البريطانيين ٦ قتلى ، ٩ جرحى وخسر الجانب الآخر ٣٧ قتيلاً .

والواقع فإن القتال قد « ازداد حدة نتيجة للشعور للترديد من العداء والغيظ نتيجة للإجراءات التي دعمت منع تجارة الأسلحة على الساحل » .

وفي ٢٠ ديسمبر استدعى الليفتينانت Noakas R.N. الشيخ طي شيخ دبي للاتفاق معه على تفتيش أحد المنازل للشك في وجود أسلحة فيها ، إلا أن الشيخ تملكأ في ذلك ، مما أدى إلى فشل العملية . وفي ٢٢ ديسمبر علم الكابتن ديك J.D. Dick السفينة Hyacinth أن الليفينانت نوكس قد خدع ، وأن الأسلحة قد أخفيت عنه . وعندما استدعى الشيخ لتفتيش منزلين آخرين بصحبة قوة بريطانية ، فإنه لم يستجب لذلك وعندما قامت القوة البريطانية وحدها بالتفتيش ، بدأت بعض الإضطرابات ، وتبين أن الشيخ هو الذي صمم بهذه الاضطرابات إلا أنه عندما وجد أن الحالة قد أصبحت خطيرة ، فإنه عمد إلى القضاء على هذه الاضطرابات . « وتبين

Str E. Slade to Admiralty, 18th Feb. 1911.

(١)

أنه لا در على السيطرة إذا ما رغبت في ذلك» (١).

وفي ٢٨ ديسمبر استقبل الاميرال سليد Slade والكولونيل كوكس الشيخ على ظهر السفينة Hyacinth. وقد أنكر الشيخ عدم تعاونه، واتهم الجماعة البريطانية التي نزلت إلى البر بأنها هي التي بدأت بالمعدوان، إلا أن كلماته كانت تختلف كلية عن تقارير الضباط البريطانيين. وأكثر من ذلك فإنه رفض إعادة إقامة «صارى» — كانت قد أقامته السفينة Hyacinth لإظهار حركة المد والجزر — وكان قد رفع بتعليمات من الشيخ، كما رفض أن يقيم ضابط بريطاني في دبي كممثل للمقيم (٢). ونتيجة لذلك أرسل إنذار بريطاني مكتوب ولمدة ٤٨ ساعة يطلب الآتي :

١ — إعادة السريمة للقائم الحشوي (الصارى) وأن يظل هذا الصارى قائماً الفترة التي يحددها قائد السفينة البريطانية Hyacinth.

٢ — الموافقة على إقامة محطة للبرق في الوقت الذي تراه الحكومة مناسباً وطبقاً للشروط الواردة في المادة الإضافية لمعاهدة ١٨٥٣.

٣ — تسليم ٤٠٠٠ بندقية صالحة على أن تجمع مع الأهالي.

٤ — دفع ٥٠,٠٠٠ ريال كتعويض يوضع تحت تصرف الحكومة.

٥ — الموافقة على إقامة ضابط بريطاني كممثل، ومعه حرس خاص من قوة صغيرة، ويجب على الشيخ التعاون معه وحمايته ومعاملته معاملة ودية.

٦ — الموافقة على إقامة مكتب بريد فرعى تابع لإدارة البريد الهندية.

Commander-in-Chief to Admiralty, 30th Dec. 1910. (١)

I.O.L., B. 196, p. 14. انظر :

C. Dick to Commander-in-Chief, East Indies, 12 Dec. 1910. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 14. انظر :

وقعت المادة الإضافية في عام ١٨٦٤؛ وطبقاً لها فإن كل الشيوخ المهادينين — بما فيهم شيخ دبي — تمهدوا بالامتناع عن أى تدخل في العمليات الخاصة بالبرق التي تقوم بها الحكومة البريطانية في أقرب أراضيهم.

وبالنسبة للبندين ٥ ، ٦ ، وافق الأدميرال ولتقيم بأنه للأغراض السياسية والتجارية ومشاكل تجارة الأسلحة ، فإنه مطلوب تعيين ضابط بريطاني في دبي ، وأن إقامة مكتب بريد جديد قد « طالب به التجار البريطانيون ، وأن تعيين ممثل يجمل من الضروري وضع قوة خاصة لحمايته ومحطة لاسلكي » (١) .

وفي أول يناير ١٩١١ ، قرر الأدميرال أن الشيخ قد أذعن للشروط الأربعة الأولى التي حوّاها الإنذار ، وأضاف الأدميرال بأن الأحداث الأخيرة أوضحت بأنه حاكم ضعيف ، وأنه يبدو من الأهمية بمكان وضع ممثل بريطاني هناك ، وأن تكون معه قوة من ١٠٠٠ رجل .

وقد رأت حكومة الهند أن للوقوف في دبي مضطرب ومخاط بالأخطار ، وأن التمويض من ٥٠٠٠٠ ريال هو تعويض باهظ ، وأوصت بأنه يجب أن يكون واضحاً للشيخ ورؤساء القبائل في دبي وغيرها من المناطق ، أن للسألة الوحيدة التي تهتم بها الحكومة وهي إيقاف تصدير الأسلحة إلى فارس ، وأنه ليس هناك اتجاه لمنع رجال القبائل أنفسهم من حيازة الأسلحة أو للانتقاص من استقلالهم . كما رفضت حكومة الهند فكرة وضع قوة مع الممثل البريطاني في دبي ، وتمسكت بأنه « إلى أن يمكن إعادة العلاقات الودية إلى درجة تسمح بوضع ممثل هناك ، فإنه يعتبر كافياً قيام نائب القنصل في لجنة Lingah بزيارة دبي من وقت لآخر » (٢) .

وقد وافقت الحكومة البريطانية بهفة عامة على المقترحات الأخيرة ، خصوصاً بالنسبة لوضع مقيم في دبي ، وكذلك أشارت إلى أنه من المرغوب فيه جداً « تلافى أى عمل من شأنه أن يفسر على أنه تدخل في شئون الإمارات العربية » . وقد رأت الحكومة البريطانية أيضاً تفويض الكولونيل كوكس والأدميرال في مسألة التمويض

C. Dick to Commander-in-Chief, East Indies, 31 Dec. 1910. (١)

I.O.L., B. 196, p. 15. : انظر

Telegram from Viceroy, 2nd January 1911, containing telegram to Resident, 151/11. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 15. : انظر

« والتي بالنسبة للخسائر في الأرواح فإنها يجب أن ترفع طبقاً لمقدرة الشيخ على الدفع » (١).

وقد أشارت حكومة الهند إلى حقيقة أن الشيخ قد امتثل لشروط الإنذار ، ومن ثم أصدرت تعليماتها إلى القيم في الخليج بأن البنود ٢ ، ٥ ، ٦ (والخاصة بإقامة محطة البرق ومكتب البريد والممثل البريطاني) سوف تؤجل إلى حين هدوء الأحوال ، وأنه في غضون ذلك ، فإن كل التعويض البالغ ٥٠,٠٠٠ ريال سوف يحفظ إلى حين طلب الحكومة (٢).

وقد أشار القيم في خطابه في ٨ يناير إلى المخاوف التي جاءت في برقية حكومة الهند بتاريخ ٢ يناير بالنسبة لموقف بقية الشيوخ (٣) ، فقد تم استقبال كل من شيخ الشارقة وأم السكونين على السفينة Hyacinth في ٣٠ ديسمبر ، وأنهما قد تأثرا كثيراً بما رآوه ، وأنهما قد أسفلا للخلاف بين شيخ دبي والحكومة ، وأن الشيخين قد تعاونوا على إقناع الشيخ بقبول الإنذار البريطاني ، وقد فهم الإثنين جيداً أن الحصار لا يمس استقلالهما (٤).

وقد كان لهذه الأعمال أثرها في تهدئة الأحوال ، وسحبت السفينة الحربية من دبي ، ووضعت داورية ساحلية بدلاً منها (٥). وقد استمرت تلك الحالة الحادثة في

Earl of Crewe to Gov. of India telegram, 5 January 1911. (١)

I.O.L., B. 196, p. 16. انظر :

Telegram from Viceroy, 23 January 1911. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 16. انظر :

L.C. Cox to Gov. of India, 8 January 1911. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 16. انظر :

Commander-in-Chief to Admiralty, 2 Jan. 1911. (٤)

I.O.L., B. 196, p. 16. انظر :

L.C. Cox to Gov. of India Telegram. 12 January 1911. (٥)

I.O.L., B. 196, p. 16. انظر :

دنى ، حتى أن شيخها — رغبة منه في إظهار سلوكه الودى — قام بتقديم المعاونة الفعالة في أغسطس من أجل إيقاف شحنة من الأسلحة كانت متجهة من الساحل إلى أحد موانئ تنجستان (١) .

تجارة الأسلحة في مسقط :

تميزت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بازدياد حدة النشاط الأوربي في مياه الخليج العربي وخاصة من جانب فرنسا والروسيا وألمانيا . وقد ركزت فرنسا أنجهاها في مسقط . وكانت فرنسا من قبل قد استغلت فرصة امتداد سلطنة مسقط إلى الساحل الشرقى الأفريقى ، وعقدت معاهدة مع السيد / سعيد ابن سلطان حاكم مسقط وزنجبار في عام ١٨٤٤ .

وعندما عملت بريطانيا على تقسيم سلطنة مسقط — زنجبار أرادت أن تضمن موافقة فرنسا على ذلك التقسيم ، وذلك بمقتضى التصريح المشترك الصادر في باريس في مارس ١٨٦٢ . والواقع أن فرنسا وجدت في هذا التصريح فرصة لإفلاق بريطانيا على أساس أن لها مركزاً مساوياً — ولو نظرياً — مع مركز بريطانيا في كل من مسقط وزنجبار .

ولما كانت مسقط تحتل مركزاً هاماً على الطريق بين عدن وبومباى ، لذلك كانت لها أهمية كبيرة بالنسبة للحكومة البريطانية ، ولهذا السبب أخذت فرنسا تعارض السياسة البريطانية التي تستهدف السيطرة عليها ، وكثيراً ما لجأت إلى إثارة العقبات ضدها مستندة إلى ما لها من امتيازات سابقة أو على الأقل إذا رفضت بريطانيا الاعتراف لفرنسا بتلك الامتيازات فأنها كانت تعود إلى تأكيد تمسكها بالتصريح المشترك .

ومما يستلفت النظر أن الحكومة البريطانية استطاعت أن توثق صلتها بسلطنة مسقط ، وأن تحقق لنفسها الكثير من الامتيازات . وقد تطورت علاقتها بمسقط

Sir G. Barley to Sir E. Grey, 1 Sept. 1911.

(١)

بوجه خاص على أثر وفاة السيد / تركي بن سعيد في عام ١٨٨٨^(١) الذي خلفه ابنه الأصغر فيصل بعد أن نجح في إقضاء أخيه الأكبر محمود الذي كان من المقروض أن يؤول إليه الحكم^(٢) ولذلك أصبح فيصل في موقف يحتم عليه الحصول على تأييد خارجي يعتمد عليه في مواجهة المتاعب التي أثارها أخوه ضده ، وكذلك لمواجهة الفلائل في بعض أجزاء عمان الداخلية ، ولعل الحكومة البريطانية وجدت في ذلك الوضع فرصة ملائمة لتوالي الضغط على السلطان الجديد ، فلم تعترف به في بداية الأمر ، ويبدو أنها أخذت تسارمه بعد ذلك في نظير اعترافها بولاياته حتى أعلنت هذا الاعتراف في عام ١٨٩٠ مع استمرارها في دفع الإعانة السنوية له ، وذلك بمسئد أن تعهد من جانبه بالمحافظة على الاتفاقات والمعاهدات التي عقدها والده مع بريطانيا^(٣).

وكانت أولى الأعمال السياسية للسيد / فيصل هو عقده لمعاهدة صداقة وملاحة وتجارة في ١٩ مارس ١٨٩١ مع بريطانيا ، وقد حلت هذه المعاهدة محل المعاهدة التي سبق أن عقدها السيد / سعيد بن سلطان في عام ١٨٣٩ ، وكانت تعنى هذه المعاهدة الأخيرة خضوع السلطان لحكومة الهند^(٤) . وتمتاز هذه المعاهدة بكثرة المواد المنظمة للعلاقات التجارية للسلطنة ، كما نصت في مسألة السلطة القضائية للقنصل البريطاني على شمولها للأرغابا البريطانيين^(٥) ، وأن هذه المسائل سواء كانت مدنية أم جنائية ، فإن من حق السلطات القنصلية البريطانية البت فيها^(٦) . كما تضمنت المعاهدة نصاً

Philby, Arabia, p. 165.

(١)

Bent, Southern Arabia, pp. 56-57.

(٢)

Arabie — Revue des deux mondes, tome VI, p. 906.
Rouire, La question du Golfe Persique CF l'Angleterre en

(٣)

I.O.L., Pol and Secret Library, B. Confidential Memo.,
Mus. at, 1901.

(٤)

British Institute, The Middle East, pp. 136-137.

(٥)

C.U. Aitchison, A Collection of Treaties, Engagements and
Sanads relating to India and Neighbouring Countries, vol. XI, pp.
83-84.

(٦)

آخر يفرض على السلطان توجيه سياسته طبقاً لما عليه الحكومة البريطانية ،
وأن لا يتقبل معاونة أو راتباً من أية حكومة أخرى (١) .

وواضح أن عقد هذه المعاهدة كان مخالفاً للتصريح المشترك في عام ١٨٦٢ ،
ولذلك كان من المفروض أن تكون سرية ، وفعلت بريطانيا تمسك بهذه
السرية حتى اضطرت إلى أن تعلنها لفرنسا عام ١٨٩٩ عقب اشتداد الأزمة في مسقط
بين الحكومتين في نفس العام (٢) . وقد ألحق بهذه المعاهدة تعهد من جانب السيد
فيصل جاء فيه أنه يتعهد عن نفسه وعن ورثته وخلفائه من بعده بعدم التنازل عن
أراضي وممتلكات مسقط وعمان أو أى من ملحقاتهما أو بيعها أو رهنها أو السماح
باحتلالها لغير الحكومة البريطانية وأن يظل خاضعاً لمشورة حكومة الهند (٣) .

النشاط الروسى الفرنسى فى مسقط :

ليس من شك فى أن من أهم الأسباب التى دفعت بريطانيا إلى تقوية نفوذها فى
سلطنة مسقط وإلى توقيع المعاهدة السابقة ، ظهور النشاط الفرنسى فى السلطنة بشكل
واضح ، وزاد الأمر خطورة أنه فى عام ١٨٩١ انضمت روسيا إلى فرنسا فى إتفاقية
سرية تهدف إلى مجابهة النفوذ البريطانى خصوصاً فى منطقة فارس والخليج (٤) .
وقد اتخذت الحكومتان سياسية موحدة فى هذا السبيل . وفى نفس العام ظهرت
سفينة حربية روسية فى ميناء مسقط ، وقابل قائدها السلطان ، وفى العام التالى
بذلت روسيا محاولة لسكى تقيم لها قنصلية فى مسقط . وبرر الإنجليز معارضتهم
للفنود الأوروبى الذى أخذ يتسرب إلى الخليج بأن تلك القوى التى تريد التدخل

British Admiralty, Handbook of Arabia, vol. I, p. 246. (١)

انظر : د . جمال قاسم - الخليج العربى ص ٣٥٦ .

Aitchison, op. cit., p. 231. (٢)

Philby, Arabia, p. 166. (٣)

N.J. Whigham, The Persian Problem, p. 20. (٤)

في المنطقة لم تسام في عمل أى شيء لتقدم التجارة أو لضمان الأمن كما فعلت بريطانيا^(١). ويبدو أن الحكومة البريطانية كانت تريد أن تكشف عن أغراضها الحقيقية وأن تعلن الحماية الرسمية على مسقط، ولكنها حتى لا تثير مشاكل دولية وخاصة بينها وبين فرنسا، فضلت الاستمرار في سياسة عقد المعاهدات بالإضافة إلى الاستمرار في دفع الراتب السنوي لسلطان مسقط والذي تمهدت بتقديمه منذ عام ١٨٧٣^(٢) مقابل إلغاء تجارة الرقيق في السلطنة، وقد وجدت في ذلك ضماناً مادياً لخضوع السلطان لما عليه عليه في سياستها^(٣).

وكان سولسبورى يرى ضرورة تهدئة العلاقات بين بريطانيا وفرنسا لإبعادها عن روسيا، ولا يعنى ذلك أن حكومة لندن سوف تتنازل عما لها من نفوذ في مسقط، وإنما معناه أنها لم تكن تود حدوث أزمة في العلاقات بين البلدين، هذا مع إصرارها على ضرورة التمسك بما ارتبط به السلطان فيصل من تعهدات بعدم التنازل عن أراضيه، هذا فضلاً عما يمكن أن تحصل عليه من نفوذ أدبي ومادى في السلطنة نتيجة لاستمرار حكومة الهند في دفع الراتب السنوي لسلطان مسقط.

وعند ما حاولت فرنسا إقامة مستودع للوقود في مسقط، كانت وجهة النظر البريطانية واضحة بالنسبة لهذه المسألة، فقد تسامل كيرزون عن دواعى ذلك، لأن السفن الفرنسية ليست كثيرة التردد على الليناء، بل إنه ربما لا تمر سفينة واحدة طيلة العام... «ومثل تلك السفينة لا يمكن أن تعدم وسيلة للحصول على الوقود، بل إننا نسمح عن طيب خاطر بأن تزود تلك السفينة من محطاتنا... إن فرنسا تنظر إلى حصولها على محطة الفحم نظرة أكثر عمقاً، إنها تريد أن تتطلع إلى مركز سياسى مساو للانجليز في غرب آسيا، فإن مستودع الفحم قد يعنى شيئاً آخر في الغد»^(٤): والواقع أن كيرزون كان متضامناً للعالية، فإن فرنسا يمثلها في

Ruete, The Al. Bu-Said Dynasty, p. 12. (١)

I.O.L. Pol. and Sec. Dep., B. 129, Memo. Muscat, 1901. (٢)

I.O.L. Pol. and Sec. Dep., B. 14, No. 1, Zanzibar Agency and Consulate Expenses A.W.M., 17th August 1878. (٣)

(٤) د. جمال زكريا قاسم: الخليج العربى ص ٣٣٦.

مسقط قنصل ، ولا يمكن دون رعايا أو تجارة ، ورغم ذلك تؤكد الحقائق أنها مرتبطة بالسلطان بماهدة على غرار للماهدة البريطانية . ورغم حماس كيرزون الزائد ، فإن حكومة لندن كانت تنظر إلى سلطان مسقط باعتباره حليفاً مستقلاً ، وتتعترف بقوة التصريح المشترك لعام ١٨٦٢^(١) .

وفي ١٨ فبراير ١٩٠٠ خضع السلطان للضغط البريطاني ونتيجة لتهديده بالحصار البحري ، وفي ٢٢ فبراير قابل مسيو كامبون لورد سولسبوري عن الطريقة التي عومل بها الموضوع مما أدى إلى إثارة حفيظة الحكومة الفرنسية ، إلا أنه أوضح أن سلوك الأدميرال كان قانونياً تماماً^(٢) .

ولما كان من الضروري إقرار العلاقات بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية فقد توصلت الحكومتان في ٤ مايو ١٨٩٩ إلى اتفاق يقضى بأنه طالما أن مركز الحكومة الفرنسية مساو لمركز الحكومة البريطانية في مسقط ، فإنه من الممكن لفرنسا أن تحصل على مستودع للوقود في السلطنة مثل ما لالبحلتر^(٣) . وحاول سولسبوري في هذه الفترة إرضاء فرنسا ، فعرض عليها اختيار أحد المواقع في خليج الكلا على ساحل حضر موت ليكون محطة للوقود ، وقد وافقت الحكومة الفرنسية ، على هذا العرض في ١٧ أغسطس ١٩٠٠^(٤) .

وقد سقنا هذا الموجز للعلاقات الإنجليزية الفرنسية بالنسبة لمسقط كي يكون واضحاً أثر هذه العلاقات على تجارة الأساحة في الخليج العربي بصفة عامة وفي مسقط بصفة خاصة .

Philip Graves — The Life of Sir P. Cox, p. 91. (١)

I.O.L. Pol. and Sec. Dep. B. 119, Memo. by Sir Lee — Warner (٢)
on the Lease to France of a Coaling Station in Muscat, 1900.

Rouire, La question de Golfe Persique, pp. 363-370. (٣)

(٤) د : جمال قاسم — المصدر السابق ص ٣٦٧ .

موقف شركات الأسلحة في مسقط :

أما بالنسبة لموقف التجارة نفسها ، فقد أبلغ الماجور Trevor عن نشاط واسع في تجارة الأسلحة في مسقط ، فإن كساد التجارة في أكتوبر ١٩١٠ لم يستمر طويلاً ، فقد باع لاجاس كل الأسلحة والذخائر الموجودة في مخازن شركة M.M. Baijeot et Cie بأثمان منخفضة جداً ، كما باع ممثل شركة M. Kevorkoff كل ما في مخازنه بنفس هذه الأثمان المنخفضة . كما أن M. Lapigne ممثل شركة Compagnie de L'Inde et de L'extrême Orient حاول التخلص من مخازنه قبل نهاية العام في ٧ ديسمبر^(١) . كما أن M. Néauber ممثل شركة Goguyer حاول إنهاء أعماله . ووسط كل ذلك بدا التاجر علي بن موسى الوحيد الذي بقيت تجارته مزدهرة . فقد كانت له مستودعات في موانئ أخرى في عمان ، وكذلك لأنه اشترى كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر من مخازن Baijeot et Cie^(٢) .

أما سلطان مسقط ، فقد ساءت أحواله المالية كثيراً ، وبدا ضعفه واضعاً أمام علي موسى ، بل إنه تورط بالفعل في مسائل مالية مع هذا التاجر^(٣) . وقد حاول علي موسى ومعه أحد التجار الآخرين اسمه سيد يوسف استغلال الفرصة ، وطلباً منه الموافقة على منحهما التزام إدارة جمارك عمان في مقابل ٢٥٠,٠٠٠ ريال مع ضمان مقدم ضخم ، ومبلغ شهري محدد^(٤) .

Major Trevor to L.C. Cox, 19th Nov. 1910. (١)

I.O.L., B. 196, p. 17. انظر :

Major Trevor to L.C. Cox, 11 Dec. 1910, 1960/10. (٢)

I.O.L., B. 196, p. 17. انظر :

L.C. Cox to Gov. of India, 11 Dec. 1910. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 17. انظر :

L.C. Cox to Gov. of India, 30 Dec. 1910. (٤)

I.O.L., B. 196, p. 17. انظر :

وتيجة لتدهور الأحوال المالية للسلطان ، فإنه طالب من الحكومة قرضاً من ١٣,٠٠٠ ريال تستعاد من راتبه ، وقد أوصت حكومة الهند بالموافقة على طلبه ، وفي نفس الوقت أوصت بعدم تشجيع مسألة منح الالتزام الخاص بالمجارك^(١) ، وقد وافقت الحكومة البريطانية على ذلك ، واقترحت أنه يجب إضافة شرط لاتفاقية القرض بأنه لا يعطى التزام من هذا النوع لأي شخص^(٢) . وقد وافق السلطان على هذا القرض من ١٣,٠٠٠^(٣) ، وهكذا أمكن التغلب على المشكلات المالية التي واجهت السلطان .

إلا أن مشكلات أخرى بدأت مع شركة Goguyer ، فقد غادرت السفينة فتح الخير ميناء مسقط وانجحت إلى قطر وعلى ظهرها شعنة من الأسلحة والذخائر في ٢١ نوفمبر ١٩١٠ إلا أنه نتيجة للمراقبة الدقيقة من السفينة الحربية البريطانية Espiègle فإن السفينة فتح الخير اضطرت إلى العودة إلى مسقط في ١٦ يناير سنة ١٩١١ دون أن تستطيع إزال شعنتها (٢٠٠٠ بندقية) . وقد قدمت الشركة الفرنسية احتجاجاً بأن السفن البريطانية اعترضت السفينة فتح الخير ومنعتها من الإبحار إلى قطر ، ووصلت إلى حد تعريضها لخطر الغرق ، كما منعت عنها المياه ، ومواد التموين ، كما منعتها من التاجرة في الأماكن المباح فيها التجارة ، وطالبت الشركة بمبلغ ٦٠,٠٠٠ ريال كتعويض عن الخسائر التجارية^(٤) .

Telegram from Viceroy, 8 June 1911.

(١)

I.O.L., B. 196, p. 17.

انظر :

Earl of Crewe, telegram 9 June 1911, 159/11.

(٢)

I.O.L., B. 196, p. 17.

انظر :

L.C. Cox to Gov. of India, 16 January 1911.

I.O.L., B. 196, p. 17.

انظر :

Major Trevor to L.C. Cox, 20 Jan. 1911.

(٤)

I.O.L., B. 196, p. 18.

انظر :

وقد نقلت للسألة إلى الأدميرالية ، وتبين — من وجهة النظر البريطانية — أن الإتهامات كلها لا أساس لها ، فإن السفينة فتح الخير وضعت فملا تحت المراقبة ، وذلك لاتخاذ إجراءات الحصار البحري عند إنزال الأسلحة منها ، ونتيجة لذلك ، فإن كل الرؤساء على الساحل . . . الواحد تلو الآخر كان يطلب من السفينة أن تترك المنطقة . ولم تقم السفينة الحربية *Espiègle* بتهديدها مطلقاً . كما أعلن السير سليد Slade بالنسبة لذلك « أنه يبدو فشلاً لسياسة الحصار البحري إذا ما نجحت محاولة شركة *M.M. Baijeot et Cie* في ذلك ، لأن فتح الخير سوف تستأجر بعد ذلك لأي أفغانى يريد أسلحة عبر الخليج » (١) .

وتم اتصال بين الماجور *Trevor* والقنصل الفرنسي في مسقط *M. Jeannier* على أساس رفض الماجور لإدعاءات الشركة الفرنسية . وعند هذا الحد انتقلت المسألة إلى الحكومة الفرنسية (٢) . وقد نقل *M. Cambon* شكوى الشركة إلى السير جراى فى ٢٨ مارس ١٩١١ ، إلا أنه تلقى رفضاً كاملاً لسكل اتهامات الشركة (٣) وهكذا انتهت السألة ، بمد أن أكدت نجاح سياسة الحصار ، وقدرة السفن الحربية البريطانية على فرض الرقابة على سفينة فرنسية تحمل شحنة من الأسلحة ، ومنعها من إنزالها فى أى من موانئ الخليج ، هذا مع عدم اتخاذ أى إجراء يمس حقوق العلم الفرنسى المرفوع عليها .

شرعية التجارة فى مسقط :

أما الوضع فى مسقط فكانت تحكمه حقيقة أن السلطان كانت له معاهدات

Admiral Slade to Admiralty, 5 Feb. 1911. (١)

I.O.L., B. 196, p. 18. انظر :

M. Jeannier to M. Trevor, 8 Feb. 1911. (٢)

Major Trevor to M. Jeannier, 5 Feb. 1911.

I.O.L., B. 196, p. 18. انظر :

Sir E. Grey to M. Cambon, 10 April 1911. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 18. انظر :

تجارية مع الولايات المتحدة في عام ١٨٣٣ وفرنسا ١٨٤٤ وبريطانيا ١٨٦١ ،
ولا شك أن وضع أية قيود خاصة على التجارة في الأسلحة من وإلى أراضيه تحتاج
إلى تمديدات في شروط تلك المعاهدات ، كما أنه كان هناك تصريح تجاري (١) كان
قد أصدره السلطان تركي بن سعيد لصالح هولندا في عام ١٨٢٧ (٢) .

والملاحظ أن هذه المعاهدات والاتفاقيات التجارية كانت لا توضع المراقيل أمام
تصدير واستيراد البضائع المختلفة ، هذا بالإضافة إلى أن المركز الدولي لسلطنة مسقط
كان محمداً بعمق التصريح الإنجليزي — الفرنسي المشترك والصادر في مارس
١٨٦٢ ، والذي كان يتيح لفرنسا مركزاً مساوياً لمركز بريطانيا في مسقط ، ولذلك
هدفت السياسة البريطانية إلى التخلص من هذا التصريح (٣) .

والواقع أن التجارة في الأسلحة كانت تسبب الكثير من المتاعب للحكومة
البريطانية في السنوات الخمس التي سبقت الحرب المالية الأولى ، وكانت هذه الأسلحة
تستورد من أوروبا حيث تصدر إلى سواحل بلوخستان وفارس ، ثم تنقل بعد ذلك
إلى أفغانستان ومقاطعات وسط آسيا مما أثار القلاقل والاضطرابات — بالنسبة
لبريطانيا — على الحدود الشمالية الغربية للهند (٤) . ولقد بدأت تجارة الأسلحة منذ
عام ١٨٢٤ ، ولكن لم تنتبه الحكومة البريطانية إلى خطر هذه التجارة إلا في أثناء
الحرب الأفغانية الثالثة ، وأدركت أن وجود هذه الأسلحة مما يشجع على الثورة في
حدود الهند الغربية (٥) . ومنذ عام ١٨٨٠ اتخذت حكومة الهند خطوات تمهيدية لمنع
مرور الأسلحة في حدودها ، ومنعت تجارة الأسلحة بصفة عامة في كل مكان على

I.O.L. Political Dep., 8 182, Arms Traffic at Muscat. (١)

I.O., 15th Feb. 1911. انظر :

(٢) د . د . جال زكريا قاسم - المصدر السابق ص ٣٨٠ .

I.O.L., B. 196, p. 18. (٣)

Paul Harrison, The Arab at Home, p. 96. (٤)

(٥) جان بيثون — بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى وموجز لتاريخ
حلول أوروبا في هذا الشرق — تعريب محمد عزة دروزة ص ٢٧

سواحل الخليج العربي (١).

وعلى الرغم من أن مؤتمر بروكسل الدولي الذي عقد في عام ١٨٩٠ قد وجه ضربة قاضية لتجارة الأسلحة في أفريقيا، فإن منطقة الخليج لم تكن ضمن نطاق هذا المرسوم، وكان تريب الأسلحة يتزايد تزايداً ملحوظاً حتى عام ١٨٩٢، وقد بلغ عدد البنادق المصدرة إلى مسقط في ذلك العام ١١,٥٠٠ بندقية، ومن هنا كانت توزع على بقية أنحاء الخليج، وقد تضاعف هذا الرقم عدة مرات في السنوات التي تلت ذلك. وقد سببت هذه الأسلحة الكثير من المواقف للسلطات الإنجليزية (٢).

وفي غضون ذلك الوقت، عقدت الحكومة البريطانية اتفاقات لتحريم التجارة في الأسلحة مع إمارات الخليج، ففي عام ١٨٩٨ عقدت اتفاقاً مع البحرين، وفي عام ١٩٠٠ عقدت اتفاقاً مماثلاً مع الكويت وكذلك مع شيوخ الساحل المهادن في عام ١٩٠٢.

وكان سلطان مسقط قد وافق في عام ١٨٩٨ على منع تصدير الأسلحة من مسقط إلى الهند وفارس حيث كان استيراد الأسلحة إليها بعد عملاً غير مشروع، كما فوض السفن البريطانية في تنفيذ هذا المنع. إلا أنه تجدد الإشارة إلى أن استيراد الأسلحة إلى مسقط أو إعادة تصديرها باستثناء البلدين المذكورين لم يكن محرماً. ونتيجة لذلك أصبحت مسقط مركزاً لتجارة الأسلحة لكل منطقة غربي آسيا، وكانت البنادق والذخائر ترد إليها من أوروبا بكميات ضخمة، ومن هناك توزع على سواحل الخليج.

وكانت المصانع البلجيكية والألمانية والفرنسية والإنجليزية هي التي تقوم بتصدير هذه الأسلحة إلى مسقط. وقد بلغ حجم هذه التجارة قدرأ كبيراً، ففي عام ١٩٠٧ وردت إلى مسقط ٤٤,٩٢٧ بندقية — قيمتها ١١٢,٣٣٨ جنياً ارتفعت في عام ١٩٠٨ إلى ٨٧,٦١٠ بندقية قيمتها ٢٧٩,٠٥٠ جنياً ثم انخفضت إلى ٨٥,٩٢٠

I.O.L. Pol. Dep., B. 182, Arms Traffic at Muscat. (١)

Richard Coke, The Heart of the Middle East, p. 136. (٢)

بندقية في عام ١٩٠٩ قيمتها ٢٣٧,٦٤٤ جنيهاً ، ثم انخفضت القيمة سنة ١٩١٠ إلى ١٠٣,٨٦٤ جنيهاً وقد ساهمت المصانع البلجيكية وحدها بأكثرها من نصف حجم هذه التجارة .

ولقد كان لهذا الفيض من الأسلحة تأثيرات خطيرة على الحدود الشمالية الغربية للهند ، حتى أن حكومة الهند أوضحت أنه قد نشأت هناك حالة « قلبت ميزان القوى ، وشكلت تهديداً خطيراً للسلام » .

ولقد أفقت بريطانياً نحو ربع مليون جنيه في إجراء منع التجارة في الأسلحة حتى عام ١٩١٠ ، ولقد قللت هذه الإجراءات بالفعل من حجم هذه التجارة كما تبين من الأرقام السابقة ، إلا أنه بدا واضحاً أنه إذا لم يتم ضبط التجارة في المنع — مسقط — فإنه لا يمكن القضاء على هذه التجارة تماماً^(١) ، خصوصاً بعد أن تبين فشل محاولات الوصول إلى اتفاق مع فرنسا — عن طريق تبادل المصالح — من أجل منع تجارة الأسلحة في مسقط . وقد قدم الكولونيل كوكس مقترحات ترمي إلى محاولة التفاهم مع سلطان مسقط ، وأنه يمكن منحه تعويضاً مالياً للحد من تصدير الأسلحة من مسقط إلى الموانئ الأخرى في الخليج . كما قدم كوكس نظاماً مقترحاً للورور ، يشرف عليه ضابط بريطاني ، وأن أي قارب لا يحمل تصريحاً للورور مهما كانت وجهته . فإن من حق السفن البريطانية الإستيلاء عليه حتى في مياه مسقط .

وقد نزل هذا المشروع إلى وزارة الخارجية ، وكان السير جراي مستعداً للواقفة عليه طالما أنه في حد ذاته لا يتعارض مع المعاهدة الفرنسية ١٨٤٤ ، وأكثر من ذلك ، كان مستعداً لمواجهة الإحتجاج المتوقع من الحكومة الفرنسية إذا ما نفذ هذا المشروع .

إلا أنه كان مفهوماً أن هذا المشروع لبس إلا نوعاً من السيطرة على التجارة طالما أن فرنسا لا تريد الواقفة على منمها ، إلا أنه كان مفهوماً أيضاً أنه لا يجب

العبء إلى ذلك إلا عند ضياع آخر أمل في الوصول إلى تسوية ودية مع فرنسا ، وكما تبين فإن تلك المفاوضات المتقطعة كانت بلا نتيجة ، حتى أن المشروع الذي قدمه كوكس في يناير ١٩١٠ للتعامل مع مسقط مباشرة بدأ تنفيذه بالفعل .

وكان السلطان في حالة مالية سيئة ، ويجب أن نتذكر أنه كان قد تفاوض مع أحد كبار تجار الأسلحة وهو على موسى الذي عرض عليه مبلغاً ضخماً وراتباً شهرياً في مقابل الحصول على إمتياز جمارك عمان . إلا أنه أمكن تلافى ذلك عندما قدمت خزنة الهند ١٣,٠٠٠ ريال كإعانة سريعة للسلطان .

وقد اشتكى السلطان في ديسمبر ١٩١٠ للممثل السياسي الماجور Trevor لحرق قاربين له في نهر جالنج وقد دافع الماجور عن ذلك ، وأرجعه إلى السلوك السيء من البحارة ، كما أضاف أنه من المرغوب فيه الوصول إلى ترتيبات دائمة ومرضية مع السلطان . وهناك سبب آخر شجع المضي في هذا السبيل ، وهو تحوّل السلطان من اتجاهه المحايد بالنسبة للتجارة إلى التدخل الفعلي في سيرها ، فقد بدأ إلى حد ما أنه وقع في أيدي كبار تجار الأسلحة ، وبصفة خاصة على موسى (١) .

وفي أبريل ١٩١١ ، أرسل السلطان أحد قواربه لنقل أسلحة من أحد مواضع عمان إلى ميناء آخر (٢) ، وفي ٥ ، ٦ ، ٧ أبريل أسرت السفينة الحربية Espiegle ثلاث قوارب في أعلى الخليج وجنوبي صحار تحمل أسلحة وذخائر تصل في مجموعها إلى ٣٠٠ بندقية و ٦٦٨٠٠ طلقة (٣) . ولم تسكن القوارب ترفع أية أعلام ، إلا أنها كانت تحمل تصاريح مرور موقعة من السلطان ، ويبدو أنه منح هذه التصاريح إلى على موسى دون توقيع ، وأن الأخير قد استوفى ياناتها بالنسبة لكمية الشحنة .

L.C. Cox to Gov. of India, 28 April 1911. (١)

I.O.L., B. 196, p. 27. انظر :

L.C. Cox to Gov. of India, 1st Sept. 1911. (٢)

Commander-in-Chief, East Indies to Gov. of India. Telegram, 12th April 1911. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 27. انظر :

وقد غرقت القوارب الثلاثة نتيجة لطقس السيء أثناء الجزر . وقد اشتكى السلطان إلى كوكس على أساس أن الاستيلاء على القوارب قد تم في المياه الإقليمية وعلى بعد نحو ثلاثة أميال من الساحل ، إلا أن كوكس قرر بأن القوارب لم تكن داخل المياه الإقليمية .

كما كان لرأى كوكس تأثير كبير بالنسبة لهذه الحادثة على الحكومة ، وذلك بالنسبة لسياستها في المستقبل تجاه السلطان : هل تدعم الحصار وفي نفس الوقت تمهله ؟ أم هل يمكن بذل مجهود أخير للحصول على معونة السلطان وارتفاعه من برأى التجار ؟ . . . كما تبين بعد ذلك تم اختيار الطريق الثاني ، ويمكن القول أن تلك الحادثة كانت البداية الفعلية — للسياسة الجديدة^(١) .

وقد اقترح الماجور S.G. Knox — الذى خلف للماجور Trevor كممثل سياسى — لتحقيق هذه السياسة ، أن يصدر السلطان تصريحاً بمنع تصدير واستيراد الأسلحة ، وأنه يمكن إضافة مادة إلى المعاهدة البريطانية تحرم على الرعايا البريطانيين المتاجرة فى الأسلحة . . . « وإذا ما اتبعت الولايات المتحدة نفس الأسلوب ، فإن فرنسا سوف تكون فى موقف انعزالي يمثل انفساً فى تجارة مكروهة حرمتها الحكومة المحلية والهدول الأخرى المتحضرة . ويمكن نصح السلطان حينذاك فان يقدم معاهدة مرنة فى موادها حتى أنها يمكنها أن تحدد على الأقل من استيراد البضائع القاتلة » .

وأضاف المقيم أنه لتسهيل العملية ، يمكن شراء مخازن التجار البريطانيين والوطنيين مع تمهدهم بعدم العمل فى تجارة الأسلحة فى عمان مرة أخرى ، وإذا ما قدمت نفس العروض للتجار الفرنسيين ، فإنهم من المحتمل أن يرفضوا العرض ، وهذا الرفض يعطى للسلطان الفرصة للتوصل من معاهدة ، ١٨٤٤ (٢) .

L.C. Cox to Gov. of India, 12th April 1911.

(١)

I.O.L., B. 196, p. 27.

انظر :

Major Knox to L.C. Cox, 12 May 1911.

(٢)

I.O.L., B. 196, pp. 27-28.

انظر :

إقامه مستودع عام للأسلحة في مسقط :

وعلى أية حال فقد شرع في وضع اقتراح الكولونيل كوكس موضع التنفيذ ،
لأن كانت معظم الأسلحة تصدر من ميناء جييوتى الخاضع للفرنسيين ، ونتيجة لزيادة
حركة مرور الأسلحة^(١) اقترح كوكس إقامة مستودع للأسلحة Warehouse في
مسقط تخزن فيه كل الأسلحة والذخائر عند استيرادها ، ويحرس المستودع أشخاص
موثوق فيهم تحت إشراف لجنة تتكون من ممثل للقيم والممثل السياسي في مسقط
أو موظف بريطاني منتدب لهذه العملية ، وكل التعليمات الصادرة من المستودع
سواء للبيع المحلي أو التصدير يحكمها نظام كامل للتسجيل والتسجيل وفي حالة التصدير
بطريق البحر ، فإنه يجب إعطاء تصريح للمرور بإشراف اللجنة السابقة . وكان
كوكس مستعداً — إذا كان ذلك ضرورياً — للتسليم بطلب الاعتراف بالمساواة
في اللجنة بين فرنسا وبريطانيا وأن يسمح بممثل فرنسي .

وأضاف كوكس أنه يجب أن يحاط السلطان علماً بأن نظام مستودع الأسلحة
سوف يؤدي إلى إنقاص دخوله ، ومن ثم اقترح كوكس منحه ٥٠٠٠ ريال شهرياً
كتمويض له ، وأنه إذا رفض ذلك فإنه يمكن أن يعرض عليه مضاعفة الإعانة
السنوية .

وبالنسبة لسكينة الأسلحة التي في حوزة التجار في مسقط في الوقت الراهن ،
أو المدة للتصدير فإنها داخلة في اختصاص السلطان كسألة تمس الإدارة الداخلية ،
ويمكن إجبار التجار على إيداع ممتلكاتهم في المستودع كي تباع تحت التحفظات الواردة
في الاقتراح . وإذا ما فشل هذا الاقتراح ، فإنه عند الضرورة يجب شراء الشحنات
الموجودة في الوقت الراهن بالسعر الأهلئ أو بتقييم معقول .

وأخيراً اقترح المقيم أنه من المستحسن الحصول على تعهد من السلطان بعدم
الدخول في معاهدات جديدة مع أية قوى أجنبية دون الموافقة السابقة من الحكومة

Poincaré à Cambon, 29.5.1912, (D.D. Doc. No. 5).

(١)

وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذه المقترحات ، إلا أنها رأت أن مسألة تعهد السلطان بعدم الدخول في معاهدات جديدة يجب إرجاؤها ، وأن السلطان إذا ما وافق على نظام مستودع الأسلحة ، فإنه يجب عدم التنفيذ الفوري لتلاني إغضاب فرنسا ، بينما لازالت هناك محاولات للتفاوض معها . وفي ٢٥ يوليو فوض كوكس للتفاهم مع السلطان (٢) طبقاً للمقترحات السابقة . وقد طلب كوكس منحه السلطة لتهديد السلطان إذا لم يستجب للمطالب البريطانية (٣) ، وقد تم بالفعل منحه السلطة المطلوبة ، وفي ١٩١١ بدأ كوكس في تنفيذ العملية (٤) .

وقد أبدى السلطان رغبته في المحافظة على العلاقات الودية مع الحكومة البريطانية طالما ظل سلوكها نحوه ودياً ، كان مستعداً لإصدار تصريح بالمنع الكامل للتجارة على الرغم من المعاهدة الفرنسية ، إذا ما ضمننت له الحكومة البريطانية نتائج ذلك ، أو أنه « يضع كل مصالحه في أيدينا ، إذا أمكننا نحن والحكومة الفرنسية تسوية المسألة فيما بيننا » .

أما بالنسبة للإجراءات المقترحة لسير العمل ، فإنه وعد بالموافقة الكاملة إذا لم تتعارض مع معاهداته مع القوى الأخرى ، وإذا ما قدمت له المساعدة لمواجهة الحكومة الفرنسية عند الضرورة ، وكذلك إذا كانت الناحية المالية مجزية .

Telegram from Viceroy, 10th July 1911, 1157/11. (١)

I.O.L., B. 196, p. 28. انظر :

F.O. to I.O., 16th August 1911, 4041/11. (٢)

I.O.L., B. 196. انظر :

Telegram from Viceroy, 18 Oct. 1911, 1712/11. (٣)

I.O.L., B. 196, p. 29. انظر :

Telegram from Secretary of State, 31 Oct. 1911, 4495/11. (٤)

I.O.L., B. 196, p. 29. انظر :

ولم يوافق السلطان على حجم التمييز الذى عرضه كوكس وطالب بمبلغ مجمع قدره ٨٠,٠٠٠ ريال ، وقد اعتبر كوكس أن هذا المطلب معقول ، وأنه يجب عدم رفضه تماماً^(١) .

وقد أبدت حكومة الهند قلقها من أن يقوم السلطان بالانصهار بفرنسا مباشرة وكان الاتجاه الذى رآته حكومة الهند هو إقناع السلطان بأن إقامة مستودع هو « تفصيل لترتيبات داخلية » ، وهى من حقوقه تماماً بصفته حاكماً مستقلاً ، وأنه يجب عدم استشارة فرنسا بالنسبة لذلك . أما بالنسبة لمسألة التمييز ، فقد طلبت حكومة الهند إتفاص المبلغ الذى طلبه السلطان^(٢) .

وقد وافقت وزارة الدولة على هذه المقترحات ، وأضافت « أنه من المفهوم أن ترتيباً جديداً قدمه سلطان مسقط بالنسبة لتصدير الأسلحة والدخائر ، وأنه من المعتقد أنه يمكنه إيقاف التجارة غير المشروعة مع تلك الدول التى منعت استيراد الأسلحة^(٣) كما رأى وزير الدولة أنه من الضرورى لانتظام العمل فى المستودع أن يعارض ضباط جمارك للسلطان . وقد أجاب كوكس على ذلك بأنه ناقش السلطان بالفعل بالنسبة لمسألة الضباط المشرفين على العمل ، وأن السلطان بينا أوضح ضرورة إشراف الحكومة البريطانية على العمل ، « فإنه مما يتنافى مع الكرامة جعل موظف بريطانى مشرفاً على مستودع الأسلحة فى مسقط » . ورأى كوكس أن منحة مالية سرية قد تجعل السلطان أكثر نجارياً بالنسبة لهذه النقطة^(٤) . إلا أنه بالنسبة

L.C. Cox to Gov. of India, 14th Nov. 1911, 1968/11.

(١)

I.O.L., B. 196, p. 29.

انظر :

Telegram from Viceroy, 28th Dec. 1911.

(٢)

I.O.L., B. 196, pp. 29-30.

انظر :

Telegram from Secretary of State, 1st January 1912.

(٣)

I.O.L., B. 196, p. 30.

انظر :

Telegram from Viceroy, 19th January 1912.

(٤)

I.O.L., B. 196, p. 30.

انظر :

لثمين موظف بريطاني مسئول عن مستودع الأسلحة ، فرغم الأهمية لذلك (١) ، فان حكومة الهند رأت أن السلطان لن يوافق على هذا التمين . وعلى أية حال فاذا لم يتم ذلك ، فانه يمكن وضع ترتيب آخر كأن يعين السلطان موظفاً من طرفه تحت الإشراف المشترك من الممثل السياسي وممثل كبير من طرفه كما اقترح كوكس (٢) .

وقد رأت حكومة الهند أيضاً — لتشجيع السلطان للموافقة على هذه الترتيبات منعه ٣١,٥٠٠ ريال بالإضافة إلى المبالغ المقترحة كتمويض له عن الإستيلاء على بعض القوارب. التابعة له في أبريل ١٩١١ ، على أن يكون هذا العرض مشروطاً بموافقة السلطان على المشروع الذي قدمته الحكومة البريطانية كترتيب يتلاءم مع مصالحها .

وفي ٧ فبراير وافق السلطان على هذه الشروط ، وفي نفس اليوم تمت الموافقة على منح السلطان قرض قيمته ١٠,٠٠٠ ريال ألخ في طلبها وتمهد باعادتها على دفعات : ١٠٠٠ ريال كل شهر من إعاناته .

وفي أول مارس وصل كوكس إلى مسقط ، وبدأ المباحثات مع السلطان ، وقد رفض السلطان تماماً مبدأ وجود موظف بريطاني للإشراف على مستودع الأسلحة وحتى لوقت محدود ، إلا أنه اقترح كحل آخر أن يقوم بمساعدة السكولونيل كوكس باختيار رجل موثوق فيه من رعاياه ، وإذا كان ذلك متعذراً ، فانه مستعد للموافقة على رجل من الهند تؤهله كفايته لذلك العمل ، وأضاف السلطان أنه سوف يطلب موافقة حكومة الهند على هذا الرجل قبل توقيع عقد العمل معه . وقد أوصى كوكس بالموافقة على هذه الترتيبات من ناحية المبدأ ، مع إيضاح أنه لن يدفع أى تمويض أو أية زيادة في الإعانة إلا بعد الإنتهاء من كل الترتيبات . وقد أبلغ

Telegram from Secretary of State, 22nd January 1912. (١)

I.O.L., B. 106, p. 30. انظر :

Telegram from Viceroy, 29 January 1912. (٢)

I.O.L., B. 106, p. 30. انظر :

السلطان بأن استمرار دفع الإعانة له لن يتوقف عن التزامه بارتباطاته ، وأن
للموظف الذي سيتم اختياره كمصرف على مستودع الأسلحة سيكون قابلاً للطرد
للطرد من منصبه إذا ما نقض الترتيبات المتفق عليها (١) .

وكان سلوك السلطان ودياً تماماً تجاه البريطانيين أثناء هذه المباحثات ، إلا أنه
أبدي رغبته مرة أخرى في منع التجارة في الأسلحة نهائياً في غضون ثلاثة أشهر ،
لأنه خاف من المشكلات التي قد يثيرها التجار الأجانب ومعارضتهم لنظام مستودع
الأسلحة ، وأن شكاياتهم قد تثير حكوماتهم ضده . وإن كانت الوثائق الفرنسية تؤكد
أن كوكس ألح على السلطان ليقوم بإلغاء معاهدة ١٨٤٤ مع فرنسا (٢) .

وفي ٢٣ مايو ١٩١٢ ، تم الإنهاء من وضع المسودة النهائية لمشروع مستودع
الأسلحة . ونص المشروع على أنه « لما كانت هناك كميات هائلة من الأسلحة
والذخائر مخزنة في الوقت الحاضر دون تحفظ سليم وفي أبنية خاصة متفرقة في
مدينتنا مسقط ، وهي بهذه الطريقة معرضة لأخطار السرقة والحريق ، فنحن السيد
فيصل ابن تركي سلطان مسقط وعمان متأثراً بالأسباب السابقة ، وللمحافظة على
عاصمتنا ، قد وافقنا على علاج هذه المشكلة ببناء مستودع عام للأسلحة ، وذلك
للتحفظ على الأسلحة والذخائر تحت احتياطات آمنة » .

وأوضح المشروع أنه يمكن البدء في العمل بنظام المستودع في أول سبتمبر
التالي ، ونص المشروع على أنه يمكن أن تكون إجراءات العمل في هذا المستودع
كلآلي :

١ - في أول سبتمبر التالي ، فإن كل الأسلحة والذخائر الواردة إلى داخل
الأراضي التابعة لي سوف تنقل مباشرة من السفن إلى إدارة المستودع التي سيعين
عليها مراقب .

(١) Telegram from Secretary of State 768/12, 5 March 1912.

I.O.L., B. 196, p. 31.

(٢) Poincaré à Cambon, 29.5.1912, (D.D.F. Doc. No. 5).

انظر : د . جمال زكريا قاسم - المصدر السابق ص ٣٨٢ .

٢ — سوف يطلب من كل تجار الأسلحة في الأراضي التابعة لى إيداع الأسلحة الباقية معهم في أول سبتمبر في ذلك المستودع ، وأى تاجر لا ينفذ ذلك سوف يتعرض — إلى جانب عقوبات أخرى — إلى مصادر شعناته من الأسلحة والواردة باسمه مستقبلاً ، إلا إذا نفذ الترتيبات السابقة تماماً .

٣ — لا يسمح بإخراج أية أسلحة من المستودع إلا بعد دفع الضرائب كاملة إلى مراقب المستودع بالطريقة المعتادة .

٤ — تنظم عملية سحب الأسلحة من المستودع ، على أن يكون ذلك بموجب تصاريح خاصة عن طريق مراقب المستودع وتوقيع من .

٥ — هذه التصاريح لا تسلم للتجار ، ولكن لتؤ كد للمشتريين أو لممثليهم نوع الأسلحة وكميتها ومصدرها والذخائر ، وأنها يمكن سحبها من المستودع دون اعتراض .

٦ — كل الأسلحة التي تخرج من المستودع يجب أن توضع عليها علامة المستودع والرقم المسلسل .

وفي نفس الوقت أشار الممثل السياسى إلى أن السلطان عند إصداره القانون الذى يحوى النقاط السابقة ، وإبلاغه هذا القانون لقناصل الدول الأجنبية ، فإنه يود إعطاء تأكيدها مكتوباً بالنسبة للنقاط الأربعة التالية :

١ — تتعهد الحكومة البريطانية بتقديم كافة للعونات الضرورية له ليواجه أى احتجاجات قد تثيرها ضده فرنسا أو أية قوى أخرى .

٢ — أنه يجب أن يكون مفهوماً أن هذه الترتيبات لا تمنح للحكومة البريطانية أو للمسؤولين البريطانيين أية حقوق فى أراضيه أكثر مما كان متبماً قبل ذلك .

٣ — أن البريطانيين بتفاهمهم الودى معه ، قد توصوا إلى ترتيبات ملائمة بالنسبة لمعاونة حكمه ورعيته .

٤ — إن البريطانيين قد وعدوا بتعويضه بمجرد التصديق على الشروط للتفق عليها .

وقد تمت الموافقة على شروط السلطان في أول يونيو^(١) ، وفي ٤ يونيو نشر السلطان هذا القانون ، كما نشر هذا القانون أيضاً في الصحف البريطانية «والهندية»^(٢).

مسألة تعويضات تجار الأسلحة في مسقط :

على أثر صدور هذا القانون ، أعلن القنصل الفرنسي أنه يتعارض مع معاهدة ١٨٤٤ ورفض الاعتراف بانطباقه على الرعايا الفرنسيين . كما قدم تجار الأسلحة الفرنسيون شكوى جماعية لوزير الخارجية الفرنسي الذي انحصرت إجابته في إصدار التعليمات للقنصل الفرنسي بإبلاغ السلطان بأن فرنسا لا يمكنها للموافقة على التنظيمات الأخيرة إلا بعد تعويض التجار الفرنسيين^(٣) . ويمكن القول بأن استيراد الأسلحة إلى مسقط أثناء أبريل ومايو ويونيو ١٩١٢ قد وصل إلى درجة غير عادية .

وقد أبلغ القنصل الفرنسي السلطان بهذه النقاط ، وطبقاً لتعليمات المعطاة له ، كان عليه — إذا ما وافق السلطان على تعويض الرعايا الفرنسيين — أن يبلغه أن الحكومة الفرنسية سوف توافق على التنظيمات الأخيرة رغم تعارضها مع المعاهدة^(٤).

وهكذا بزغت مسألة حساسة ، وبدا — من وجهة النظر البريطانية — أنه من المرغوب فيه تلافى دفع تعويضات للتجار الفرنسيين بأي شكل . إلا أنه كان هناك اتجاه للمقاومة من جانب التجار الفرنسيين يعاونهم في ذلك القنصل والحكومة

Secretary of State. Telegram 1st June 1912.

(١)

B. 196, p. 32.

نظر :

Viceroy. Telegram, 7th June 1912.

(٢)

B. 196, p. 32.

انظر

Viceroy. Telegram, 25 July 1912, 2907/12.

(٣)

B. 196, p. 33.

انظر :

Viceroy. Telegram, 8th August 1912.

(٤)

B. 196, p. 33.

انظر :

الفرنسية ، وكان لابد من استخدام القوة لتنفيذ الترتيبات الجديدة في أول سبتمبر وهو التاريخ المحدد لتنفيذ القانون ، ومن وجهة النظر البريطانية ، فإن أى تأجيل لهذا التاريخ قد يشير إلى الضعف ويدمر المسكينة البريطانية في مستقط وفي الخليج بصفة عامة . إلا أنه أيضاً بدون الوفاق مع القنصل الفرنسي وحكومته فإن تنفيذ القانون في الموعد المحدد سوف يؤدي حتماً إلى الاحتكاك مع التجار الفرنسيين ، مما قد يؤدي إلى أسوأ النتائج .

وقد يطلب السلطان تفويض بريطانيا للتعامل مع فرنسا ، إلا أن هذا الطلب غير مرغوب فيه — من وجهة النظر البريطانية — وبدا أنه من الأفضل إبلاغ الحكومة الفرنسية أنه لن تدفع تعويضات للشركات البريطانية رغم مصالحها الضخمة . منذ تنظيم مستودع الأسلحة والذخائر ، وليس هناك اعتراض على التجارة للشروعة » ، وأنه على الرعايا الفرنسيين أن يقاسوا من الخسائر لأن تجارتهم هي مع أقطار ممنوع فيها استيراد الأسلحة والذخائر (١) .

وقد اقترحت حكومة الهند أن تتضمن إجابة السلطان على القنصل الفرنسي « أن حقه الشرعي الذي لا جدال فيه في السيادة يمنحه الأحقية في الإشراف على تجارة الأسلحة دون منعها في ممتلكاته ، وبما يحتم عليه ذلك علاقته بالدول المجاورة . . . والتي تمتد استيراد الأسلحة إليها أمراً ممنوعاً . . . ولذا فإنه يبدو من غير المعقول أن يتوقع منه تعويض التجار الذين قد يلاقون بعض الخسائر » . كما صدرت التعليمات إلى السفير البريطاني في باريس بأن يقدم تفسيرات لها نفس هذا المعنى (٢) .

وفي غضون ذلك الوقت تعجل السلطان الحوادث ، ففي ١٦ أغسطس أبلغ

Viceroy. Telegram, 3168/12, 14th August 1912. (١)

B. 196, pp. 33-34. انظر :

Secretary of State, 20th August 1912. (٢)

B. 196, p. 36. انظر :

التجار الفرنسيين أنه إذا جاء سبتمبر ولم تمتثلوا للقانون فإنني سأراقب مخازنكم وأحبس كل زبائنكم، وليست لدى الرغبة في إئثار نفسي والرعايا البريطانيين بالأعباء من أجل مكاسب فرنسية. وقد تم تحذير السلطان بعدم إظهار أهدافه هكذا قبل اللحظة الملائمة^(١).

وبالنسبة لما سيحدث في أول سبتمبر، فقد تقرر أن الشحنات المستقبلية سوف تودع في المستودع مباشرة^(٢)، كما تقرر عدم السماح بأى فترة بعد هذه المهلة. أما بالنسبة لكميات الأسلحة الموجودة في الوقت الراهن، فقد أوصى السلطان بوجود وضع حراسة حول المخازن التابعة للتجار غير الممثلين، وأن يرفض تماماً السماح بنقل أية أسلحة سوى إلى المستودع. وتم إعطاء السلطان وعداً بالمعاونة البريطانية في كل الأمور السابقة، خاصة وأن المصادر طبقاً للبند الثاني يجب أن تتم بالقوة.

وقد أظهرت الحكومة الفرنسية وجهة نظرها في مذكرة إلى السفير الفرنسيين بارتى السفير البريطاني في باريس، وكان الموقف الذى ارتكبت عليه هو أنه بمقتضى معاهدة ١٨٤٤، فإن تجارة الأسلحة يجب أن تظل حرة تماماً في مسقط، وأن للرعايا الفرنسيين مطلق الحرية في بيع وشراء الأسلحة من يريدون، وأن لهم الحق في التمسك بالحقوق التى خولها لهم المعاهدة، والمطالبة بالتعويض نتيجة لأية أضرار تصيبهم نتيجة للقانون الأخير، وقد تصيب التجار الفرنسيين والصناعة الفرنسية، وأكثر من ذلك فإن التصريح الانجائزى الفرنسى يعطيهم الحق في التاجرة مباشرة مع السلطان، إلا أنهم محافظون منهم على الصداقة مع بريطانيا مستعدون للتنازل عن هذا الحق، ومستعدون لمناقشة أى اقتراح تقدمه بريطانيا بالنسبة للتعويضات^(٣).

Jounard à Cambon, Doc. No. 36, 18.2.1913 (D.D.F.). (١)

Cambon à Polnécree, Doc. No. 34, 20.12.1912 (D.D.F.). (٢)

B. 196, p. 40. انظر :

Telegram from Viceroy, 27th Dec. 1912. (٣)

وقدم القنصل الفرنسي — طبقاً لتعليمات من باريس — طلباً إلى السلطان بالتعويضات ، وكذلك الاعتراضات السابقة بالنسبة لمعارضة القانون لمعاهدة ١٨٤٤ وقد أجاب السلطان على ذلك بأنه قد نقل مسؤولية التعويضات إلى الحكومة البريطانية ، وقد وافق الماجور Knox على ذلك^(١) .

وفي الثامن من سبتمبر ، حدثت حادثة هامة ، فقد طلب ممثل الشركة الفرنسية Louis Dieu تسليمه ٣٣ صندوقاً من الذخيرة ، وكان معه إيصالاً بالإيداع ، إلا أن المسئول في الجمارك رفض تسليمه الصناديق ، وقد كتب القنصل الفرنسي إلى السلطان معترضاً على ذلك ، ومطالباً بتسليم صناديق الذخيرة بعد دفع الضرائب العادية طبقاً للمعاهدة التي ارتبط بها سموه وأسلافه منذ ٦٨ سنة ، والتي لا تمنع علاقاته من القوى الأخرى ولا تمنع استقلال عمان . وكانت النصيحة البريطانية للسلطان هي أن يرفض تسليم الشحنة ، وأن يظهر تمسكه بقانون مستودع الأسلحة ، وأن يشير إلى أن الذي يهدد علاقاته بالقوى الأخرى واستقلاله هو الطريقة غير العادية التي يتوقع معها أن يوافق على التجارة في بضائع خطيرة ، والتي تنظم بيعها بمهارة فرنسا وبقية الدول المتحضرة^(٢) .

وعندئذ أجاب القنصل الفرنسي بأن التجار الفرنسيين لن يمثلوا لقانون مستودع الأسلحة ، وأن مسألة التعويضات يجب بحسبها .

ورغم أن السلطان رفض وضع حرس حول المخازن الفرنسية ، فقد منع بيع الأسلحة منذ ذلك الحين^(٣) .

والواقع أن الشركات الفرنسية التي كانت تعمل في تجارة الأسلحة في مسقط

Viceroy, 3448/12, 3rd Sept. 1912.

(١)

B. 196, p. 35.

انظر :

Viceroy, 3433/12, 8th Sept. 1912.

(٢)

B. 196, p. 35.

انظر :

Viceroy, 10th Sept. 1912.

(٣)

كانت تضغط على الحكومة الفرنسية ضغطاً شديداً لكي تستمر في ممارسة نشاطها^(١). وكانت معظم الأسلحة تصدر من ميناء جيبوتي على البحر الأحمر والخاص للفرنسيين^(٢) ، ولا شك أن تأسيس مستودع الأسلحة في سبتمبر ١٩١٢ أدى إلى انكماش حركة التجارة في الأسلحة إلى حد كبير ، إلا أن ذلك كان سبباً في إثارة التجار الفرنسيين والشركات الفرنسية ، وتسجل الوثائق الفرنسية الاحتجاجات المتوالية من شركة الأسلحة والصيد في باريس لدى وزير الخارجية الفرنسية — قبل إقامة مستودع الأسلحة — حتى يتدخل لحماية حرية التجارة^(٣) .

ولا شك أن الحكومة الفرنسية قد أصابها قلق واضح بالنسبة لتطور الأمور ، وقد أشارت إلى أن حقوقها طبقاً للمعاهدة قد انتهكتها السلطان ، وأنه إذا لم يعد الوضع الراهن Status Que فوراً فإنها مضطرة إلى إرسال طراد إلى مسقط ، وأنها ترغب في وضع تنظيماً على أساس التعويضات ، وحتى يمكن الوصول إلى هذه الترتيبات فإنه يجب إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل صدور قانون مستودع الأسلحة^(٤) .

وقد صدرت التعليمات للسفير البريطاني في باريس بالإجابة على المطالب الفرنسية بأن الحكومة البريطانية قد عازمت تماماً على معاونة السلطان في التمسك بقانون مستودع الأسلحة لأنه لا يمس الحقوق الفرنسية طبقاً للمعاهدة ، ولكنه فقط ينظم تجارة خطيرة ، وهو حق تمنع به كل حكومة ، كما أعربت الحكومة البريطانية

Philip Graves, The Life of Sir Percy Cox, p. 142. (١)

Poincrée à Combon, 29.5.1912. (٢)

(D.D.F., Doc. No. 5).

انظر : د . د . جمال تاسم المصدر السابق ص ٣٨٢ .

D.D.F., Affaires de Mascate des Armées 1912-1914. Doc. (٣)
No. 6, Yee à Poincrée, 29.5.1912.

Secretary of State's Telegram 3540/12, 12 Sept. 1912. (٤)

B. 196, p. 35.

انظر :

عن ثقتها في أنه لن تقع حوادث يكون لها تأثيرات خطيرة على العلاقات بين الدولتين (١) .

الأزمة الدبلوماسية بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية :

لقد تمسكت الحكومة البريطانية بأن أية مفاوضات مع فرنسا ستكون على أساس الموقف الراهن المرتكز على قانون مستودع الأسلحة الذي أصدره السلطان، كما أنها رأت تحويل مسألة تعويضات التجار للتحكيم . وفي ١٨ سبتمبر ١٩١٢ قام السير فرنسيس بارتى Bertie السفير البريطاني في باريس بمناقشة ذلك الموضوع مع السير بوانكاريه وزير الخارجية الفرنسية . وقد أصر بارتى على ضرورة تحويل مشكلة التعويضات إلى التحكيم ، وفي انتظار ذلك فإنه يجب تجميع كل الأسلحة في مستودع مسقط للأسلحة ، إلا أن بوانكاريه عارض فكرة التحكيم وذكر أنه من غير المقبول اللجوء إلى ذلك الحل لأن المسألة في الواقع تتعلق بمعاهدة معقودة بين الحكومة الفرنسية وإمام مسقط ، ولم تكن الحكومة البريطانية طرفاً فيها (٢) .

وحتى يمكن تلافي أية معوقات في سبيل الوصول إلى تسوية سلمية مع فرنسا ، رأت الحكومة البريطانية أنه من الممكن تأجيل تنفيذ قانون مستودع الأسلحة في مسقط إلى أن يتم تحكيم سريع بشرط أن يتعهد الفرنسيون بالتوقف عن استيراد الأسلحة في مسقط في غضون تلك الفترة ، وأن لا يصدرُوا من مسقط أية أسلحة تكون هناك بالفعل ، والسماح للسلطان بمصادرة أية أسلحة تتعارض مع ما سبق . ولكن على أن تسلم لفرنسا ، وتبين أن هذه المقترحات سوف تثبط من عزيمته

Secretary of State, 14th Oct. 1912.

(١)

B. 196, p. 35.

انظر :

Cambon à Poincaré, Doc. No. 26, 22.9.1912, (D.D.F.)

(٢)

السلطان إلى درجة كبيرة لا مستحقة من مكاسب المصالح الفرنسية (١) .

ورأت حكومة الهند أنه إذا كانت هناك ضرورة لمنح امتياز مؤقت ، فإن ألقى ما يمكن عمله هو أنه يمكن منع السلطان من مصادرة الأسلحة الفرنسية إلى أن يتم التحكيم ، وإن كانت حكومة الهند توافق على مضمون هذا الاقتراح ، لأنها تعهد أن يكون هناك تنفيذ تعسفي لقانون مستودع الأسلحة يصل إلى درجة المصادرة (٢) .

وفي ١٣ نوفمبر أوضح السير بارني — طبقاً للتعليمات الصادرة إليه من حكومته — لوزير الخارجية الفرنسي أنه منذ صدور قانون مستودع الأسلحة لم تتم أية مصادرات الأسلحة ، وأما إن تتم أية مصادرات إلى أن يتم التحكيم السريع . إلا أن الحكومة الفرنسية رأت أنه إلى أن يتم الوصول إلى التحكيم بأسلوب سليم ، فإن الأوضاع يجب أن تعود إلى ما كانت عليه قبل صدور قانون مستودع الأسلحة ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الحكومة الفرنسية لا تستطيع الالتزام بالتحكيم دون النظر إلى الاعتبارات الأخرى (٣) .

وكانت فرنسا قد هددت في سبتمبر بأنه إذا لم تعاد الأوضاع السابقة قبل صدور قانون مستودع الأسلحة فإنها سوف ترسل طراداً إلى مسقط لحماية حقوق رعاياها ، ولقد رأت الحكومة البريطانية أنه من الضروري تدعيم قوتها البحرية في مسقط لمواجهة أية حوادث (٤) . وقد أبقى الأدميرال Bethell في ١٧ سبتمبر أن هناك أربع

Secretary of State's Telegram, 31 Oct. 1912, 4200/12.

(١)

B. 196, p. 36.

انظر :

Viceroy, 11th Nov. 1912.

(٢)

B. 196, p. 36.

انظر :

Telegram from Secretary of State, 15 Nov. 1912.

(٣)

B. 196, p. 37.

انظر :

Secretary of State, 12th Sept. 1912.

(٤)

B. 196, p. 38.

انظر :

سفن حربية مرابطة في الخليج في الوقت الحالي ، وأنه في ٣٠ سبتمبر سيكون هو نفسه في مسقط بسفينته الحربية ، وبالإضافة إلى ذلك ، فإن كل أسطول الهند — إذا ما دعيت الضرورة يمكنه أن يتمركز في مسقط قبل وصول السفينة الفرنسية^(١) .

ورأت الحكومة البريطانية أنه من الأصوب أن تربط السفن الحربية الأربعة في مسقط في وقت واحد ، وقد تم تنفيذ ذلك في ٢٥ سبتمبر . وفي ٣٠ سبتمبر وصل القائد العام هناك أيضاً على السفينة High Flyer ومعه السفن الحربية Sphinx, Espiegle Pesseus, Pelorus^(٢) .

وقامت المخابرات الحربية البريطانية برصد تحركات الطراد الفرنسي Montcalm الذي قررت الحكومة الفرنسية إرساله إلى مسقط . كما اتخذت كل الاحتياطات لاستقباله بالقوة المناسبة في مسقط إذا ما وصل إليها . إلا أنه من وجهة النظر الأخرى فإن هذا التركيز للقوة البحرية البريطانية في مسقط — على الرغم من مزاياه السياسية — فإنه شل من حركة ضبط الأمن — من وجهة النظر البريطانية — في الخليج . وقد جاءت المعلومات بالفعل في نهاية أكتوبر وأوائل نوفمبر بأن جماعات تهريب الأسلحة عندما علمت بأن السفن الحربية البريطانية قد تمركزت في مسقط ، وأن قدرتها على حراسة الخليج قد توافقت مؤقتاً ، فإن جماعات التهريب هذه انتهزت الفرصة فوراً وأهملت في تهريب الأسلحة ، مما فتح مجالاً واسعاً لترويج التجارة في الأسلحة الفرنسية المصدرة . وقد أشار السير كوكس إلى أنه من الضروري تخفيف هذا التركيز الشديد للسفن البريطانية في مسقط وذلك لمواجهة ذلك الانتشار الواسع في تهريب الأسلحة^(٣) .

Telegram from Viceroy, 20th Sept. 1912.

(١)

B. 196, p. 38.

انظر :

Secretary of State, 22nd Sept. 1912, 3654/12.

(٢)

B. 196, p. 38.

انظر :

I.O.L., Pol. Dep. Secret. Memo., B. 196, pp. 38-39.
I.O., 15 Feb. 1911.

(٣)

وفي ١٣ ديسمبر علم أن الطراد الفرنسي *Montcalm* لن يصل إلى مسقط ،
ومن ثم أرسلت التعليمات لتخفيف الأسطول المرابط في مسقط .

وعندما بدا أن هناك بعض الأمل في الوصول إلى بعض الترتيبات مع الحكومة
الفرنسية ، وأن هذه الترتيبات قد تؤدي إلى الخطر التام لتصدير واستيراد الأسلحة
من وإلى مسقط ، فإنه كان من المسلم به تعويض التجار (١) . ولاشك أن قانون
مستودع الأسلحة هو من الناحية الرسمية إجراء داخلي في مسقط ، وهو بهذا الشكل
إجراء من قبل السلطان ، وأي تعويض لتجار الأسلحة عن خسائرهم الناتجة عن
تنفيذ هذا القانون ينبغي أن يكون من قبل السلطان ، إلا أنه كان من المستحيل على
السلطان — اضيق ذات يده — دفع هذه التعويضات . وكان من المرغوب فيه
— من وجهة النظر البريطانية — تحاشي مبدأ تعويض التجار إذا كان ذلك ميسوراً
لأن تكاليف التعويضات سوف تكون فملا على نفقة الحكومة البريطانية ، وعلى
نفقة السلطان من الناحية الرسمية (٢) .

ومنذ صدور قانون مستودع الأسلحة ، أصر القنصل الفرنسي على ضرورة
تعويض التجار الفرنسيين ، وفي الحقيقة كانت تصله تعليمات بأن فرنسا سوف
تسحب معارضتها للقانون المذكور إذا ما سمح ببدء التعويض (٣) .

وقد رأت حكومة المهند أن شراء كميات الأسلحة الموجودة في مسقط هو الشكل
الوحيد المقبول للتعويض ، وكانت الشركات الفرنسية وحدها هي التي يمكن وضعها
في الاعتبار ، وأهمها شركة *Goguyer et cit, Louis Dieu* هذا بالإضافة إلى
شركتين أمريكيتين يمكن اعتبارهما تحت الحماية الفرنسية .

وقد بحث السير كوكس هذه المسألة ؛ وقدر أنه كانت توجد في مسقط في

I.O.L. Pol. Dep., B. 182, Arms Traffic at Muscat, (١)
B. 196, p. 38.

Telegram from Viceroy, 1st Dec. 1912, 4619/12. (٢)

I.O.L. Pol. Dep., B. 182. (٣)

١٤ ديسمبر ١٣٠٠٠ بنديقية و ٢٠٠٠٠٠٠٠ طلقة ، وهذه الأسلحة والذخائر هي حجم التعويض المطلوب . وعلى أساس التقييم المتخذ في مارس ١٩١١ فإن ثمن البنديقية هو ٦٠ ريالاً ، وكذلك ٦٠ ريالاً لسكل ألف طلقة ، وبذا فإن مجموع التعويض سوف يصل إلى ٨٤٠٠٠٠٠ ريال ، وكان من رأى كوكس أن هذا التعويض ينطبق فقط على الأسلحة الموجودة بالفعل في مسقط ، وأن أية أسلحة أخرى خارج مسقط فينبغي بالضرورة أن تستثنى من هذا التعويض .

كما أضاف كوكس أنه إذا « ما وافقنا على شراء شحنات الأسلحة الفرنسية التي لم ترسل إلى المستودع تحديداً للقانون ، فإنه من الأصوب أيضاً شراء شحنات الأسلحة الخاصة بالتجار غير الفرنسيين ، طالما أنها قد أودعت في المستودع طواعية وإذعاناً للقانون » . وقد وافقت حكومة الهند على هذه المقترحات ، ولكنها أعربت عن اعتقادها بوجوب اشتراك حكومتى لندن والهند في دفع قيمة التعويض مناصفة^(١) .

وفي ٢٠ ديسمبر اقترح السيد إدوارد جراي الحلول الآتية بقصد تسوية ذلك الموضوع بطريقة ودية :

أولاً : تقبل الحكومة البريطانية أن تتنازل عن حقوقها في المساواة التامة بالنسبة لمعاملة البضائع الإنجليزية والفرنسية التي تمر في موانئ الجزائر ومراكش طبقاً للمادة الرابعة من الإتفاق الودي لسنة ١٩٠٤ .

ثانياً : تعترف الحكومة الفرنسية من جانبها بشرعية قانون السلطان (قانون مستودع الأسلحة) وتعهد بالامتناع عن وضع العراقيل في سبيل تنفيذه .

ثالثاً : تعهد الحكومة الفرنسية بالألا تنشر لمدة خمسة عشر عاماً تسوية ١٨٩٧ الخاصة بواردات بريطانيا من القطن في تونس والتي تنص على أن الحد الأقصى للضريبة الجمركية على هذه الواردات لا يتجاوز ٥٪^(٢) .

Telegram from Viceroy, 27th Dec. 1912, B. 196, p. 40. (١)

Cambon à Poincrée, Doc. No. 34, 20/12/1912 (D.D.F.). (٢)

على أن الحكومة الفرنسية عارضت هذه المقترحات وذكّرت أنها تجرّها إلى التنازل عن حق مقرر لها مقابل الحصول على امتيازين ، ولكنه في الحقيقة امتياز واحد ، وأن الفائدة الأخيرة ستعود في النهاية على بريطانيا ، إذ أن التنازل عن المساواة التامة في موانئ الجزائر ومراكش لا بد أن ينطبق أيضاً على موانئ مصر . وعلاوة على ذلك فإن الحكومة الفرنسية ستفقد تجارة رابحة في مسقط ، ولذلك فإنها تقترح العودة إلى فكرة التحكيم ، ولا بد في هذه الحالة من إعطاء تعويض مناسب^(١) .

والواقع أنه لم يتقرر حل نهائي لتلك المشكلة وإن كان من المعروف أن قيام الحرب العالمية الأولى قد أعطى للحكومة البريطانية الفرصة لتقوية نفوذها في منطقة الخليج العربي وأن تتخلص من جميع منافسيها بطريقة فعالة .

مصادر البحث

أولاً - وثائق غير منشورة :

India Office Library Political and Secret Library Political Department :

- B. 14
Memorandum Zanzibar Agency and Consulate Expenses (1878).
- B. 119
Memorandum by Sir Lee-Warner on the lease to France of a Coaling Station in Muscat (1900).
- B. 129
Memorandum Muscat (1901).
- B. 134
Memorandum Grant of French Flags to Muscat Dhows (1900).
- B. 135
Memo. on the use of the French Flag by Subjects of the Sultan of Muscat (1900).
- B. 151
Memo. British Interests on the coast of Arabia, Koweit, Bahrain and Katar (1905).
- B. 182
Arms Traffic at Muscat (1911).
- B. 196
Secret Memo. Arms Traffic in the Persian Gulf (1913).

ثانياً - وثائق منشورة :

- Aitchison C.u.
A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relating to India and Neighbouring Countries, vol. XI, Calcutta 1892.
- British Admiralty
A Handbook of Arabia, vol. I General.

ثالثاً - مراجع فارسية :

- همدانی (عبدالله رازی)؛
أزمنة باستانی تار سال ۱۳۱۶ شمسی هجری (بك نقشه) ایران قدیم
۹۴ کرواور - طهران ۱۳۱۷ هـ - ش .

رابعاً - مراجع أوربية :

ذكرت المراجع العربية القليلة في حينها

- Berreby (J.J.)
Le Golfe Persique (Mer de Légende — Réservoir de Pétrole),
Paris, 1959.
- Coke (Richard)
The Heart of the Middle East, London, 1925.
- Graves (Philip)
The Life of Sir Percy Cox, London, 1951.
- Harrison (Paul)
The Arab at Home, New York, 1924.
- Philby (J.B.)
Arabia, London, 1950.
- Whigham (N.J.)
The Persian Problem, London, 1903.

نقد الكتب

obeikandi.com

قراءات في الكتب العربية

- William R. Polk, The United States and the Arab World, (Harvard University Press, 1965).
- Waldemar J. Gallman, Iraq under General Nuri, (Baltimore, Maryland, 1963).
- Dana Adams Schmidt, Yemen : the UnKnown War. (London, 1968).
- Robert L. Tignor, Modernization and British Colonial Rule in Egypt, 1882-1914. (Princeton University Press, 1966).
- Emine Foat Tugay, Three Centuries : Family Chronicles of Turkey and Egypt. (Oxford University Press, 1963).

يشير كتاب وليم بولك الاهتمام بحكم أن مؤلفه يشترك منذ عام ١٩٦١ في عضوية مجلس التخطيط السياسى التابع لوزارة الخارجية الأمريكية ، وأنه يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة — بالإضافة إلى معرفته الوثيقة بالعالم العربى نتيجة للجولات التى قام بها فى شتى ربوع الشرق الأوسط وشمالى أفريقيا . وقبل أن يلتحق بولك بوزارة الخارجية الأمريكية كان يعمل فى هارفارد عضواً بمركز دراسات الشرق الأوسط . كما كان يشغل فى هذه الجامعة وظيفة أستاذ مساعد للغات الشرق الأدنى وتاريخه .

ويبدأ المؤلف كتابه بتقديم صورة عن العرب فى بلادهم ، ويخلص فى النهاية إلى تحليل واضح صريح لصالح الولايات المتحدة فى العالم العربى وتصور لما ستكون عليه العلاقات العربية — الأمريكية فى المستقبل . والكتاب فى جوهره استعراض عام لتاريخ العرب ، يهدف منه المؤلف إلى أن يستشف من الماضى العوامل التى تشكل الأحداث المعاصرة وهى القانون الاجتماعى والدين وذكريات عصر ذهبي والهوة السحيقة بين المجتمع والدولة .

ويهتم المؤلف بالمؤثرات الغربية فى العالم العربى ، ويرى أنها نقلت العرب

من العصور الوسطى إلى العصر الحديث . كما ينتقل إلى الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى الاستعمار الأوربي للشرق العربي وخلق المشكلة الفلسطينية . ويخلص من ذلك كله إلى تسكوين صورة عن الإنسان العربي الحديث من حيث ثورته الاجتماعية ونمو عناصر جديدة في المجتمع وحدوث تغيرات اقتصادية ، وتطور المفاهيم الخاصة بكتابة العرب في العالم . وفي النهاية يناقش المؤلف العلاقات بين العرب والولايات المتحدة ، ويحلل المصالح الأمريكية ، ويقدم بعض المقترحات الخاصة بالمستقبل القريب .

وهو في تحليله للسياسة الأمريكية إزاء العالم العربي ينفي أن الولايات المتحدة تهدف إلى تجميد الأوضاع القائمة في الوطن العربي برغم ما يشهده العالم من تغيير ، ويرى أن المصالح الأمريكية في الوطن العربي تتضمن النقاط الآتية :

أولاً — الحيولة دون نشوب صراع قد يؤدي تصاعده إلى خلق موقف خطير بالنسبة إلى الولايات المتحدة . ويعتقد المؤلف أن الهدف الأقصى للولايات المتحدة هو إيجاد سلام عادل ودائم في المنطقة .

ثانياً — الحيولة دون وقوع المنطقة تحت سيطرة دولة كبرى معادية للولايات المتحدة . وينفي المؤلف ما يتردد أحياناً من أن الولايات المتحدة تهدف إلى فرض سيطرتها على العالم العربي .

ثالثاً — المحافظة على حق الولايات المتحدة وحلفائها في المرور الجوي والبحري عبر المنطقة التي تشغل موقعاً جغرافياً هاماً بين أفريقيا وآسيا وأوروبا لا يوازيه استعمال طريق رأس الرجاء الصالح .

رابعاً — استمرار تدفق بترول الشرق الأوسط إلى أسواق الغرب . ورغم ذلك فإن المؤلف يرى أن بترول الشرق الأوسط قد قلت أهميته عما كانت عليه في أواسط الخمسينات .

خامساً — تسعى الولايات المتحدة إلى أن تضمن لرعاياها الدخول إلى أسواق الشرق الأوسط ، كما تسعى إلى إقرار الأمن في المنطقة .

سادساً -- إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية بما في ذلك توطين اللاجئين .

سابقاً -- تشجيع الاهتمام بمشاكل التنمية والتطوير الاجتماعي ، وخفض التسليح والتقاليل من الإنفاق على المؤسسات العسكرية .

ثامناً — نمو النظم الديمقراطية ، وجعل العرب موضعاً للحب والتقدير ، وحفز الناس على تفهم أسلوب الحياة الأمريكي والتعاطف معه .

ويحتتم المؤلف كتابه بالإشارة إلى خطورة تجدد الحرب بين العرب وإسرائيل^(١) وتحييد إيجاد تسوية للمشكلة الفلسطينية . فهو يرى أن نشوب الحرب في الشرق الأوسط ، حتى وإن لم يهدد السلام العالمي ، من شأنه أن يؤثر في برامج التنمية التي تقوم عليها آمال المستقبل : إذ أن فشل مشروعات التنمية وضغط تزايد السكان من شأنهما أن يؤديا إلى قيام حكومات أكثر راديكالية تسعى جاهدة إلى ضغط النفقات اللازمة لمثل هذه المشروعات . وحينئذ تترصد المصالح الأمريكية للخطر : فمشروعات التنمية كقيلة ، إذا ما نجحت ، بتوسيع قاعدة الاشتراك في الشؤون العامة وإيجاد ما يشبه الحكومة التمثيلية في مجتمعات لها مصلحة مقرررة في السلام .

* * *

أما كتاب جولمان عن العراق تحت حكم نوري السعيد (١٩٥٤ — ١٩٥٨) فقد كتبه مؤلفه بعد أن تقاعد عن الخدمة في السلك الدبلوماسي . وهو يستند إلى ملحوظاته وذكرياته الشخصية خلال السنوات الأربع التي كان فيها سفيراً للولايات المتحدة في العراق خلال وزارة نوري السعيد الأخيرة ، وعلى المحادثات التي أجراها مع نوري السعيد وأصدقائه من العراقيين والأمريكان .

ويتناول الكتاب نشأة نوري السعيد ، ويهتم إهتماماً خاصاً بحلف بغداد ، ويعرض لسياسة نوري السعيد الداخلية وموقفه من القومية العربية وإسرائيل ، والمصالح البريطانية والأمريكية في العراق حتى ثورة ١٤ يوليو (تموز) ١٩٥٨ . وتتضح هذه المصالح من التوجيهات التي أصدرها وزير الخارجية الأمريكية للمؤلف لدى تعيينه سفيراً في بغداد : فقد نبهه إلى ضرورة اعتبار العراق بلداً له أهميته الحيوية

(١) صدر الكتاب قبل نشوب حرب الأيام الستة في ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

في الشرق الأوسط ، بحيث أن دخوله في سلسلة المحالفات الغربية إلى جانب تركيا وإيران وباكستان من شأنه أن يشجع بلداناً عربية أخرى على دخول الحلف .

والكتاب في مجمله نموذج للتقدير الذي حظى به نوري السعيد في الدوائر الغربية . ولهذا فإن المؤلف لا يرى إلا جانباً واحداً من شخصية نوري وحكمه ، هو جانب التقدير على طول الخط . دون محاولة لتفهم وجهات نظر الوطنيين العراقيين — مما جعل ثورة ١٤ تموز تشكل ضربة مفاجئة وغنيمة للنفوذ العربي في العالم الغربي — إذ أن أصدقاء الغرب في العراق ، وعلى رأسهم نوري السعيد والملك فيصل الثاني والأمير عبد الإله الوصي على العرش ، قد قتلوا قتلة شنيعة في خضم الثورة الجارف الذي برزت خلاله الاتجاهات القومية والمعاداة للاستعمار الغربي .

ونوري السعيد إنما هو نمط من السياسة العرب القدامى الذين تحكوا في مصائر الوطن العربي في أعقاب الحرب العالمية الأولى . ومن هؤلاء الساسة من كان في البداية متمشياً مع الخط القومي ثم انحاز بالتدريج انحيازاً صريحاً للغرب دون إدراك حقيقي لما جد على الجماهير من اتجاهات وتطلعات ، ومن ثم ازدراؤهم للرأي العام ومحاولتهم كبتة . وكان نوري السعيد من هؤلاء ، كما كان مصيره دليلاً على أن المدرسة القديعة من السياسة العرب قد انتهت إلى غير رجعة وعلى أن المصارحة بصدقة الغرب أصبحت تصدم الجماهير التي كرهت الاستعمار الغربي ودعائه من الوطنيين — مما جعل مؤلفاً غريباً له وزنه — هو البروفسور برنارد لويس (١) ، شديد التشاؤم بشأن العلاقات العربية — الغربية ، وبشأن مصير أصدقاء الغرب في الشرق الأوسط .

* * *

أما دانا آدم سمث القدي كتب عن حرب اليمن العاصرة فقد بدأ نشاطه في الشرق الأوسط في عام ١٩٢٤ حين أصبح مراسلاً لوكالة اليوناي تديرس ثم لجريدة النيويورك تايمز . وبحكم عمله أمكنه في فترة قصيرة أن يتعرف على كثير من بلدان الشرق الأوسط ، حيث أولع بوجه خاص بأكثر شعوبه غموضاً ، على اعتبار أن مستقبلها دلالاته الخاصة

The Middle East of the West.

(١)

(٢) ينهى المؤلف عرضه باتفاقية الخرطوم (٣١ أغسطس ١٩٦٧) التي نصت على جلاء

القوات المصرية عن اليمن .

بالنسبة إلى مصير هذا الجزء من العالم . ومن هذه الزاوية نجده يَمْضِي في عام ١٩٦٢ بضعه أشهر في التنقل في شمالي العراق للتعرف على أحوال الأكراد ، وكانت نتيجة هذه الرحلة دراسته عن الأكراد تحت عنوان : "Journey among brave men" والكتاب الذي نعرض له يستند إلى المقابلات التي أجراها المؤلف مع أمراء أسرة حميد الدين الذين تولوا قيادة القوات الحينية الملكية التي تصدت للقوات المصرية وحلفائها الجمهوريين . ورغم محاولة المؤلف موازنة وجهات النظر الإمامية بالزيارات التي قام بها للجانب الجمهوري ، إلا أن الكتاب لا يخلو من التحيز لوجهة النظر الملكية التي تستند إلى اعتبارات عنى عليها الزمن .

على أن الكتاب لا يتعرض لحرب اليمن دون تمهيد تاريخي . فهو يعرض لتاريخ اليمن منذ أقدم العصور ، وهو مفيد بوجه خاص فيما يتعلق بالدور الذي لعبته بريطانيا في اليمن . وبعد أن دخلت إلى المسرح قوى جديدة هي مصر والمملكة العربية السعودية والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين الشعبية ، كانت لجلاء بريطانيا عن الجنوب اليمني آثار هامة بالنسبة إلى سياسة واستراتيجية كل من المسكرين الشرق والغربي . ويحاول المؤلف أن يستشف ما قد يتمخض عنه هذا التطور بالنسبة إلى تاريخ اليمن والجنوب العربي .

وبالإضافة إلى كون الكتاب عرضاً من الطراز الأول ، فإنه يستمد أهميته من أن الكتاب يفي عرضه على الاحتكاك المباشر بالأحداث - ومن ثم نجده يلقى أضواء عدة على موضوع لم ينجل كثير من جوانبه ، بحيث أنه يوفر أساساً تاريخياً له وزنه ، وذلك برغم تحامله الواضح على الوجود المصري في اليمن من زاوية المصالح الغربية في الجنوب اليمني وفي الخليج العربي وفي الشرق الأوسط بوجه عام .

• • •

ويتناول كتاب روبرت تجنور اثر الإدارة البريطانية (١٨٨٢ - ١٩١٤) في المجتمع المصري ، ويطلق أهمية خاصة على الحكومة باعتبارها أداة للتغيير . والفكرة الأساسية التي يبني عليها المؤلف كتابه هي أن الإدارة البريطانية قد أدخلت إلى مصر المؤثرات الحديثة ، وإن يكن يرى أنها لم تكن تميل إلى طبع المجتمع المصري بأسره باطباع الحديث : إذ العكس هو الصحيح في كثير من مجالات التطور المصري

الحديث . وقد حاول المؤلف أن يبين المجالات التي ساعدت فيها الإدارة البريطانية على إدخال المؤثرات الحديثة ، وتلك التي لم تصبها بكثير من التغيير ، والمجالات التي اعترضت فيها طريق التطور . والكتاب يعتمد على كثير من الأوراق الخاصة : أوراق جورست وتوماس رسل وهارى بويل وسولسبرى ومغز ودابرنون وونجت وكرومر وجرانفل وادوارد جراى .

وتوفر مصر فى نظر المؤلف نموذجاً مثالياً لدراسة الاحتكاك الثقافى والتغيير اللذين طرأ فى ظل الحكم الاستعمارى ، وذلك بفضل مائركه للمستعمرون والمصريون على حد سواء من مادة تساعد على البحث التاريخى وعلى مقارنة أحوال مصر قبل الاحتلال البريطانى بما جد على البلاد بعد عام ١٨٨٢ . هذا الى التماثل الكبير الذى يتصف به التاريخ المصرى بوجه عام ، بحيث يسهل تتبع تطور المجتمع بقطاعاته المختلفة .

ويحاول المؤلف من ثنايا كتابه أن يدحض النظرية الماركسية الخاصة بالاستعمار، من حيث أن هدفه الوحيد هو استثمار موارد المستعمرات . فهو يذهب إلى أن الحكومة البريطانية قررت احتلال مصر بسبب موقعها الجغرافى وحده لا جرياً وراء دوافع اقتصادية ، وهو يدلل على ذلك بتقرير دفن المشهور الذى يعتبر مصر مورداً للمواد الخام أو سوقاً للمنتجات الخام أو سوقاً للمنتجات الأوربية أو لرأس المال الأوروبى ، بل اعتبرها منطقة هامة بالنسبة إلى الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية — ومن ثم اهتمام البريطانيين بالمحافظة على النظام ومنع نشوب القلاقل مما انعكس فى كثير من أوجه النشاط الذى شهدته مصر فى ظل الاحتلال البريطانى كالتعليم والجيش والحركة الوطنية والإصلاح الاجتماعى وتضحياتهم ببرامج الإصلاح على مدى واسع رغبة منها فى المحافظة على النظام فى البلاد . كما أن المؤلف يدعم وجهة نظره هذه بالإشارة إلى أن كرومر لم يساند مصالح رجال فى مصر ، ومنهم بيت بيرنج الذين يتبوصله القرابة إلى كرومر ذاته .

وينهى المؤلف كتابه بتعميمين أساسيين فيما يتعلق بملق بأوضاع مصر

(أولهما) أن المؤثرات البريطانية في مصر كانت تتجه إلى تدعيم اتجاهات أعماط التطور القائمة ، دون أن يعمد البريطانيون إلى محاولة إجراء تغيير أسس التطور التي بدأت في مصر في القرن التاسع عشر ، وإن يكونوا قد وصلوا إجراء تغييرات في مجالات الري وتصدير المحصولات النقدية وإصلاح الإدارة .

(ثانيهما) أن نظم مصر لم تكن تنمو بصورة متأنة ومنسجمة بحكم أن البريطانيين كانت تدفعهم مصالحهم الخاصة إلى تضيق التغيير في مجالات معينة ، وحفز نموها في مجالات أخرى . ويعزو المؤلف ذلك إلى طبيعة الاحتلال المؤقتة في البداية وتبعية مصر للدولة العثمانية ووجود الامتيازات والحاليات الأجنبية وتبعية الإدارة البريطانية في مصر لوزارة الخارجية لا لوزارة المستعمرات وعدم إيمان الإنجليز الموجودين في مصر بعالية المثل العليا والنظم الغربية . فكثيرون منهم كانوا شديدي التشاؤم إزاء إمكانيات التطور في داخل المجتمع المصري ، متأثرين في ذلك بقوة المجتمع التقليدي ومقاومته للتغيير وعدم قدرته على استيعاب وتطوير المؤثرات الحديثة في نطاق القوالب القديمة . فلقد صرح الموظفون البريطانيون في مناسبات عدة بأنهم يشعرون بإمكان استمتاع مصر بالرخاء الاقتصادي ، ولكن في نطاق النظم السياسية والدينية التقليدية . كما أنهم اعتقدوا أن المؤثرات الغربية ستقتصر في جوهرها على مستويات مرتفعة من الحياة وعلى قسط من الاستقرار السياسي ، وأن النظم السياسية الغربية وقيم الغرب القائمة على الفردية والاعتماد النفس ستزول بزوال الاحتلال البريطاني . وأخيراً فإنهم توقعوا استمرار السيطرة البريطانية على مصر عدة قرون ، ولهذا اعتقدوا أن بريطانيا ستكون لديها فرص أوسع لإجراء التغييرات اللازمة ، خاصة وأنهم لم يأخذوا الحركة الوطنية مأخذاً جدياً على اعتقاد أنها قاصرة على فئة قليلة من الديمقراطيين الساخطين .

ومجمل القول فإن هذا الكتاب جدير باهتمام المشتغلين بتاريخ مصر الحديث .

ومختتم عرضنا هذا بكتاب أمينة طوغاي الذي سجلت فيه حياتها في مصر وتركيا وأوروبا . وعرضت فيه لأسرتها في مصر وتركيا فهي حفيدة الخديو إسماعيل والغازي أحمد مختار باشا — وقد أتاحت لها قرابتها من الأسرة المالكة المصرية فرصة لمعايشة الأرستقراطية التركية — المصرية والاطلاع على دقائق حياتها الداخلية خاصة وأن جدها كان يشغل مناصب هامة وقضى بعض الوقت في مصر بصفته قوميسيراً عثمانياً في أوائل فترة الاحتلال البريطاني ، وأن والدها (محمود مختار باشا) قد شغل وظائف هامة في الجيش التركي . وأن زوجها عمل بالسلك الدبلوماسي التركي .

وترجع أهمية الكتاب إلى أنه يتناول قطاعاً من التاريخ التركي — المصري لم يحظ بالاهتمام والدراسة حتى الوقت الحاضر فهو سجل لحياة الطبقات العليا في الإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بحكم أن المؤلفلة قد عاصرت كثيراً من العادات التركية « الراقية » التي أصبحت في ذمة التاريخ بفعل الإصلاحات والنصيرات التي قام بها كمال أتاتورك والتي استهدفت طبع تركيا بالطابع المصري على النمط الأوربي .

وفي ثنايا عرض المؤلفلة لحياتها ولتاريخ أسرتها نجدها — كمرأة — تهتم بالطعام والملبس وأدوات الزينة ، وتستطرد في سرد الحكايات و « الحوادث » وتستفيض في وصف الحياة الداخلية للأرستقراطية التركية — المصرية والأفراح الخاصة بأبناء وبنات الخديو إسماعيل (المعروفة باسم أفراح الأنجال) .

ولما كانت الأرستقراطية التركية في مصر على صلة وثيقة بالحياة في العاصمة التركية حتى بداية الحرب العالمية الأولى . فإن اللغة التركية كانت لغة التخاطب لدى أفراد هذه الأرستقراطية وفي دوائر البلاط . إلى أن تغيرت الأوضاع بعد أن تزوج الملك فؤاد نازلي صبرى التي لم تكن متحمسة لإتقان اللغة التركية واستعمالها في التخاطب ، مما دعا بعض أفراد أسرة محمد على إلى التصريح — لدى وفاة الملك فؤاد — بأن « التقاليد القديمة » قد انتهت إلى غير رجعة .

وتزيل المؤلفلة كتابها بلحق عن أوضاع « العبيد » حاولت فيه أن تفي

الاهتمام الأوربي للمجتمعات الإسلامية فيما يتعلق بأوضاع الرقيق—فهؤلاء العبيد لم يكونوا من اليأس بالشكل الذي يتصوره المرء من مفهوم هذه الكلمة . بل إنهم كانوا يشكلون قطاعاً ملحقاتاً بالطبقة الأرستقراطية وله كيانه الخاص الذي لا ينزلق إلى مستوى العبودية بمعناها الحرفي . بدليل أن كثيراً من الجوارى قد تزوجن بأفراد من علية القوم .

ورغم أن التفاصيل والذكريات الشخصية والاهتمام بالشئون النسائية تستوهب حيزاً كبيراً من الكتاب ؛ إلا أن المؤلفة قد وفقت في أن تجعل من حياتها الخاصة محوراً لوصف أوضاع قطاع من التاريخ التركي - المصري لم يحظ بكثير من العناية وهو أوضاع الأسرة وعاداتها وتقاليدها .

دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

أستاذ التاريخ الحديث
بكلية أداب - جامعة عين شمس

obeikandi.com

obeikandi.com

BRITISH ATTITUDES TOWARDS THE MAHDIST REVOLUTION

1881—1885

By

ABBAS IBRAHIM MUHAMMAD ALI
Khartoum — University

The outbreak and success of the Mahdist Revolution, which, between 1881 and 1885, overthrew the Ottoman administration in the Sudan and established an indigenous religious state, became the subject of growing concern and controversy in contemporary Britain. This controversy about the revolution produced conflicting ideas and judgments. This essay attempts to analyse the dominant contemporary British ideas about the revolution, together with some of the prejudices and calculations that gave birth to and fostered these ideas.

Until the forces of the Egyptian Government under the British General, Hicks Pasha, were annihilated at Shaykan, in the Western Sudan, on the 5th of November, 1883 by the Mahdist forces, the Mahdist Revolution had attracted little attention in both public and official quarters in Britain. Up to that time Britain had no direct interest in the Sudan. However, by November 1883 British military control over Egypt had been established; and Britain, was, therefore, committed to defend Egypt proper and the Red Sea ports against any foreign intervention. Also, Hicks was an Englishman, and, although he was employed by the Khedive of Egypt, his defeat and murder was considered, by many British individuals and groups, to be an injury to the British pride and prestige and must, therefore, be avenged.

As a result of these fears and sentiments a dialogue ensued as to how should Britain deal with the Mahdist Revolution. Out of this discussion there emerged three possible lines of policy. The first was that of containing the Mahdist Revolution south of Wadi Halfa in the north and east of the Red Sea ports in the east. This was the policy proposed by

the Prime Minister, Mr. Gladstone, and the majority of Liberal members of Parliament who had followed him. The second policy was that adopted by the Tory Opposition and the Liberal Imperialists. They argued in favour of confining the Mahdist Revolution to the Western Sudan and checking its advance in that part of the Sudan east of the White Nile. The third policy was that maintained by the Radicals. They defended the revolution and opposed any military attempt to crush or confine it.

It is necessary to keep in mind these three opposed lines of policy and the political group or groups that advocated every one of them, because, as we are going to see, every political group had chosen to propagate and defend the idea or idea that might support and further the policy they had taken.

Any contemporary discussion on the Mahdist Revolution had always started with an attempt to discover the causes that led to its outbreak. This will be clear to anybody who examines contemporary British literature on the revolution.

One idea, which was almost universally accepted, asserted that the revolution was brought about mainly by the atrocious misgovernment of the Ottoman rule in the Sudan. The idea loomed largely in all contemporary writings on the revolution. It is dominant in Lieut. Colonel Stewart's report. (1) The general impression given by this report was that the revolt was due in the first place to the venality of the Ottoman officials and their oppression of the indigenous peoples. (2) Lord Dufferin came to the same conclusion. (3) His report argued that the "disturbances" were to be attributed mainly to the misgovernment and cruel exactions of the local Ottoman authorities in the Sudan; and concluded that

(1) Lieut. Colonel Stewart was sent to the Sudan on an expedition of enquiry in December 1882. He stayed in the Sudan for about three months during which he was able to collect some information relating to the conditions in the Sudan.

(2) *Egypt No. 19* (1883) No. 3 Malet to Granville, 20 Jan. 1883 enclosure No. 1; also *The Times* 24 Nov., 1883.

(3) Lord Dufferin was on a special mission to Egypt in the period Nov. 1882 to Feb. 1883; but he took advantage of his stay in Egypt to gather some information on the Sudan.

the Mahdi's chief strength was derived "from the despair and misery of the native population." (4).

Certain other individuals, who were considered to be the best living authorities on the Sudan, were of the same opinion as that of Lord Dufferin and Lieut. Colonel Stewart. Sir Samuel Baker had often asserted that the "rebellion" was brought about by the maladministration of the Sudan by corrupt and dishonest governors. (5) *The Times* correspondent in the Sudan, Frank Power, was convinced that it was the heavy taxation and the corruption in the administration that caused the "rebellion". (6) General Charles Gordon took the view that the "rising" was due to nothing but the rotten character of the Ottoman rule. (7).

The view was taken up by nearly every paper and journal that discussed the revolution. It was also current in Parliamentary circles. It was, perhaps, the only point on which both the Government and Opposition concurred. (8).

Recent historical research on the period of the revolution has shown that the corrupt and unjust Ottoman administration was one cause which had favoured the outbreak of the revolution. But, modern historians do not accept the view that it was the only or the principal cause, because to accept this idea is to deny or belittle other important contributory causes. (9).

(4) *Egypt No. 19* (1883) No. 39 Dufferin to Granville 2 April 1883.

(5) *The Times*, 27 Nov., 1883; also, Samuel White Baker, «Egypt's Proper Frontier», *The Nineteenth Century*, No. LXXXIX (July 1884), pp. 27-46.

(6) Frank Power, *Letters from Khartoum*, (London, 1885), p. 91.

(7) *Pall Mall Gazette*, 8 Jan. 1884; also, A. Egmont Hake, *The Journals of Major-Gen. C.G. Gordon, C.B. at Khartoum*, (London, 1885).

(8) For example see *Hansard*, 3rd ser CCLXXXIV, cols. 570-759, 12 Feb. 1884.

(9) P.M. Holt, *The Mahdist State in the Sudan, 1881-1898*, (Oxford, 1958), pp. 25-36; idem, «The Place in History of the Sudanese Mahdia;» *Sudan Notes and Records*, XL (1959), pp. 107-12, idem, *Modern History of the Sudan* (London, 1961), pp. 75-78; G.N. Sanderson, *England, Europe and the Upper Nile*, (Edinburgh, 1965), pp. 15-16.

It is not difficult to explain why contemporary British opinion accepted uncritically this cause as the main one. It was the most obvious cause, and, as such, was considered the principal one for the outbreak of the revolution. Nearly every work written in English on the Sudan during the seventies had emphasised the evil character of the Ottoman régime in the Sudan. "There can be little doubt", wrote the Earl of Northbrook to the Earl of Granville, "in the minds of anyone who had read Sir Samuel Baker's Book, Dr. Hill's account of Colonel Gordon's work in the Sudan and Colonel Stewart's report that the Egyptian rule over the Sudan had been a great evil to the people of the country. (10) Thus, even before the outbreak of the revolution, European travellers and adventurers had succeeded in convincing the public that the Ottoman rule in the Sudan had been little better than "a chapter in the history of crime."

It had never occurred to contemporaries that the picture of Ottoman rule presented to them by the European writers who had travelled, or had taken jobs, in the Sudan was an exaggerated one. It was coloured in that manner in order to suit the selfish ends of those European adventurers, who, most of them, dreamt of being appointed governors in the Sudan. They had always asserted that the only way to establish "justice" and "good government" in the Sudan was to get rid of the Turkish governors and to replace them by Europeans.

However, judged by the administrative standards of its age or by the British administration in Ireland at the time, the Ottoman administration in the Sudan was not much worse. Recent scholarly work on the *Turkia* has made this fact clear. The latest objective and "scientific" account of the Ottoman administration, written by an Englishman, (11) is not entirely unfavourable to the Ottoman rule in the Sudan, and is certainly far less censorious than the writings and speeches of contemporary Europeans.

(10) Public Record Office, 30-29-139. Memorandum by Northbrook on the situation in the Sudan, enclosed in Northbrook to Granville, 29 Dec. 1883.

(11) R.L. Hill, *Egypt in the Sudan, 1820-1881*, (Oxford, 1959).

If public men of all shades of political opinion, all politically minded persons and all who were interested in the Sudan had attributed the outbreak of the revolution to the faults and misgovernment of the Ottoman administration, the logical step for all those men and groups should have been to sympathise with the revolution. This was hardly the case. Several political groups and individuals who had denounced the injustice, oppression and corruption of the "Turks" refused to think of the Mahdi's movement as a revolutionary nationalist movement against a corrupt alien rule.

It was only the Radicals, Mr. Gladstone and his Liberal supporters in Parliament and the anti-imperialists, who really adhered to the view that the Mahdist rising was a revolutionary revolt waged against an unjust foreign rule. The Radicals had taken this view from the start and they persisted in upholding it. They continued to defend their belief that the Sudanese were justified in launching their popular movement because of the bad and inefficient Ottoman rule. The Radicals had always portrayed the revolution as one of a struggle for national freedom. They expressed this sentiment in the papers, in Parliament and in public speeches.

Speaking in the House of Commons in February 1884, the Radical member Sir George Campbell described the Mahdi's movement as a popular revolution. (12) At a public meeting at Torpoint on 10th February, 1885, the Radical leader, Mr. Leonard Courtney declared his conviction that the revolution was simply an assertion on the part of the Sudanese of their will to be free, and that they were fighting for their liberties. (13) The Radical Lord Wentworth described the Sudanese as men fighting in defence of country, liberty, life honour and religion. (14) Other Radical members in Parliament, Sir Wilfrid Lawson, Henry Labouchere, John Morely and Lord Derby continued to defend the revolution as a struggle for liberty and freedom.

(12) Hansard, 3rd ser. CCXCIV, col IIII, 23 Feb. 1884.

(13) The Times, 11 Feb. 1885; also the Annual Register, (1885), pp. 22-3.

(14) Hansard, 3rd ser., CCCXXXV, 26 Feb. 1884.

The Prime Minister, Mr. Gladstone sympathised with this idea, and, at one time, was very enthusiastic about it. Mr. Gladstone's "curious instinct for Liberty" disclosed to him that the Sudanese were fighting for freedom and that the Mahdist Revolution was a movement which had as its aim Liberty. In a long memorandum dated 9 April 1885, circulated to the members of the Cabinet, Mr. Gladstone stated that he had from the first "regarded the rising of the Sudanese against Egypt as a justifiable and honourable revolt." (15) But, for one reason or the other, Mr. Gladstone refrained from expressing this idea in public until the 12th of May 1884 when Sir Michael Hicks Beach provoked him when the latter demanded that the revolution must be put down. Mr. Gladstone retorted that any war to put down or stem the Mahdi "would be a war of conquest against a people struggling to be free." (16) He would not be a party to such a war because during all his political life he had never opened his lips in favour of a domination such as that exercised by certain countries upon other countries, and he, therefore, declined to become a party to maintain the possession of the Sudan by the Khedive's government. (17).

These views of Mr. Gladstone were violently attacked by the Conservatives and Liberal Imperialists. They mocked and derided Mr. Gladstone's portrait of the Mahdist Revolution as one for freedom and Liberty. Front-Bench Spokesmen of the Tory Opposition, Mr. Bourke, Mr. A.J. Balfour, and Mr. Ashmead-Bartlett ridiculed Mr. Gladstone's view. Mr. Ashmead-Bartlett declared that :—

"There never was a purer fiction for a greater effort of imagination than to describe as a war of freedom the movement of the fanatical, savage, cruel, bloodthirsty and barbarous chieftain. The war-like hordes from whom the Mahdi got his principal support had been slave-dealers in the Sudan for generations and General Gordon told us distinctly that

(15) British Museum, Add. Mss. 44769, *The Military Situation in the Sudan*, April 9, 1885; also John Morley, *The Life of William Ewart Gladstone*, (London, 1909), Vol. 11, pp. 532-6.

(16) Hansard, 3rd. ser. CCLXXXVIII, 12 May, 1884.

(17) *Ibid* CCLXXXIV, cols, 715-16, 12 Feb. 1884.

this war of slave dealers, communists, and pillagers against established order and government was a war of one-third against two-thirds of whom were terrorized into submission." (18).

The Conservatives and the Liberal Imperialists could not have failed entirely to depict the nationalist character of the revolution because they had from time to time criticised the evil and tyrannical character of the Ottoman rule which led to its outbreak. If they had recognised that fact the logical conclusion would have been to acknowledge that the Sudanese were fighting a war of liberation. But such an admission would have forced them to throw off their imperialist designs on the Sudan. During the years 1884-5 the Conservatives and the Liberal Imperialists were strongly against the official policy of forcing the Khedive's government to abandon the Sudan and they demanded that at least that part of the Sudan east of the White Nile should be included in the British sphere of influence. But if they had admitted that the Sudanese were fighting for their liberty what justification or right had Britain to wage a war against a people fighting for freedom. It is interesting to see that even the Imperialists could not think of themselves being branded as enemies of freedom; and instead of exposing themselves to such a charge they denied and ridiculed the idea that the Mahdist Revolution had a nationalist character.

Not only did the Tories and Liberal Imperialists deny the nationalist character of the revolution but they did their best to blacken and traduce the general character of the revolution. Nowhere was this clear than in their attempt to discredit the revolution by describing it as a movement engineered and led by slave traders. They claimed that the Mahdi was a tool of the slave traders who were using him in order to gain control of the country.

This view had constantly been expressed in Parliament by the Tory and Liberal Imperialist members. The two figures who were most vehement in uttering it, and who

(18) *Ibid.*, CCLXXXVIII, col., 248, 13 May, 1884.

tried, and did succeed in converting the House of Commons to it, were the Liberal Imperialist leader, W.E. Forster (19) and the Tory Mr. Ashmead-Bartlett. (20).

This last named hypothesis was soon adopted by the majority of the British. It was even dominant among these Britons who sympathised with the revolution. It gained such a considerable currency because persons, who were supposed to have knowledge of the Sudan and its peoples defended it. General Gordon went as far as to accuse the Mahdi himself of being an active slave trader. (21) Sir Samuel Baker claimed that the "suppression of the traffic" was an incentive to rebellion. (22).

The Press had also taken up the idea. A large section of the Press claimed that the Mahdi was not the real leader of the revolution that bore his name. *The Times* held that the Mahdi was supported mainly by the slave traders and that the Ansar were "fighting in the interests of the great slave-owners and the slave-dealing chiefs." (23) Blackwood's Edinburgh Magazine declared that slavery was one of the greatest motives for the outbreak and spread of the revolution as slavery was "ingrained in the nature of the Arab race." (24) The Anti-slavery Reporter, the organ of the Anti-slavery Society, had constantly asserted that the revolution was organised by the slave traders and that the success of the Mahdi was due to the support of the slave traders rather than to the religious zeal of his followers. (25).

This thesis was too easily and uncritically accepted because there had been some evidence that "among the Mahdi's

(19) Hansard, 3rd ser. CCLXXXIV, col. 941, 14 Feb. 1884.

(20) *Ibid.*, CCXCIII, col. 1002, 4 Nov. 1884, also *Ibid.*, CCLXXXVIII, col. 248, 13 May, 1884.

(21) British Museum, Add. Mss. 3447, General Gordon's Journal, Vol. 1, p. 45, also p. 55.

(22) Samuel White Baker, *The Sudan and its Future*, the Contemporary Review, XLV (Jan. 1884), p. 75.

(23) *The Times*, 8 Feb. 1883, also 29 Nov. 1883.

(24) Blackwood's Edinburgh Magazine, No. DCCCXXIII, (May, 1884), p. 675.

(25) Anti-slavery Reporter, 12 May 1883; also 19 March 1884.

first adherent" and for a long time "the backbone of his military strength were the tough and turbulent northern Sudanese frontiersmen who dominated the slave and ivory country of the Bahr al-Ghzal." (26) Also among the lieutenants of the Mahdi were such personalities as "Uthman Digna and Ilyas Pasha Umm Birayr, who had been slave traders and who were better known in Britain than the Mahdi himself. The Baqqara, who composed the backbone of the Mahdi's army, were suspected of being slave traders too. And, unlike "Urabi Pasha, the Mahdi was silent about the slave trade and slavery in his statements and proclamations. In 1882 "Urabi Pasha included in his programme of national reform the complete abolition of slavery in Egypt. (27). The absence of such an item in the proclamations issued by the Mahdi prompted the Anti-slavery Reporter to protest against such an omission. (28).

However, it was doubtful that even if the Mahdi had included in one of his proclamations an article against the slave trade and slavery this would have induced the Anti-slavery society and its mouthpiece, the Anti-slavery Reporter, The Times and the Liberal Imperialists, to change or modify their views of the Mahdist Revolution as one of slave traders and holders. For, when "Urabi Pasha and his National Party declared that their programme contained the suppression of the slave trade and the abolition of slavery, the secretary of the Anti-slavery Society, Mr. Allen, took the cudgels against them in The Times; it was an unheard — of thing, he said, that a Muslim reformer should "dare to strike at the roots of a time honoured institution." (29). The same charge would have been levelled against the Mahdi if he dared to come out against the slave trade and slavery.

-
- (26) G.N. Sanderson, *England, Europe and the Upper Nile, 1882-1899*, (Edinburgh, 1965), p. 15-16 also P.M. Holt, *The Mahdist State in the Sudan, 1881-1898* (Oxford, 1956), pp. 34-5; idem, *A Modern History of the Sudan, from the Funj Sultanate to the Present Day*, (London, 1961), pp. 78-9.
- (27) *Anti-Slavery Society Papers*, Rhodes House, Oxford; Wilfrid Blunt to Allen, 17 March, 1882; also *The Times*, 25 March, 1882.
- (28) *Anti-slavery Reporter*, 12 May, 1883.
- (29) *The Times*, 31 March, 1882; also Wilfrid Scawen Blunt, *Gordon at Khartoum*, (London, 1911), pp. 98-99.

Recent historical studies on the Mahdia do not confirm this portrait of the revolution which represented it as a slaver's revolt. Some modern historians say that the attempts of the Government to suppress the slave trade formed an immediate cause of discontent. (30) Others think that these attempts of the Government were one of the principal causes leading to the outbreak of the revolution. But modern historians do not go as far as to accuse the Mahdi himself of being a slave trader or a puppet of the slavers; they do not see in the revolution a movement engineered and led by slave traders.

Thus, this image of the revolution was certainly a mistaken one. That an element which formed the Mahdi's revolutionary army had been slavers did not prove the point. It was not shown, and is still to be investigated, whether the ex-slavers who joined the Mahdi had done so out of a conviction that the Mahdi was going to allow them to continue their trade or because they genuinely believed in the Mahdi's religious ideas. Also it had not been shown what percentage of the Mahdi's supporters were slave traders and whether they continued to practice their traffic during the revolutionary period. There was some evidence to show that until the Mahdi's death in June 1885 everybody who had joined the Mahdi was engaged in the jihad (holy war) and it could hardly be expected that any substantial number of the Ansar were occupied in slave-raiding or trading.

One other hostile view of the Mahdist Revolution, which was dominant was that which represented it as an essentially destructive and anarchical movement and which claimed that if the Mahdi succeeded a deluge of barbarism would certainly and necessarily follow his success.

The idea was continued to be propagated by a large section of the Press. The Times stated that the revolution meant

(30) P.M. Holt, *the Mahdist State*, p. 25. Muhammad Fu'ad Shukri, *Mist wa-l-Sudan*, (Cairo, 1958), p. 276; Al-Shatir Busaifi «Abd al-Jallil, *Ma'alim Tarikh Wadi al-Nil*, (Cairo, 1957), pp. 163-5. Makki Shibaika, *Al-Sudan fi Qarn 1819-1919* (Cairo, 1947), p. 154.

“rapine, bloodshed and discord.” (31) To the Anti-slavery Reporter the revolution was a reign of anarchy and barbarism. (32) In May 1884 the Pall Mall Gazette claimed that the revolution “was degenerating into anarchy”. (33).

This view was enthusiastically defended in the two Houses of Parliament. Mr. Goschen, the leader of the Liberal Imperialists, saw in the revolution nothing but “anarchy and fanaticism”. (34) The Whig leader, Lord Hartington’s portrait of the revolution was that of a “power of barbarism and anarchy.” (35) The leader of the Opposition in the House of Lords, Lord Salisbury, denounced what he called the “oppressive”, “barbaric” and “fanatic” character of the revolution. (36).

What evidence did the propounders of this view have to present to the public to prove that this image of the revolution was a correct one? They alleged that the Ansar had “massacred” the Ottoman garrisons at el-Obeid (al-Ubayyid), Berber, Sinkat and Khartoum, and “butchered Hick’s army”. Because of these massacres and “those horrible” and “unparalleled scenes of carnage and ruin”, the revolution, they argued, degenerated into a bloodthirsty orgy, a one reign of terror and the Ansar were but fanatics and cutthroats.

However, the revolution found those who were willing to defend it against this charge. The Radicals denied that the revolution was aggressive and anarchical. They retorted that whenever a garrison had surrendered there was no massacre and the soldiers were incorporated in the victors’ army and that it was only when the British Government began to intervene and to send troops that such massacres took place. (37). Moreover, if massacres could prove that a certain people were barbaric, the same charge could be laid upon British be-

(31) The Times, 31 Oct. 1883; also 12 Dec. 1885.

(32) Anti-Slavery Reporter, 19 March 1884.

(33) Pall Mall Gazette, 6 May 1884.

(34) Hansard, 3rd. ser., CCLXXXVIII, col. 270 13 May. 1884.

(35) Ibid., CCXCIV, Col. 1702, 27 Feb. 1885.

(36) Ibid., CCLXXXVIII, col., 1324, 27 Feb, 1885.

(37) Ibid., CCLXXXV, col. 763, 7 March 1884.

cause British troops had massacred the Egyptians at al-Tal al-Kabir and the Sudanese in the Eastern Sudan. (38).

Recent research has shown that these alleged "massacres" of the Ottoman garrisons by the Ansar were exaggerated and it has been shown that the Mahdi and his generals tried their best, and did succeed to a large extent, to avoid fighting and bloodshed whenever it was possible for them to expand the revolution peacefully and without shedding blood; and that many of the garrisons which were thought to be "massacred" had capitulated, incorporated in the revolutionary army and subsequently played a very important part in the spread of the revolution. (39).

Until the defeat of Hicks Pasha the British failed to recognise the Mahdi as a religious leader or to see that the revolution was primarily a religious one. It was only after November 1883 that some Britons began to think of the revolution as a religious revolt.

The War Office was the first governmental department to speak of the revolution in religious terms. A War Office memorandum entitled "The Insurrection of the False Prophet" written in the Intelligence Branch on the 23rd of November 1883 considered that one of the principal causes of the "rebellion" was the "religious fanaticism of the native tribes of the Sudan". The document attributed this "religious fanaticism" to the fact that "for many years the creed of Mohamad had been making immense strides in Central Africa where it seems to have a particular fascination for the native races"; and as a result of this expansion of Islam in Central Africa "the idea of the regeneration of Islam by force of arms has gained a considerable hold among" the Muslims. This report considered that according to the intentions of the Mahdi as set forth in his various proclamations the purpose of the Mahdist Revolution was "to establish the

(38) *Ibid.*, CCLXXXV, col. 372-5, CCCXXXIV, col. 909, CCXCIV, col. 1329, CCLXXXVI, cols. 780-1.

(39) P.M. Holt, *The Mahdist State*, pp. 37-97.

thousand years kingdom in Mecca and to convert the whole world". (40).

The Press was late in admitting that the revolution was religious. It was only in November 1883 that the religious element in the revolution began to be explored and analysed in the columns of the Press. The daily papers, as well as some of the monthly and quarterly periodicals, entered into a discussion relating to the religious aims and motives of the Mahdi. The whole idea of a "Mahdi" and the prophecies bearing on it were discussed and the conclusion was often arrived at that Mohammatd Ahmad was a "False Prophet."

However, the estimate of the revolution as a religious one varied between two extremes. One extreme was represented by General Gordon who maintained that it was an entire mistake to regard the Mahdi as in any sense a religious leader and he thought that the movement was not religious but an outbreak of despair. (41) The other extreme was represented by the anti-imperialist Wilfrid Blunt and the Radical peer, Lord Derby, who had constantly stated their belief that the Mahdia was a revolutionary movement for the regeneration of Islam. Blunt compared the Mahdi with Muhammad Abd el-Wahab, the founder of the Wahabi movement in Arabia. He considered that the Mahdi resembled is almost every particular the founder of the Wahabi movement in Arabia. Lord Derby considered the Mahdi to be the head of a religious war, or a "Mohammadan crusade" and declared his conviction that as far as the religious force of the revolution "there has been nothing like it, I will not say since the day of the Prophet and his immediate successors, but certainly since the Wahabi movement tin Arabia". (42).

If Wilfrid Blunt and Lord Derby were able to see in the Mahdist revolt a revolutionary reforming Islamic movement, they were not representatives of the general trend of thought.

(40) War Office 106/221 «The Insurrection of the False Prophet», compiled in the Intelligence Branch, 23 November, 1883, p. 1.

(41) Pall Mall Gazette, 8 Jan., 1884. Ibid., 6 May 1884.

(42) Hansard, 3rd ser., CCLXXXIV Col. 642, 12 Feb. 1884.

Ignorance of the religious aims of the Mahdi and the religious principles behind the revolution might have contributed to the British failure to envisage the revolution in terms of a movement for the revival of Islam. Interest on the part of another section of the British — the interest being personal, financial or imperial — forced them to deny or belittle the religious character of the revolution because the public at large was reluctant to acquiesce in the plans and policies of interested groups if the execution of such policies would lead to a religious war which might have wider repercussions in the Muslim world. A war with the Mahdi might excite the religious feelings of the Muslims under the British Crown. The Radical leader Sir George Campbell gave the warning that "it would be monstrous for the Government of the Queen, who had so many millions of Mohammedan subjects to embark on a crusade against this Mohamedan leader." (43).

A fairly common view of the revolution was that it was fanatical. It was believed that the Mahdi and his supporters were fanatic Muslims; and that their fanaticism was fostered with their hatred of the Christians. This fanaticism bred in them a strong desire to exterminate the Christians and to propagate anti-Christian ideas. (44) The belief was widespread that this so-called fanaticism was directed not only against Christianity but also against western civilisation too. It was commonly believed that this fanaticism had given to the Mahdist Revolution its militancy, its aggressiveness and the enthusiasm for the propagation by force of arms the religious principles of the revolution. The general view was that it was this "fanaticism" that bred and fed what was thought to be the Ansars' desire to shed blood.

This supposed fanatical character of the revolution aroused strong feelings among the British; and was condemned by nearly everybody in Britain. Even Mr. Wilfrid Blunt and Mr. Gladstone, who generally sympathised with the revolution, did not approve of it. Mr. Gladstone disliked it be-

(43) *Ibid.*, CCLXXXIV. col. 643, 12 Feb. 1884.

(44) H. Ganem, «Europe's Stake in the Sudan», *The Fortnightly Review*, CCIX (May 1, 1884), pp. 650-9.

cause he thought it generated bloodshed. Wilfrid Blunt hated it because he assumed it had converted the Ansar into being reactionaries. (45).

Dr. Norman Daniel thinks that at all times, to the British and French alike, "fanaticism" was an congenial and an endless source of suspicion. (46). I would add that. It was also and endless source of fear. Most resistance movements to European imperialism and ancroachment on the Muslim world in the nineteenth century took a religious form because the leaders of such movements were well aware that the Muslims could be persuaded to rebel if their religious feelings were excited. Religion was a stronger appeal than nationalism; and national feeling found its expression in religious movements.

So the fear of the Ansars' "fanaticism" was as much as hatred of it. It was feared that this "fanaticism" might cause excitement among the Muslims in other parts of the world; and especially among the Muslims in India. The Muslims under the British Crown might be roused into rebellion and in this case Britain would be forced to enter into a struggle with "Mohamedan fanaticism".

There was not doubt that the majority of British thinking people, although they did not fully understand the religious nature and ideology of the revolution, they envisaged that it was this factor that gave to the revolution what they considered to be a reactionary, anti-Christian and anti-Western characters. However, the British failed to understand that the religious enthusiasm of the Ansar to which the British gave the name "fanaticism" was the main force that gave to the revolution its militancy and that moved the Ansar to fight with bravery which astonished both friends and foes.

(45) Wilfrid Scawen Blunt, Gordon at Khartoum, (London, 1911), p. 29.

(46) Norman Daniel, Islam, Europe and Empire, (Edinburgh, 1966), p. 418.

Few Britons held the view that the revolution was a reaction to the encroachments of Christian Europe on Muslim lands. Wilfrid Blunt was a strong advocator of this idea. He argued that the Mahdist Revolution, like that of "Urabi", began as a national rebellion of a people against long misgovernment, but later took a religious complexion when Christian Europe had intervened in support of the tyrannical Khedive Tawfiq against the people. (47) Had the Christian army been withdrawn from Cairo, Blunt argued, "the Mahdī's rebellion would have lost its fanatical *raison d'être*". (48).

The Fortnightly Review discussed this theme and concluded that one of the causes of the "insurrection" in the Sudan was the apprehension excited among the Muslims by already witnessed by Christian Europe. France had occupied Tunis and England entered into possession of Egypt and the canal. (49).

Although this last named hypothesis attracted few contemporaries, modern historians were decidedly against it. Professor P.M. Holt thinks that originally the reaction was not against Christendom or Europe or the West, but against the religious establishment in the nineteenth century Ottoman Empire. (50).

Professor Shibeika and Professor Sanderson were of the same opinion. They regard the revolution as a movement which was directed against the Turks in the first place. (51) In fact the writings and proclamations of the Mahdī support this modern view. The Mahdī had specifically stated that his revolution was against the Turks who changed religion and replaced it by *Kufr*. They annulled the laws of the Merciful and revived the ways of Satan after their own inclination. (52).

(47) Wilfrid Scawen Blunt, *op. cit.*, p. 29.

(48) *Ibid.*, p. 16.

(49) H. Ganem, *op. cit.*, p. 654.

(50) P.M. Holt, «The Place in History of the Sudanese Mahdia», *Sudan Notes and Records*, XL (1959), p. 108.

(51) Mekki Shibeika, *British Policy in the Sudan 1882-1902*, (O.U.P. 1952), pp. 18-19. G.N. Sanderson, *op. cit.*, p. 15.

(52) Mahdia 1-34-11 the Mahdi to the Negus Yohanes 1302-1884-5 (no date or month).

It is hoped that I have succeeded in surveying some of the British views about the Mahdist Revolution which were current in contemporary Britain. It is remarkable that every idea or hypothesis originated with, was propagated and defended by a certain individual or group of men. The distinction must be made among three groups. First, there were those who before November, 1883, campaigned for the containment of the revolution in the Western Sudan and checking its advance into the Northern and Eastern Sudan, and, who, after the fall of Khartoum in January 1885, demanded that the British Government should intervene to crush the revolution. This group included such individuals as Sir Samuel Baker, as well as the Tories and the Liberal Imperialists. The second party tried its best to establish the principle of non-intervention and ultimately did succeed. This group opposed any direct British intervention in the Sudan, was willing to accept the existence of a Mahdist state as long as it confined itself to the Sudan and as long as it did not endanger the security of Egypt, of the sea communications to India and the integrity of the Ottoman Empire. This group included Mr. Gladstone and behind him the majority of the Liberal Party in Parliament and in the country. The third group, which was a minority compared to the first two groups, sympathised with the revolution and even welcomed its expansion in other parts of the Muslim world. This group, the Radicals, was against any British military intervention to suppress the revolution inside the Sudan or to check its advance into other Muslim lands. If we use modern terms the first group were imperialists or colonialists while the second and third groups were anti-imperialists. Each of the two camps, the imperialists and the anti-imperialists, thought that their policy and attitude were the right ones and the ones which would serve the interests of Britain. Those who were imperialists usually advocated British intervention to contain or crush the revolution; and in order to convince themselves, the British Government and the public of the soundness of their policy and attitude, they portrayed the revolution in very dark terms. It is interesting to realise that the most unfavourable images of the revolution were those con-

structed and preached by the Conservatives and the Liberal Imperialists. Almost never did they pass a charitable judgment on the revolution. On the other hand, the anti-imperialists, in order to justify their anti-imperialist attitudes, pictured the revolution in favourable terms.

So in both cases the influence of policy on ideas was clear. The ideas of each group were dictated by a pre-conceived policy. The policy was determined by interest.

Ignorance was also largely responsible for many of the erroneous views about the revolution. Most of the British failed to understand the revolution because of their ignorance of all that pertained to the revolution and its leader. All reports on the revolution that reached England were third or fourth-hand information. Their inadequacy, contradictory nature and their mixture with the personal ignorance, prejudice and self-interest of those who had communicated them, can hardly escape the eye of an observer at this distant time.

The British Government and public possessed no authentic knowledge of the real nature and progress of the revolution, or a correct picture of the Mahdi's character, his intentions and his motives. This was due to the total lack of any sort of contact between Britain and the Sudan during this revolutionary period. To come to an appropriate understanding of the revolution, the British needed to arrive at an accurate estimate of the Mahdi's character, his views and his intentions. But, this was a knowledge which no Britan or an European had completely, or partially, acquired in the life time of the Mahdi. Mr. Gladstone was annoyed at the fact that he and his government knew neither the Mahdi's disposition nor his power. (53) The Fortnightly Review complained of the "mysterious and distant seclusion of the Mahdi" and the "absence of precise information concerning his person and the extent of his authority". (54) Sir Charles Wilson who was, in November 1884, in Dongola, complained not so much of the paucity of information reaching them from the Mahdi's camp as of the quality of it, which was all about

(53) Public Record Office 30-29-127 Gladstone to Granville 18 Dec. 1883.

(54) The Fortnightly Review, No. CCIX, May 1, 1884, p. 674.

sickness and as such could never be of help to them in assessing the strength and intentions of the Mahdi. (55).

This ignorance was clearly responsible for much of the almost universal unreality of everyone's thinking. Because no European could go into the Mahdi's association and then emerge to tell the Western World who on earth was that mysterious figure, no one could have known what was going in the Mahdi's mind, what he was thinking or planning and what were his motives. In these circumstances anyone could make his choice of what he wanted to believe. Nor was it difficult for any Briton to choose an opinion that flattered his prejudices, his ignorance and self-interest. And, as we have seen, such opinions based on ignorance and determined by self-interest and prejudice were far away from the truth as revealed by recent research on the Mahdia.

(55) Public Record Office, 30-57-5 C. Wilson to Kitchener, Dongola, 23 Nov. 1884.